

موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

في العصر الأموي في المشرق

المجلد الخامس

المؤلف

حسين علي الهنداوي

الموسوعة مسجلة في:

- ١ - مكتبة الإسكندرية
- ٢ - مكتبة بيت الشباب في الشارقة
- ٣ - مكتبة جمعة بن ماجد - الإمارات
- ٤ - مكتبة الفهد الوطنية
- ٥ - مكتبة بن ادريس المغرب - مراكش
- ٦ - مكتبة بن باديس - الجزائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة صاحب الموسوعة حسين علي الهنداوي

- أ - أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي
ب - له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية
ج - نشر في العديد من الصحف العربية
د - مدرس في جامعة دمشق - كلية التربية - فرع درعا
هـ - ولد الأديب في سوريا - درعا عام ١٩٥٥ م
و - تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا
ح - انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب - قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣
ك - حائز على إجازة في اللغة العربية
ص - حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق
ع - عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين - قسم اللغة العربية في مدينة درعا
ف - انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.
- عضو اتحاد الصحفيين العرب
- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب
- عضو تجمع القصة السورية
- عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

- ١ - الكويت (الرأي العام - الهدف - الوطن)
- ٢ - الإمارات العربية (الخليج)
- ٣ - السعودية (الرياض - المدينة - البلاد - عكاظ)
- ٤ - سوريا (تشرين - الثورة - البعث - الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

- ١ - مجلة المنتدى الإماراتية
- ٢ - مجلة الفيصل السعودية
- ٣ - المجلة العربية السعودية
- ٤ - مجلة المنهل السعودية
- ٥ - مجلة الفرسان السعودية
- ٦ - مجلة أفنان السعودية
- ٧ - مجلة السفير المصرية
- ٨ - مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ - الشعر:

- ١ - هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان / ١٩٩٠
- ٢ - هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير / ١٩٩٤
- ٣ - أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤
- ٤ - سأغسل روعي بنفط الخليج / ١٩٩٦
- ٥ - المنشئ يسلم مفاتيح ايلياء / ١٩٩٦

٦ - هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب - القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج - المسرح:

١ - محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢ - درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣ - عودة النبي / مخطوط

٤ - أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د - النقد الأدبي:

١ - محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢ - النقد والأدب / ١٩٩٤

٣ - مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤ - أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الأول

٢ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثاني

٣ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثالث

٤ - فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ - هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشر بها:

١ - قناديل الفكر والأدب

- ٢ - أنهار الأدب
- ٣ - شروق
- ٤ - دنيا الوطن
- ٥ - ملتقى الواحة الثقافي
- ٦ - تجمع القصة السورية
- ٧ - روض القصيد
- ٨ - منابع الدهشة
- ٩ - أقلام
- ١٠ - نور الأدب

مقدمة

المجلد الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

لم يكن للأمويين الذين غابوا عن مسرح التاريخ بعد فتح مكة المكرمة أن يعودوا إلى سدة الحكم لولا القدر الذي أوقع الخليفة الراشدي سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جبال الموت، فقد حالف الحظ سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أحد كتاب الوحي والقائد الفذ الذي استطاع أن يؤسس في الشام خلافة إسلامية فتحت معظم البلاد المحيطة ببلاد العرب، ووسعوا مساحة الدولة الإسلامية بعد الحكم الراشدي، وإن صبغوا هذه الخلافة بسمة الأسرة الأموية.

وللأسف بعد أن أعطى الرسول ﷺ هذه الخلافة سمة (التقوى) دون النظر إلى الخلافة على أنها (ذات لون أو عرق أو قبيلة أو أسرة أو دم)، معتبراً أن الخلافة مؤسسة (دينية دنيوية) غايتها إقامة العدل والحق والخير للناس جميعاً، وقد سار على هذه القاعدة الخلفاء الراشدون الأربعة الذين لم يحيدوا عن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبإعطاء الخلافة سمة الأسرة (بني أمية) فقد عادت إلى أبناء العروبة أولاً والإسلام ثانياً القبليّة العصبية (القيسية واليمانية) ليتسنى لهم القبول عند الناس والرضا بهم كخلفاء بعد الراشدين.

ومن هنا انفتحت على الأمويين نيران الخلافات مما جعلهم يسفكون الكثير من الدماء في سبيل تثبيت أركان الملك لهم، وتحول الأدب (الشعر) إلى خادماً لهؤلاء الخلفاء على الأغلب وإن كان شعر الخوارج السياسي وشعر الأحزاب الأخرى قد فتح صفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي في هذا العصر تمثل في نبذ فكرة الخلافة القائمة بالتوريث، والتي ستصبح فيما بعد سمة من سمات هذه الخلافة في العصور اللاحقة، وحتى سقوط الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك عام ١٩٢٦.

كما أن هذا العصر فتح لنا صفحة جديدة من صفحاته الأدبية تمثلت في نوع جديد من الغزل هو الغزل العذري، المنسوب لقبيلة بني عذرة في وادي القرى (مدينة العلا اليوم في المملكة العربية السعودية) هذا الغزل النقي الصالح البعيد عن الشهوة والمنقصة وتطور فن النشر بجميع أشكاله ابتداء من الدراسات القرآنية ودراسات السنة النبوية المطهرة والقصص الوعظي والرسائل والمنافرات القبلية، والوصايا والمناظرات الأدبية.

وإذا كان الشعر قد طغى على الأجناس الأدبية الأخرى فإن تلك الأجناس الجديدة قد نمت وعلى رأسها الخطابة وبقيت مكانة الخطيب أكثر منزلة وإن عادت للشاعر منزلته بدعم من الخلفاء الذين ما زالت ثقافتهم عربية سامقة تعطي للأدب وللأدباء المتميزين الأهمية في ظل قبلية ترمز الشاعر كوزير إعلام ناجح لقبيلته، إضافة إلى أن الخلفاء الأمويين لم يكونوا أو بعضهم شعراء فحسب أو متذوقين للشعر، وإنما كانوا نقاداً لهذا الشعر يشددون على وظيفته التي ما زالت تركز على نشر الفضائل ونبذ الرذائل ورفع مكانة مكارم الأخلاق، التي جاء بها رسول الله عليه الصلاة والسلام.

نعم لقد أردنا أن نبين في هذا العصر أن الدولة الأموية بقيت بلونها العربي وبولاتها الأمويين وبقيادة جيوشها العرب وبثقافتها العربية المتمازجة مع الإسلام والتي لم تنجح بالصمود أكثر من تسعين عاماً حيث لم تعد النزعة العربية الملائمة لشعوب كثيرة ذات توجهات قومية أخرى أحييت الإسلام، وطالبت بضرورة تطبيق تعاليمه التي على رأسها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

نعم لقد مثل الأمويون قيم الأدب الحقيقية وعادوا بها إلى القيم الإيجابية التي تمثلها الجاهليون وأكدها المسلمون، وهكذا فقد خطا الأدب خطوة رابعة، ولكنها لم تكن بزخم الأدب الدعوي ضمن دائرة توظيف الأدب وحتى يكسب الخلفاء الأمويون القبائل أكرموا شعراءها من جهة وأثاروا النزعات القبلية بينهم ونشأ ما يسمى بفن النقائص الذي يعد وصمة عار في قيمة الشعر العربي.

الباب الأول

الحياة العامة في العهد الأموي

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية في العهد الأموي

أ- تأسيس الدولة الأموية

العصر الأموي في المشرق:

١- تأسيس الدولة الأموية

٢- توطيد أركان الدولة

٣- عبد الملك بن مروان

٤- عبد الملك بن مروان

٥- أعماله الداخلية وحروبه الخارجية

ب- دور القوة

١- الوليد بن عبد الملك

٢- أعماله الداخلية وحروبه الخارجية

٣- عمر بن عبد العزيز

٤- أعماله الداخلية والخارجية

٥- هشام بن عبد الملك

٦- الوليد بن يزيد

٧- يزيد بن الوليد

٨- مروان بن محمد

ج- عوامل ضعف الدولة الأموية وسقوطها.

العصر الأموي في المشرق

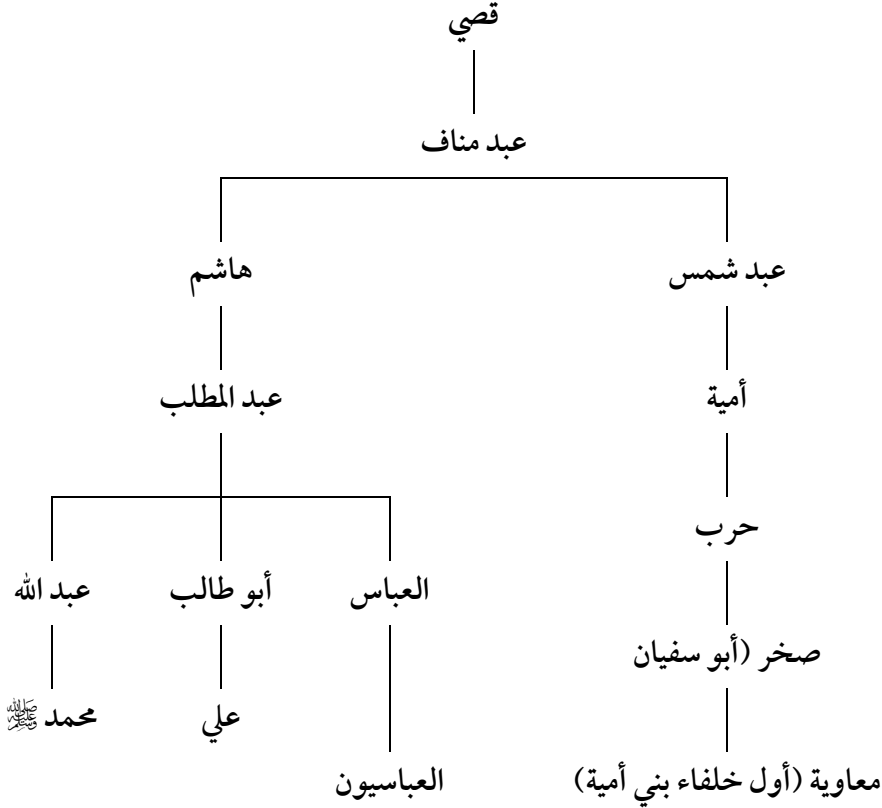
(٤١هـ - ١٣٢هـ)

أ- التعريف بالعصر الأموي وامتداده:

أطلق المؤرخون اسم العصر الأموي على الفترة التي تلت العصر الراشدي؛ لأن الخلفاء الذين حكموا في هذه الفترة ينتسبون إلى الأسرة الأموية. وقد امتدت من حكم معاوية بن أبي سفيان عام (٤١ هـ) وحتى مقتل مروان بن محمد آخر خلفائهم عام (١٣٢ هـ)، وانتقال الحكم إلى الأسرة العباسية وحكم خلالها أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم من البيت السفيفاني والباقي من البيت المرواني.

ب- نسب الأمويين ومكانتهم:

يعود نسب الأمويين إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وكان أمية من سادات العرب ورجالاتها المشهورين بالغنى في مكة، وهذا ما جعله في مقام عمه هاشم بن عبد مناف. وقد تنازع هذان البيتان زعامة قريش قبيل الإسلام. ثم اتفقا على اقتسام مظاهر هذه الزعامة: فكان لبني أمية السيادة العسكرية، ولبني هاشم إطعام الحجيج وسقايتهم، والإشراف على الكعبة المشرفة. وكان من أبرز شخصيات بني أمية زمن البعثة أبو سفيان الذي أسلم عند فتح مكة، وهو والد معاوية مؤسس الدولة الأموية.



شجرة نسب للأُمويين
(لاحظ صلة القربى بين الهاشميين والأُمويين)

ج- معاوية بن أبي سفيان:

ولد معاوية بن أبي سفيان في مكة المكرمة قبل الهجرة بخمسة عشر عاماً وأسلم مع أهله يوم فتح الرسول ﷺ مكة المكرمة وأصبح بعد ذلك كاتباً له. وقد أسهم في خدمة الدولة الإسلامية الجديدة، ففي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه رافق معاوية أخاه يزيد الذي قاد الجيوش الإسلامية المتوجهة إلى بلاد الشام لتحريرها من الروم البيزنطيين وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولي معاوية بن أبي سفيان على الأردن، وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها، ولهذا برز معاوية كرجل دولة في وقت مبكر.

د- تأسيس الدولة الأموية

١- معاوية مؤسس الدولة الأموية:

بعد مقتل الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وتنازل ابنه الحسن رضي الله تعالى عنه عن الخلافة، انتقل حكم الدولة العربية إلى معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح الخليفة الأوحى للمسلمين. حاول الخليفة الأموي بعد أن أجمع الناس على بيعته عام (٤١ هـ) وسمي ذلك العام بعام الجماعة، لاتفاق كلمة المسلمين، واستمر حكمه حتى عام (٦٠ هـ) عاشت الدولة العربية خلال هذه الفترة في سلام وازدهار.

٢- سياسته وأعماله الداخلية:

حين تولى معاوية بن أبي سفيان الحكم في دمشق قامت فئات مختلفة تعارضه وتنازعه على الحكم والخلافة منها:

أ- الشيعة: الذين يرون وجوب حصر الخلافة في آل علي بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنه).

ب- الخوارج: الذين يرون أن الخلافة حق لكل شخص كفاء من المسلمين دون النظر إلى أسرته أو قبيلته.

ج- أبناء الصحابة: الذين يرون أن تكون الخلافة في الصالحين من قريش لا في غيرهم؛ إلا أن معاوية تمكن من التغلب على هذه الفئات بدهائه وحلمه المقرون بالحزم والشدة واستطاع أن يسوس البلاد سياسة تدل على حسن التدبير، فكسب ولاء السكان ومحبتهم له، وقد استطاع أن يوطد حكمه بوسائل مختلفة، فاختار أعوانه ممن عرفوا بالذكاء والدهاء السياسي مثل زياد بن أبيه وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وارتبط بصلة المصاهرة مع قبيلة كلب البياينة.

ومن أهم أعماله الداخلية:

١- نقل العاصمة من الكوفة إلى دمشق لوجود أنصاره فيها.

٢- حصر الخلافة في أهل بيته، حيث هيا الجو لتحقيق فكرة ولاية العهد لابنه يزيد بعده.

٣- جعل الخلافة وراثية بعد أن كانت شورى في العهد الراشدي.

٤- يعد أول من أقام الحرس والشرطة والحجاجة في الإسلام.

٥- أوجد المقصورة بقصد حمايته في أثناء الصلاة.

٦- أول من وضع نظام البريد لوصول الأخبار بسرعة من الولايات واليهما.

٧- أسس ديوان الخاتم لختم الرسائل الرسمية خوفاً من التزوير.

٨- حفر الآبار على الطرقات للقوافل التجارية.

٣- الحروب الخارجية:

لقد كان شغل معاوية الشاغل في أول عهده بالخلافة توطيد أركان دولته الداخلية. وبعد

أن تم له ذلك اتجه إلى الجهاد والفتح فحارب الروم البيزنطيين على جبهتين هما:

٤- في شمالي بلاد الشام:

وصل العرب بفتحاتهم الأولى إلى جبال طوروس في شمالي بلاد الشام وأقاموا من هذه الجبال المنيعة حداً فاصلاً بينهم وبين الروم البيزنطيين، وقد حاول هؤلاء تحطّي الحدود عندما قامت الحرب الأهلية بين علي ومعاوية فكانت محاولتهم هذه نذيراً لمعاوية دفعة المحاولة إخضاعهم وإزالة خطرهم. وما إن انتهى من مشكلاته الداخلية حتى بدأ بإقامة الثغور (مدن ومراكز عسكرية) على الحدود الشمالية لبلاد الشام، كما رتب الشواتي والصوائف، وقد تبين للعرب بعد سلسلة من الهجمات صعوبة الفتح والتوسع برآ في هذه الجبهة، ولذلك اتجهت أنظارهم نحو البحر المتوسط وخاصة بعد أن تكررت اعتداءات البيزنطيين على السواحل العربية.

كان معاوية أول من اهتم بالحروب البحرية منذ كان والياً على الشام في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه فعمل على بناء أسطول عربي فتح فيه عدة جزر منها قبرص ورودس اللتان كانتا قواعد للبحرية البيزنطية في البحر المتوسط.

وفي عام (٤٨ هـ) جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية برآ وبحراً، وكان في هذا الجيش معظم الصحابة وأولادهم منهم أبو أيوب الأنصاري. وقد أمر معاوية ابنه يزيد على هذه الحملة التي حاصرت العاصمة البيزنطية أشهراً طويلاً من البر والبحر وحدث قتال شديد على أبوابها لم يتمكن المسلمون بتيجته من فتحها للأسباب التالية:

١ - متانة أسوارها.

٢ - مناعة موقعها.

٣ - فتك النار الإغريقية بسفنهم.

وفي أثناء الحصار قُتل الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ودفن خارج أسوار القسطنطينية، ولا يزال قبره هناك.

٥- في شمال إفريقيا؛

رأينا كيف استطاع العرب أيام الراشدين تحرير مصر من الروم البيزنطيين علي يد عمرو بن العاص الذي تمكن أيضاً من تحرير برقة وضمها إلى مصر، ثم توقفت حروب التحرير فترة من الزمن بسبب المنازعات الداخلية.

وعندما استتب الأمر لمعاوية وجه اهتمامه إلى شمال إفريقيا فأرسل عام (٥٠ هـ) جيشاً بقيادة عقبة بن نافع الفهري لتحريرها من أيدي الروم البيزنطيين، وكانت آخر معقل لهم في الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط، وقد حررها بعد مقاومة عنيفة خصوصاً بعد أن دخل سكانها الأصليون في الدين الجديد، وانضموا إلى الجيش العربي، فسهلوا لعقبة عملية التحرير إذ تقدم نحو طرابلس وتونس، وأقام مدينة القيروان قرب قرطاجة وجعلها معسكراً لجيشه ومركزاً للولاية التي أسسها. توقفت بعدها حروب التحرير لفترة، ثم استؤنفت زمن الخليفة يزيد بن معاوية حيث قام عقبة بن نافع الفهري بتحرير بقية البلاد العربية حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي).

توطيد أركان الدولة الأموية

(أ) عبد الملك بن مروان

(٦٥ - ٨٦ هـ، ٦٨٥ - ٧٠٥ م)

خلفاء معاوية:

أ- يزيد بن معاوية: تسلّم يزيد الحكم بعد موت أبيه معاوية حيث أخذت له البيعة في حياة والده عام (٦٠ هـ) دامت خلافته أربع سنوات قامت خلالها مشكلات عظام في وجهه منها رفض الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعته، كما نقض أهل المدينة بيعته وأعلنوا الثورة، وقد توفي يزيد شاباً ولم تحل جميع هذه المشكلات، وخلفه ابنه معاوية الثاني وكان ضعيفاً لم تطل خلافته أكثر من شهرين تنازل عنها دون أن يعين خلفاً له.

ب- مؤتمر الجابية وانتقال الخلافة إلى البيت المرواني: بعد وفاة معاوية الثاني تداعى الأمويون إلى عقد مؤتمر الجابية (موقع جنوب دمشق في منطقة حوران) للتداول في أمر الخلافة، وقد تم الاتفاق على مبايعة مروان بن الحكم على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية، ثم عمرو بن سعيد بن العاص، وبذلك انتقلت الخلافة إلى البيت المرواني من الأسرة الأموية.

ج- خلافة مروان بن الحكم:

كان من أبرز أعماله بعد أن أصبح خليفة:

- ١- أن عمد إلى توطيد حكمه وذلك بالتغلب على الفئات التي امتنعت عن بيعته، فقاد جيوشه لقتالهم في معركة مرج راهط (موقع شرق دمشق بالقرب من قرية عذرا) حيث هزمهم.
- ٢- أعاد مصر إلى حظيرة الخلافة الأموية، فلم يكد مروان ينتهي من خصومه في بلاد الشام، حتى جهز جيشاً سار به هو وابنه عبد العزيز إلى مصر لاستخلاصها من يد أنصار ابن الزبير، وقد تم له ذلك.
- ٣- أما محاولته استرجاع الحجاز والعراق من عبد الله بن الزبير، فلم يستطع تحقيقها بسبب وفاته، وكان قد أخذ البيعة لابنيه عبد الملك، ثم عبد العزيز مخالفاً بذلك مقررات مؤتمر الجابية.

ب - عبد الملك بن مروان

(٦٥ - ٨٦ هـ) (٦٨٥ - ٧٠٥ م)

أعماله الداخلية وحروبه الخارجية

امتدت خلافة عبد الملك بن مروان من (٦٥ - ٨٦ هـ) ثم توفي مروان بن الحكم تاركاً لابنه عبد الملك عدداً من المشكلات التي كانت تهدد كيان الدولة فسارع عبد الملك لمواجهتها تارة بالشدة والحزم وتارة بالحكمة والسياسة مما جعل المؤرخين يعدون عبد الملك بن مروان المؤطد الأول للدولة الأموية.

أ- أعماله الداخلية:

انصرف عبد الملك إلى الاهتمام بشؤون الإدارة والإصلاح بعد أن وطّد سلطانه داخل البلاد، فأولى الناحية الإدارية عناية فائقة، وأعطاه مضموناً يتمشى مع حاجات الدولة.

ب- ومن أبرز أعماله الداخلية:

١- اتباع سياسة تقوم على إيجاد توازن بين القبائل العربية من قيسيين ويمنيين، بغية إزالة الخلافات التي كانت قد تجددت إثر معركة مرج راهط وذلك عندما والى القيسيون عبد الله بن الزبير وانحاز اليمانيون إلى الأمويين، وقد برهن عبد الملك بذلك على أنه رجل دولة لترفعه عن الخلافات معتبراً نفسه حكماً بين الرعية كلها.

٢- إضفاء الصفة العربية للدولة وتأكيد لها وذلك بعدة وسائل في مقدمتها (تعريب الدواوين، والنقد، والطراز، كما سنرى في بحث التنظيم الإداري).

٣- عمل على تطوير نظام البريد الذي وجد منذ زمن معاوية، إذ خصص له الخيول والجمال في المناطق الصحراوية والموظفين والأماكن ووضع الصوى على الطرق، وبذلك ربط أجزاء الدولة واطلع على أمورها بشكل تام.

٤- أمر ببناء مسجد قبة الصخرة في القدس.

٥- كما تم في عهده بناء الكعبة على شكلها الحالي.

ج- الحروب الخارجية:

أولاً - في الجبهة الشرقية:

كانت العمليات العسكرية في هذه الجبهة تأخذ شكل غزوات غير منظمة، تقوم بها بعض قطع من الجيش بناء على تكليف من الخلفاء أو الولاة كلما سنحت الفرصة، وما إن تولى المهلب بن أبي صفرة أمر الحرب في خراسان بتكليف من والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي حتى أخذت هذه الغزوات شكلاً منظماً، وبدأ المهلب أعماله العسكرية بالزحف على خوارزم، كما زحف أبناؤه من بعده على مدينة (كابول) في أفغانستان ومناطق أخرى.

ثانياً - الجبهة الشمالية البيزنطية:

لم تكف الدولة البيزنطية عن التآمر على الدولة العربية الناشئة، فكانت تنتهز كل فرصة للنيل منها، وقد مر معنا كيف انتهزت فرصة الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما فحرضت بعض العناصر الموالية لها لإزعاج الدولة العربية، وإثارة القلاقل داخلها، كما انتهزت الفرصة بعد وفاة يزيد لتقوم ببعض الحركات العسكرية بهدف تحقيق نصر سريع على العرب، وحين آلت الخلافة إلى عبد الملك، تنبه إلى الخطر البيزنطي القريب من الحدود الشمالية، وأراد أن ينصرف إلى معالجة المشكلات الداخلية التي كانت تهدد عرشه، لذا سارع إلى مهادنة البيزنطيين، وبعد أن توطدت الأمور في الداخل أعاد تشكيل فرق الصوائف والشواتي لقتال الروم البيزنطيين كما كان متبعاً في زمن معاوية بن أبي سفيان.

ثالثاً - جبهة شمال إفريقيا:

تولى عقبة بن نافع ولاية إفريقيا للمرة الثانية زمن يزيد بن معاوية فتابع أعماله العسكرية هناك، ووصل إلى المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وفي أثناء عودته قتل مع بعض أصحابه قبل وصوله القيروان من قبل أعدائه سكان البلاد الأصليين، وبعد مقتله حاول الروم البيزنطيون إعادة سيطرتهم على شمال إفريقيا والقضاء على الحكم العربي فيها، فراجع إلى ما وراء حدود تونس وكان لا بد من حركة تحرير جديدة للمغرب.

وعندما اطمأن عبد الملك بن مروان إلى متانة مركزه في المشرق وجه حملة بقيادة حسان بن النعمان لاستعادة المغرب العربي فاصطدمت هذه الحملة بمقاومة سكان البلاد تقودها الكاهنة

(وهي امرأة ادّعت النبوة) وقد تمكن الجيش العربي من قتلها وتشتيت صفوف أتباعها واسترجاع المغرب بكامله عدا مدينة سبتة، وبذلك قُضي نهائياً على أمل البيزنطيين باستعادة المغرب، وأقبلت جموع السكان على الدخول في الإسلام، وأصبحوا عنصراً محارباً في خدمة الدول العربية لاسيما في فتح الأندلس.

د- وفاة عبد الملك بن مروان:

توفي عبد الملك في دمشق بعد أن عهد بالخلافة من بعده إلى ولديه الوليد، ثم سليمان؛ لأن أخاه عبد العزيز توفي في حياته، وبهذا أصبحت الخلافة في أبنائه من بعده.

دور القوة

(١) الوليد بن عبد الملك

(٨٦ - ٩٦ هـ، ٧٠٥ - ٧١٥ م)

- أعماله الداخلية وحروبه الخارجية:

ورث الوليد عن أبيه ملكاً متين الأركان، لا يعكر صفوة نائير، وخزانة عامرة بالأموال، وجيشاً قوياً. فتحققت في أيامه إصلاحات داخلية كثيرة وأعمال عمرانية وفتوحات عسكرية.

أ - الأعمال الداخلية:

كان الاهتمام بشؤون الرعية والسهر على مصالحها واضحاً في عهد الوليد، ومن أهم ما قام به:

- ١- أمر بإصلاح الطرق وحفر الآبار في مختلف البلدان واستصلاح الأراضي لاستغلالها في الزراعة.
- ٢- لقي ذوو العاهات من مكفوفين ومقعدين ومجذومين... إلخ، كل رعاية من الدولة بتوجيه من الخليفة، إذ أمر أن تبنى مشافي خاصة للمجذومين للإقامة فيها، حيث يجدون الطعام والمبيت والرعاية التامة.

٣- كان مولعاً بالأعمال العمرانية، فقد أمر ببناء المسجد الأموي في دمشق وبتجديد بناء مسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة بعد أن جرى توسيعه، وفي عهده بني عدد من القصور الفخمة في مناطق مختلفة من الدولة من أبرزها (قصر عمره) قرب عمان في الأردن، ونظراً لما كانت تتمتع به الدولة من تقدير من الدول الأخرى بسبب الإنجازات التي تحققت في عهد الوليد فإن المؤرخين يعدون هذا العهد العصر الذهبي للدولة الأموية.

ب - الحروب الخارجية:

وتشمل عدة جبهات هي

أولاً: الجبهة الشرقية:

تابع العرب توغلمهم في المناطق الشرقية للدولة منذ بدايات العهد الأموي، وقد أخذت حروبهم شكل الفتح والاستقرار في عهد الوليد حيث كان الحجاج بن يوسف والياً على

العراق منذ عهد عبد الملك، وقد قام بخدمات كبيرة لتثبيت خلافة الأمويين، واستمر في ولائه لهذه الأسرة حتى وفاته؛ ما يدل على أنه كان موضع ثقة لدى الوليد فأبقاه على العراق، وهو الذي سير جيوش الفتح في هذه الجبهة، وقد شمل النشاط العسكري منطقتين هما بلاد ما وراء النهر، بلاد السند.

١- الفتح في بلاد ما وراء النهر: عين الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي عاملاً على خراسان وهي المقاطعة الشرقية من فارس، وعهد إليه بمهمة فتح بلاد الترك فصار قتيبة في كل صيف يقطع نهر جيحون غازياً، ثم يرجع في الخريف إلى مرو عاصمة خراسان. فاستولى على بلخ وسمرقند وبخارى وخوارزم حتى وصل إلى كاشغر على حدود الصين، وقد أبطل عبادة الأصنام وحبب الناس بالدخول في الإسلام، إذ سمح لهم بقراءة القرآن بلغتهم بدلاً من اللغة العربية التي لا يعرفونها.

٢- الفتح في بلاد السند:

كما عين الحجاج، محمد بن القاسم الثقفي قائداً على الجيش المكلف بفتح بلاد السند، بالرغم من صغر سنة (١٨ سنة)، وذلك نظراً لشجاعته وعبقريته العسكرية. وقد تمكن هذا القائد من فتح مدينة الديبل (كراتشي اليوم) ثم تابع زحفه شمال السند حيث التقى مع ملكها داره في معركة انتصر عليه فيها، وتمكن من قتله، ثم أخذ يتوغل في فتوحاته حتى وصل كشمير إلا أن موت الوليد وتسلم أخيه سليمان الخلافة وعزله للقائدين أوقف الفتوحات في هذه الجبهة، وعادت الجيوش العربية إلى قواعدها في العراق.

ثانياً: الجبهة الشمالية البيزنطية:

تابع الوليد سياسة أبيه عبد الملك في محاربة الروم البيزنطيين، إذ كلف أخاه مسلمة بالقيادة، وكان مولعاً بالحرب وشجاعاً في القتال، فاستولى على عدد من الحصون في بلاد الروم وتطلع إلى فتح القسطنطينية عاصمتهم، لكن وفاة الوليد حالت دون ذلك.

ثالثاً: حروب التحرير في شمال إفريقيا:

تقلد موسى بن نصير ولاية إفريقيا من قبل الوليد، وكانت قبل ذلك تتبع من الناحية الإدارية والى مصر. وقد أطلق هذا الاسم على البلاد الممتدة من ليبيا حتى المحيط الأطلسي،

خرج موسى من مصر على رأس جيش قاصداً إفريقيا فلما وصلها وجدها نائرة ضد العرب، فسارع لقتال القبائل النائرة في مناطقهم الجبلية، واستطاع سحق مقاومة هذه القبائل، ثم أرسل أحد قادته وهو طارق بن زياد على رأس جيش لتحرير مدينة طنجة فحاصرها حتى تحررت وتقلد طارق ولايتها.

ولما كانت إفريقيا طويلة الشواطئ، وكانت القوى البحرية البيزنطية تهدد مدنها فقد وجد موسى أن من ضرورات الدفاع عن البلاد الاهتمام بدار صناعة السفن قرب مدينة تونس التي أنشئت زمن سلفه حسان بن النعمان، وما إن توافرت له السفن الحربية حتى هاجم الجزر والقواعد البحرية البيزنطية في البحر المتوسط وفتح بعضها مثل ميورقة ومنورقة وأبعد بذلك خطر الروم البيزنطيين نهائياً عن شمال إفريقيا، ولم يبق خارج النفوذ العربي على الشاطئ الإفريقي إلا قلاع سبتة الحصينة الواقعة على ساحل المتوسط شرقي طنجة، وكانت هذه تتبع ملوك إسبانيا، فكانوا يعينون عليها حكاماً من قبلهم، إلا أن الشقاق كان محتدماً بين حاكمها (يوليان) وبين ملك إسبانيا (لذريق) مما سهل على العرب تحريرها بعد الاستعانة بسكان البلاد الأصليين الذين أعلنوا انضواءهم تحت راية الدين الجديد.

دور القوة

(٢) عمر بن عبد العزيز

(٩٩ - ١٠١ هـ، ٧١٨ - ٧٢٠ م)

أولاً- الخلافة بعد الوليد:

آلت الخلافة بعد وفاة الوليد إلى أخيه سليمان بن عبد الملك، كما أن الحملة التي أعدها الوليد لفتح القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة استمرت في مهمتها زمن سليمان فحاصرت القسطنطينية ولم تستطع فتحها، وقد وافته المنية عام (٩٩ هـ) بعد أن تولى الخلافة نحواً من ثلاث سنوات، وعندما شعر سليمان بن عبد الملك بدنو أجله أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز، ومن بعده لأخيه يزيد بن عبد الملك.

ثانياً- خلافة عمر بن عبد العزيز:

ينتسب عمر بن عبد العزيز من جهة أبيه إلى عبد العزيز بن مروان، وكان والياً لأخيه عبد الملك على مصر، وأما من جهة أمه فكان نسبه يتصل بعمر بن الخطاب، وقد تزوج من ابنة عبد الملك وعينه الوليد والياً على المدينة فكان مثلاً للعلم والورع، وحين آلت الخلافة إليه اتخذ من سيرة جده عمر بن الخطاب مثلاً أعلى سار على هديته، فكانت سياسته تركز على العدل والبساطة في العيش والشعور بالمسؤولية، حتى أن بعض المؤرخين عده متمماً لعهد الخلفاء الراشدين.

ثالثاً- أعماله الداخلية:

من أبرز أعمال عمر بن عبد العزيز الداخلية:

- ١- اعتمد على الفقهاء وقربهم.
- ٢- جعل للقاضي منزلة ممتازة ومستقلة.
- ٣- منع العرب من استملاك الأراضي في البلاد المفتوحة حيث عدت ملكاً للدولة، وسمح لهم فقط باستئجارها مقابل دفع خراج عنها.

٤- أسقط الجزية عن أسلم، مما ساعد على اعتناق الإسلام.

٥- أعاد الحقوق إلى أصحابها بعد أن كانت مغتصبة من قبل المتنفذين، كما أبطل كثيراً من الغرامات والمصادرات التي أحدثها الحجاج في العراق.

٦- فتح باب النقاش مع الخوارج فمالوا إلى الهدوء، إذ لم يحاول أخذهم بالقوة والعنف، بل استمالهم بالحجة والمنطق.

٧- أمر ببناء الخانات في المناطق البعيدة ليأوي إليها المسافرون.

رابعاً- النشاط العسكري في عهده:

كان عمر بن عبد العزيز منصرفاً أنصرفاً كلياً إلى تحقيق العدالة بين رعايا الدولة مما شغله عن التفكير بالفتوحات على نطاق واسع ومع ذلك فإن أعمالاً عسكرية تمت في عهده هي:
عين السمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس، فزحف على رأس جيش اجتاز به جبال البرانس إلى الأراضي الفرنسية حيث احتل مدينة ناربونة وحاصر مدينة تولوز، وقد وصل ملك الفرنجة بجيش جرار لتخليص المدينة من الحصار العربي، واشتبك الجيشان في معركة حامية استشهد فيها السمح فتسلم القيادة بعده عبد الرحمن الغافقي الذي سحب جيشه عائداً إلى الأندلس، إذ أمر بسحب الحملة التي كانت تحاصر القسطنطينية منذ زمن سليمان بن عبد الملك.

خامساً- وفاته:

استمرت خلافة عمر بن عبد العزيز نحو سنتين ونصف كانت ثقيلة على بعض أفراد البيت الأموي؛ لأنه جرّدهم من امتيازاتهم وأجبرهم على إعادة الحقوق إلى أصحابها، وقد اتهم هؤلاء أنهم دسوا له السم فتوفي في دير سمعان عام (١٠١ هـ).

دور القوة

(٣) هشام بن عبد الملك

(١٠٥ - ١٢٥ هـ، ٧٢٤ - ٧٤٣ م)

أ- خلافته:

بعد وفاة عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، ثم تلاه أخوه هشام الذي كان حسن السيرة، مهتماً بإدارة شؤون الدولة، ومع أن عهده كان حافلاً بالاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية، فقد تمكّن هذا الخليفة من تذليل كثير من الصعاب التي اعترضت سبيله.

ب- أعماله:

- ١- قمع الفتن التي ظهرت في عهده، وقد أحرزت جيوشه النصر في أغلب الميادين.
- ٢- عمل على تقوية الثغور الإسلامية وتعزيز حماياتها.
- ٣- أمر بحفر القنوات والبرك على طريق الحج إلى مكة، كما بنى قصري الحير الشرقي والغربي.

- ٤- راقب ميزانية الدولة، وأحسن تديرها، وضغط نفقاتها حتى اتهم بالبخل.
- ٥- اختار أفضل الرجال لجهازه الإداري بغض النظر عن انتمائهم القبلي مثل خالد القسري ونصر بن سيار وغيرهم.

ج- النشاطات العسكرية في عهده:

لم تقتصر عناية هشام على الشؤون الداخلية، بل وجه اهتمامه أيضاً إلى الحروب والفتوحات في جبهات متعددة:

- ١- فضي الشرق: خاض حروباً ضد الترك الذين يعيشون وراء بحر ابن عبد الملك، وفي الشمال استؤنفت العمليات العسكرية ضد الروم البيزنطيين، حيث بنى الحصون وقواها، وكان يقوم في كل صيف بغزوات كثيرة لمع فيها اسم قائد عربي اشتهر جداً عند العرب والروم

هو عبد الله البطال الذي تمكن من إلقاء الذعر في قلوب البيزنطيين فأخذوا ينسجون حوله القصص الكثيرة، وفي الأندلس عين هشام والياً على الأندلس هو عبد الرحمن الغافقي الذي فكر بالثار للهزيمة التي لحقت بالمسلمين أمام أسوار تولوز، فعبر الحدود الفرنسية على رأس جيش قوي واستولى على مدن كثيرة منها بوردو وتور.

ثم التقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل عند مدينة بواتيه حيث حدثت المعركة بين الطرفين، كاد النصر يتم للعرب لولا ما وقع من اضطرابات في صفوف جيش المسلمين، واستشهد عبد الرحمن وتراجع العرب، وقد دعيت هذه المعركة باسم بلاط الشهداء (بواتيه) ١١٤هـ - ٧٣٢م، لكثرة من استشهد فيها من العرب، وتعد من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ لو تم النصر فيها للعرب لوقعت أوروبا في يدهم ونشروا فيها لغتهم ودينهم وحضارتهم.

د - وفاة هشام:

كانت فترة خلافة هشام مليئة بالأحداث الكبيرة أكسبت الدولة قوة رهيبية، وقد توفي هشام في مدينة الرصافة التي كان يستجم فيها أحياناً.

دور الضعف والانحطاط

(١)

(١٢٥ - ١٣٢ هـ، ٧٤٣ - ٧٤٩)

- دور الضعف والانحطاط:

بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك سادت الفوضى أرجاء الدولة، وعمت الفتن والثورات التي أدت في النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية، وقد حكم في هذه الفترة التي استمرت حوالي سبع سنوات أربعة خلفاء، كان أولهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك وآخرهم مروان بن محمد الذي سقطت في عهده الخلافة على يد العباسيين، وقد أطلق على هذه الفترة دور الضعف والانحطاط؛ لأنها تميزت بما يلي:

١- أن الدولة عاشت على أمجاد الخلفاء السابقين، إذ لم تقم فيها إصلاحات أو حروب خارجية.

٢- اختلف خلفاء هذا الدور عن الخلفاء السابقين من حيث القوة والكفاءة في الحكم.

أولاً: الوليد الثاني بن يزيد الثاني (١٢٥ - ١٢٦ هـ)

ويعرف بالوليد الثاني، كان شاعراً، وعرف بانصرافه إلى اللهو والمجون وانشغاله بذلك عن أمور الدولة.

١- بدأ عهده بمصادرة أملاك عمه وأمواله، والانتقام من أنصاره وأركان دولته، بحجة أن عمه كان يعمل لإبعاده عن الخلافة وتهيئة الجو لتولية ابنه.

٢- وقد تشدد في معاملة أولاد أعمامه.

٣- وأثار نقمة القبائل اليمينية عندما قتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري.

٤- كما زاد في حقد الشيعة عليه، بعد قتله أحد زعمائهم.

وقام ببعض الأعمال هدف منها إلى كسب تقدير المسلمين له وتغاضيبهم عن سلوكه مثل:

١- زيادة رواتب الجند ليكسب تأييد الجيش وعطفه.

٢- إعطاء الفقراء والمرضى والعجزة من الأرزاق ما يحتاجون إليه.

لكن هذه الأعمال لم تفده في شيء بعد أن عاد إلى لهوه ومجونه؛ ما أدى إلى استغلال هذا السلوك من قبل بعض الأمويين الطامعين في الخلافة فعملوا إلى قتله في قصر قرب عمان في الأردن.

- نتائج مقتل الوليد :

١- ازدياد العداء بين القبائل القيسية والقبائل اليمنية.

٢- انقسام البيت الأموي في الشام على نفسه.

٣- ضياع هيئة الخلافة.

ثانياً: يزيد الثالث بن الوليد الأول:

خلف الوليد الثاني في حكم الدولة الأموية، وقد سمي بالناقص؛ لأنه أنقص عطايا الجند، وقد قامت في عهده اضطرابات بين أفراد البيت الأموي في الشام أدت إلى قيام معارك وحروب أهلية بين أنصار الوليد المقتول وأنصار يزيد الخليفة، كما بعثت العصبية القبلية من جديد بين القيسيين واليemenيين، وخصوصاً في العراق وخراسان، وكل ذلك هيباً للعباسيين نشر دعوتهم والاستعداد لإسقاط الخلافة الأموية، لم تطل خلافة يزيد، وقد خلفه أخوه إبراهيم بن الوليد الذي لم يتمتع بشخصية قوية، وحل محله مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

دور الضعف والانحطاط

(٢) مروان بن محمد

(١٢٧ - ١٣٢ هـ)

أ- خلافته:

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ورث عن أبيه ولاية الجزيرة وأرمينيا، كان محباً للعلم والفلسفة في القيادة العسكرية عندما كان قائداً للجيش العربي في الجبهة البيزنطية، كما عرف بحزمته وحسن إدارته، تسلّم الخلافة بعد أن تغلب على إبراهيم بن الوليد الأول، في وقت كانت فيه البلاد غارقة بالفتن والاضطرابات، ولم يستطع بالرغم من قوة شخصيته وحنكته من المحافظة على الخلافة الأموية، حيث كانت قواعدها تترنح وتتهاوى لتستقر مكانها الخلافة العباسية.

ب- نقل العاصمة إلى حران:

جاء مروان إلى دمشق وتلقى البيعة من أهلها سنة (١٢٧ هـ)، ولما شعر أن دمشق أصبحت ميداناً للنزاع بين أفراد البيت الأموي نقل العاصمة إلى مقر ولايته في حران حيث يتجمع فيها أنصاره وجنده، لكن ذلك جرّ عليه نقمة أهل دمشق وغيرهم.

ج- أبرز الحوادث التي جرت في عهده:

١- انقسم البيت الأموي على نفسه، فقد ثار سليمان بن هشام بن عبد الملك في الشمال، واعتصم في قنسرين مطالباً بالخلافة.

٢- ثار الخوارج في شمال العراق واحتلوا منطقة الموصل ونصيبين، كما ثار أبو حمزة الخارجي في جنوبي شبه الجزيرة وسيطر على طريق الحج، وقد تمكن مروان بن محمد من القضاء على هذه الثورات التي شغلته عن الخطر الرئيس المتمركز في خراسان والتمثل بالدعوة العباسية.

د- نهاية الخلافة الأموية:

بينما كانت جيوش مروان تتحرك لقمع هذه الثورات والفتن في الشام والعراق والحجاز، كان أبو مسلم الخراساني قد رفع الراية السوداء (الراية العباسية) في مرو عاصمة خراسان معلناً بداية الزحف العباسي الذي استطاع الاستفاد من عوامل الضعف والفساد بالرغم من أن عامل الأمويين على خراسان نبهه إلى ذلك، وطلب إليه قوات للقضاء على الثورة، وزحفت الجيوش العباسية إلى الغرب واصطدمت بجيش مروان في معركة الزاب بالقرب من الموصل حيث انهزم الأمويون، وهرب مروان فلاحقه العباسيون إلى مصر وقتلوه ١٣٢ هـ، وهكذا انتهت الخلافة الأموية بعد أن استمرت قرابة قرن من الزمن.

عوامل ضعف الدولة الأموية وسقوطها

مرت الدولة العربية في العهد الأموي بكل الأدوار التي تمر بها عادة أية دولة: دور التأسيس – القوة – دور الضعف والانهيار. فقد بلغت الدولة الأموية كما رأينا أوجها منذ عهد عبد الملك وحتى عهد هشام: إلا أن السلطة الأموية أخذت بعد ذلك تميل إلى الضعف والانحطاط بنتيجة العوامل التالية:

لم يجمع سائر المسلمين على فكرة وراثية الحكم، التي سنّها معاوية عندما أخذ البيعة لابنه يزيد؛ لأن في ذلك مخالفة لمبدأ الشورى الذي كان متبعاً في العهد الراشدي، وقد استمر العمل بمبدأ ولاية العهد طيلة فترة الحكم الأموي.

أ- الثورات الداخلية:

واجهت الدولة في ظل الخلافة الأموية ثورات مختلفة قامت بها عدة فئات معارضة للحكم الأموي، وهي على نوعين:

– ثورات قامت بها فئات تعتقد بأنها أحق بالحكم كثورات الشيعة وبني العباس وعبد الله بن الزبير.

– وثورات قامت بها بعض القبائل انتصاراً لعصبية قبلية تسببت في تمزيق الدولة.

ب- موقف الموالي:

استاء الموالي من سياسة الأمويين التي قامت على عدم مساواتهم بالعرب، فدفعهم ذلك إلى الانضمام إلى كل حركة تريد النيل من الدولة، وتجلى ذلك واضحاً في انضمامهم إلى الدعوة العباسية.

ج- إحياء العصبية القبلية:

كان لسياسة بعض خلفاء بني أمية القائمة على تشجيع بعض القبائل وتقريبها دون الأخرى الأثر الكبير في إحياء العصبية القبلية التي قادت إلى تمزيق الدولة من الداخل.

إن وراثية الحكم والتنافس داخل البيت الأموي قد أوصلت إلى الخلافة عدداً من الخلفاء الضعفاء الذين لا أهلية لهم، انغمس هؤلاء باللهو والمفاسد فأهملوا الحكم، وتركوا أمور الدولة فوضى.

إن كل العوامل التي سبق ذكرها سببت إخفاق آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد في حماية كيان الدولة ومهدت لنجاح الدعوة العباسية، التي انضم إليها جميع الناقمين على الحكم الأموي وذلك سنة ١٣٢ هـ.

الباب الأول

الفصل الثاني

الحضارة العربية في العصر الأموي

أ- المجال العربي

أولاً- الأمويون وسيادة العرب في الدولة:

لا يمكن تحديد فترة معينة لظهور الفكرة العربية بمعناها غير الشوفوني التعصبي، وإن كانت هناك بوادر تشير إلى ظهورها قبل الإسلام، وقد تجلت في معركة ذي قار، وتوضحت في مواقف عديدة في أثناء حروب التحرير وخاصة في معركة البويب عندما انضم بنو تغلب النصارى إلى جانب أبناء جنسهم من العرب المسلمين ضد الفرس، وازداد هذا الشعور نمواً أثناء مرحلة الفتوحات؛ لأن العرب أخذوا على عاتقهم نقل القرآن كدستور إلى الشعوب الأخرى، حيث اعتمد الأمويون في حكمهم على العرب بفرعهم اليميني والقيسين، وذلك لأسباب عديدة منها:

- ١- أن الإسلام ظهر بين العرب، والقرآن نزل بلغتهم، والعرب هم حماة الإسلام وعليهم نشر رسالته بين الأمم، تلك الرسالة التي نقلتهم من الشرك إلى التوحيد.
 - ٢- تعميق فكرة الاعتزاز بالعروبة، خاصة بعد أن هزموا دولتي الفرس والروم.
 - ٣- اعتزازهم بأخلاقهم الحميدة، وأنسابهم الصافية، وتفاخرهم بها فيما بينهم.
- شعر الأمويون بأهمية هذه الأسباب، دفعهم ذلك الاعتماد على العرب وجعلهم أساس الدولة.

ثانياً- تعريب الدولة:

تجلى هذا الاعتزاز بالعروبة في ضرورة إضافتها على جميع مرافق الدولة، لذلك فقد كان الخلفاء والولاة وقادة الجند والإداريون كلهم يختارون من العرب، وأصبحت الدواوين تكتب باللغة العربية، وكانت الكتابات على الطراز عربية، وأخيراً سكّ الأمويون نقوداً عربية،

وطوروا النظم التي أخذوها عن الروم والفرس بما يتلاءم مع المجتمع العربي، وهكذا صبغت الدولة الأموية بالصبغة العربية، وقد اضطر الموالي إلى تعلم اللغة العربية، وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية الواحدة في أرجاء الدولة كلها.

- **الموالي:** وهم المسلمون من غير العرب، وقد كثر عددهم بعد القضاء على الدولة الفارسية، وبالرغم من دخولهم في الإسلام فإن قسماً منهم كان متحمساً لإعادة بناء دولتهم، ولشعور الأمويين بخطورة هؤلاء الموالي فقد حرّموهم من حق المساواة مع العرب، ومن مناصب الدولة العليا مدفوعين باعتزازهم بعروبيتهم ويجذورهم؛ ما زاد في نقمة هؤلاء وجعلهم ينضمون إلى جميع الحركات المناوئة للدولة الأموية.

الباب الأول

الفصل الثالث

الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال السياسي

أ- الخلافة في العصر الأموي:

أطلق على كل رئيس من رؤساء الدولة العربية الإسلامية الذين حكموا بعد الرسول ﷺ اسم (خليفة)، وكان الخليفة هو الرئيس الديني والسياسي للدولة، ويصل إلى الخلافة بطريق الشورى، بدل معاوية بن أبي سفيان نظام الشورى هذا وجعل الخلافة وراثية، وأصبح الخليفة الأموي يأخذ البيعة لابنه أو أحد أقربائه في حياته، وتجدد البيعة بعد وفاته، ويسمى الشخص الذي تؤخذ له البيعة ولي العهد.

ب- علامات الخلافة:

استمر الأمويون في حمل علامات الخلافة التي توارثها الخلفاء الراشدون عن النبي ﷺ وهي:

١- البردة: وهي كساء أشبه بالعباءة يلبس فوق الثياب وكان الرسول ﷺ يلبس البردة عندما يباشر أمور الدولة.

٢- الخاتم: هو خاتم كان يحمله الرسول ﷺ، ويختم به الرسائل.

٣- القضيبي: يستعمله الرسول ﷺ في أثناء الخطابة على عادة العرب.

ج- شارات الخلافة:

١- الخطبة: هي الدعاء للخليفة على منابر المساجد كل يوم الجمعة وفي المناسبات.

٢- السكة: هي سك النقود المتداولة بين الناس في الدولة.

٣- الطراز: هو لباس الخليفة الرسمي ويتميز به عن سائر الناس.

وقد أحدث الأمويون كلاً من السكة والطرز. كما أن وجود الشارات في ولاية ما يعني خضوع هذه الولاية للدولة.

د- السياسة الداخلية:

اعتمدت سياسة الأمويين الداخلية على الأسس التالية:

١- تنظيم الدولة:

نظراً لانتساع الدولة فقد أوجد الأمويون ولايات جديدة، ونظموا المالية والقضاء، وأضافوا دواوين جديدة إلى جانب الدواوين القديمة حققت هذه السياسة السرعة في إنجاز أمور الدولة وضبطها والإشراف على الولايات.

٢- توطيد الأمن:

وطد الأمويون حكمهم تارة باللين وتارة بالشدّة معتمدين في سياستهم على بعض الولاة والقادة، فمنهم من عرف بدعائه كزياد بن أبيه، ومنهم من عرف بقسوته وشدته كالحجاج بن يوسف الثقفي، وقد تم في عهدهم ترحيل قبائل عربية إلى المناطق المفتوحة وبعضهم رحل إلى السودان، وبذلك انتشر العنصر العربي في هذه المناطق.

٣- العصبية القبلية:

قامت سياسة الدولة على إحياء العصبية القبلية التي جاء الإسلام لإضعافها ليحل رابطة العقيدة الدينية محلها، ولتكون الرابطة الأساسية في المجتمع.

٤- تعريب الدولة:

عرب الأمويون الدواوين والسكة والطرز وجعلوا المناصب العليا في الدولة والجيش والدواوين بأيدي العرب، وقد أدت هذه السياسة إلى ظهور دولة عربية موحدة ومنظمة تمكّنت من مواجهة أعدائها والقيام بفتوحات كبيرة.

هـ- السياسة الخارجية:

١- العلاقات مع الروم:

حاول الروم دائماً استغلال انشغال العرب في العهد الأموي بالمشاكل الداخلية وتخطوا الحدود العربية، واجههم العرب بتحسين الثغور حتى يضمنوا سلامة حدودهم الشمالية، ثم

غزوهم، وقد استمرت هذه الغزوات المتبادلة طوال عمر الدولة الأموية، ورافقها هجوم بري وبحري على القسطنطينية، وكان كل من الطرفين العرب والروم يعمد إلى استخدام بعض العناصر الموالية له في أرض عدوة، ورغم هذه الحروب فإن العلاقات الثقافية والتجارية كانت تتم خلال فترات السلم مباشرة أو بوساطة وسطاء.

٢- العلاقات مع دولة الفرنجة:

حاول الفرنجة القضاء على العرب في الأندلس، ولكنهم أخفقوا في ذلك ورأى بعض الولاة أن احتلال جنوب فرنسا سيحمي الأندلس من هجوم الفرنجة، غير أن معركة بلاط الشهداء أوقفت المد باتجاه أوروبا، ولم يمنع ذلك من قيام مبادلات تجارية بين جنوب فرنسا وشمال إفريقيا.

٣- العلاقات مع الصين والهند:

أخذت هذه العلاقات طابعاً ودياً وسليماً، وخاصة بعد توقف موجة الفتوح، وقد كانت هذه العلاقات تتم مباشرة أو بوساطة.

الباب الأول

الفصل الرابع

الحضارة العربية في العصر الأموي

في المجال الإداري

(١) الحجابة والدواوين والولايات

أ- معنى الحجابة:

اشتقت كلمة الحجابة من كلمة حجب أي منع، وهي كمنصب تعني تنظيم مقابلات الناس مع الخليفة، وعدم السماح بدخولهم إليه إلا بعد موافقته.

ب- نشأة الحجابة:

حاول الخوارج اغتيال معاوية بن أبي سفيان حسب ما اتفقوا عليه، ولكنهم أخفقوا، وقد دفعت محاولتهم هذه بمعاوية بن أبي سفيان إلى إنشاء منصب الحجابة لتنظيم دخول الناس عليه، وخشية إعادة محاولة اغتياله، كما أمر بإنشاء المقصورة ليحتجب فيها أثناء الصلاة في الجامع، وازدادت مكانة منصب الحجابة فيما بعد وخاصة في الأندلس.

ج- الدواوين:

الديوان كلمة فارسية الأصل معناها السجل أو الدفتر، وأطلقها العرب على مكان حفظ سجلات الدولة الرسمية، عرف العرب في العصر الراشدي ديوانين هما ديوان الخراج وديوان الجند، وقد أضاف الأمويون دواوين جديدة منها.

د- ديوان الخاتم: أنشاه معاوية ومهمته نسخ رسائل الخليفة وإيداعها في خزانة خاصة بعد ختمها حفظاً لها من التزوير.

هـ- ديوان الرسائل أو الإنشاء: ويشرف على شؤون الولايات والرسائل التي ترد منها، والتي ترسل من الخليفة إليها.

و- ديوان المستغلات: وتسجل فيه واردات أملاك الدولة.

ز- ديوان الطراز؛ ويشرف على مراكز صنع الملابس والأعلام التابعة للدولة والمسماة بدور الطراز، وكان على رأس كل ديوان كاتب، وأهم هؤلاء كاتب ديوان الرسائل، وقد اختارهم الأمويون من أهل الفصاحة، ومن أشهر كتاب الدواوين عبد الحميد الكاتب.

ح- تعريب الدواوين؛ إن أهم الخطوات التي قامت بها الدولة الأموية هي تعريب الدواوين، وقد كان ديوان الخراج يكتب في العراق بالفارسية، وفي الشام باليونانية، وفي مصر بالقبطية، وذلك لأن العرب لم يكن لهم خبرة في الأمور الحسابية، وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة أمر بتعريب ديواني الشام والعراق، وأما ديوان مصر فقد تم تعريبه في عهد ابنه الوليد، وتم تعريب الدواوين بعد تهيئة موظفين عرب للعمل فيها.

ح- أسباب تعريب الدواوين ونتائجه:

١- إعطاء الدولة مضموناً عربياً، وذلك بتعريب جميع مؤسساتها.

٢- ضرورة مراقبة سجلات الدولة ليسهل ضبطها، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بكتابتها باللغة العربية، وتعيين موظفين يتقنون اللغة العربية للإشراف عليها.

ط- ومن نتائج تعريب الدواوين أنها أدت إلى:

١- تقلص نفوذ الفرس والروم في الدولة العربية.

٢- وجود فنيين عرب تسلّموا إدارة الدولة ومؤسساتها.

٣- تطور فن الكتابة عند العرب وإدخال مصطلحات جديدة إلى اللغة العربية.

٤- إشراف المسؤولين على سجلات الدولة ومؤسساتها.

ي- تعريب النقد:

كان النقد المستعمل في الدولة العربية هو الدرهم الفضي الفارسي، والدينار الذهبي البيزنطي، فلما ولي عبد الملك الخلافة أمر بضرب نقود ونقش عليها كتابات إسلامية وسحب النقود المتداولة بين الناس، وأسس عبد الملك لذلك داراً لسك النقود في دمشق، ثم واسط.

ك- أهمية تعريب النقد؛ حقق تعريب النقد الاستقلال المالي والاقتصادي للدولة العربية، وجعلها في منجى من ضغط بيزنطة عليها.

ل- تعريب الطراز: استمر دور بيزنطية التي كانت موجودة في مصر في صناعة الطراز على الشكل البيزنطي القديم بما فيه الكتابات اليونانية عليه، كما استورد الخلفاء بعضه من الدول الأجنبية، وقد أمر عبد الملك عند توليه الخلافة أن يصنع الطراز كله في البلاد العربية وأن يزين بكتابات عربية بعد أن وجد على الألبسة المستوردة كتابات لا تتفق والعقيدة الإسلامية.

م- الولايات: أعاد الأمويون تقسيم الدولة إلى ست ولايات، وتشمل كل ولاية منها عدة أقاليم، وكان الخليفة يعين الولاة أو العمال على الولايات، ويعين الوالي مساعديه من الموظفين في أجزاء الولاية المختلفة بعد الحصول على موافقة الخليفة، وكان الولاة يقدمون حسابهم إلى الخليفة مع تقارير عن وضع ولاياتهم، ولا يقومون بعمل مهم دون استئذانه.

ن- أنواع الولاية: كانت الولاية على نوعين:

١- الولاية العامة وتكون سلطات الوالي واسعة كولاية الحجاج بن يوسف الثقفي.

٢- الولاية الخاصة وتكون سلطة الوالي محدودة بما يمنحه الخليفة من سلطات.

(٢) القضاء والبريد والتنظيمات المالية

أ- القضاء:

هو الفصل بين الناس في المنازعات وإقامة العدل، وقد توسعت اختصاصات القاضي في العصر الأموي، وكان الخليفة يعين القاضي في العاصمة، وربما في الولايات، وعلى الأغلب كان الوالي يعين القاضي في ولايته.

ب- الشروط التي يجب توافرها في القاضي:

يشترط في القاضي أن يكون سليم الحواس، تقياً، عادلاً، مستقيماً، عالماً بالشريعة.

ج- مصادر التشريع: استند القضاة في أحكامهم إلى المصادر التالية:

١- القرآن الكريم: كتاب الله المنزل على رسوله.

٢- السنة: ما أثر عن رسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

٣- الاجتهاد: هو رأي القاضي في المسائل التي ليس فيها نص قرآني أو في السنة حسب

فهمه للشريعة.

٤- القياس: هو قياس حادثة تعرض لهم على حادثة مشابهة وردت في القرآن والسنة.

٥- الإجماع: وهو الرأي الذي يتفق عليه أئمة المسلمين حول قضية ما.

د- مرتبات القضاة: تقاضى القضاة مقابل عملهم مرتباً من الدولة واختلف المبلغ المخصص لهم من عهد إلى آخر.

هـ- دور القضاء:

لم يكن هناك دور مخصصة للقضاء، وإنما كان القاضي يمارس مهمته في الجامع أو في منزل.

و- المظالم: وهي بمنزلة محكمة استئناف عليا، يلجأ إليها المتخاصمون إذا شكوا في عدالة القاضي، أو يلجأ إليها المتظلمون من تعدي الولاة وكبار الموظفين وأصحاب النفوذ، وكان بعض الخلفاء الأمويين يخصصون يوماً خاصاً للنظر في المظالم.

ز- ومن متممات القضاء:

١- الحسبة: وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسمى المسؤول عنها المحتسب ومهمته مراقبة الأسواق لمنع الغش وما ينافي الآداب العامة، وتشبه الحسبة في بعض مهامها شرطة البلديات والتموين.

٢- الشرطة: وكانت تابعة للقضاء، ثم أصبح لها دائرة مستقلة في العصر الأموي، أصبح لكل مدينة شرطة خاصة بها، ويسمى مديرها صاحب الشرطة، وكانت مهمتها تنفيذ أحكام القضاء وإلقاء القبض على المخالفين للقانون والدولة.

٣- تنظيم البريد: اهتم الأمويون بالبريد منذ عهد معاوية، ولكن المنظم الحقيقي له كان عبد الملك، وقد اهتموا به لتسهيل إشراف الخليفة على الولايات، وسمي المسؤول عنه صاحب البريد، وله أعوان في الولايات المختلفة، ولتسهيل مهمة البريد اهتم الأمويون بالطرق، كما مر معنا.

٤- مهمة صاحب البريد: كانت مهمة صاحب البريد نقل رسائل الخليفة إلى الولاة ونقل رسائل الولاة إلى الخليفة، إضافة إلى أنه كان عليه معرفة أخبار الولايات والحوادث المهمة التي تقع فيها وإبلاغها إلى الخليفة.

ح- تنظيم المالية: أودعت أموال الدولة العربية الإسلامية في بيت مال المسلمين، وكان يسجل ما يدخل إليه وما يخرج منه في ديوان الخراج.

ط- جباية الأموال: قام بجباية الأموال في أنحاء الدولة موظفون معينون لهذه الغاية، وكان يرأسهم مدير يسمى عامل الخراج، وتنفق كل ولاية من وارداتها على شؤونها وترسل ما يفيض عنها إلى العاصمة، وأما العملة المستعملة فهي الدرهم الفضي والدينار الذهبي، وذلك منذ عهد عبد الملك، كما مر معنا.

ي- واردات بيت المال: الزكاة والجزية والخراج والغنيمة والفيء والعشر والمكوس والركاز.

ك- نفقات بيت المال: صرفت الغنيمة والفيء والزكاة وفق النصوص الشرعية الإسلامية، وأما الضرائب الأخرى فكانت تصرف على مرتبات الولاة والقضاة والجند وموظفي الدولة، وعلى مرافق الدولة العامة وتجهيز الجيوش ونفقات الخليفة.

عد الأمويون بيت المال ملكاً للخليفة يتصرف به كما يشاء إلا في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عده ملكاً للمسلمين.

الباب الأول

الفصل الخامس

الحضارة العربية في العصر الأموي

في المجال العسكري

- الجيش والأسطول

أولاً- الجيش: اهتم الأمويون بالجيش اهتماماً بالغاً، وبذلوا الأموال الكثيرة لتسليحه وإعداده، وقد اعتمد الأمويون على العرب فيه، فشكل هذا الجيش في بلاد الشام من قبائلها العربية، واعتمد ولاتهم كذلك على القبائل العربية المستوطنة في الولايات والمناطق المفتوحة، كما استعانوا بعناصر مسلمة غير عربية، وقد استقرت هذه الجيوش على الحدود في الثغور كملاطية والمصيصة وفي معسكرات كالكوفة ومرو.

ثانياً- التطورات التي أدخلت على ما كان لدى العرب في عهد الراشدين:

١- التجنيد الإجباري:

نظراً لازدياد حاجة الدولة إلى الجند لجأ عبد الملك بن مروان إلى فرض التجنيد الإجباري، وطبقه واليه على العراق الحجاج بن يوسف وتشدد في تطبيقه بحيث اضطر جميع الرجال القادرين على حمل السلاح إلى الالتحاق بالمعسكرات، وأصبحت الجيوش العربية تقسم إلى فئتين:

- الجيوش النظامية الدائمة.

- والجيوش المتطوعة التي تدعى عند الحاجة.

٢- فرق الجيش: أهم فرق الجيش الكشافة والمشاة والفرسان وسلاح الهندسة وأحدث

في العصر الأموي فرقة لنقل الجرحى، وقد تبع الجيش قراء القرآن والنساء لإثارة الحماسة.

٣- إثارة الحماسة لدى الجنود: عندما كان الأمر يصدر بالقتال كان القراء يبدؤون

بقراءة القرآن والتكبير، وتدق الطبول والصنوج، وتزغرد النساء، فتثور الحماسة في صدور

المحاربين، ويندفعون لمهاجمة عدوهم وفي أغلب الحالات كان النصر حليفهم.

٤- الاستطلاع وتنظيم وسائل الإنذار: أينما توجه العرب كانت تسبقهم عيونهم (جواسيسهم) وكان هؤلاء ينقلون إلى قادتهم أخبار العدو ونواحي ضعفه وقوته، كما كان القادة يضعون في المناطق المرتفعة نقط مراقبة تسمى (المنابر)، فإذا ما رأى المراقبون خطراً مقبلاً أسرعوا بإنذار الجيش بإطلاق الدخان نهراً أو إشعال النار ليلاً، فلا يتمكن العدو من مباغتتهم.

٥- طرق القتال: بقيت طرق القتال على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين مع تعديل بسيط كان يطرأ حسب ظروف المعركة وأحوال الخصم، وفي أواخر العصر الأموي عمم نظام الكراديس بشكل نهائي في الجيش.

٦- مرتبات الجند: تقاضى الجند ما يشبه المرتب في عصرنا الحاضر من ديوان الجند، وكان يسمى ما يأخذه عطاء، ويضاف إليه وقت الحرب حصصهم من الغنائم.

٧- قيادة الجند: كان الخليفة هو القائد الأعلى للجيش، ويقوم بتعيين القادة على الجيوش، إما لبراعتهم في الحرب أو لأنهم من أصحاب العصبية، وكان قائد الجند يستعين بعدد من القادة العاملين معه في رسم الخطط الحربية وتنفيذها، وأشهر هؤلاء القادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم وأبو المهاجر.

ثالثاً- الأسطول:

أ- الأسطول: كلمة يونانية الأصل معناها مجموعة من السفن، وقد بدأ العرب ببناء الأسطول منذ ولاية معاوية على الشام زمن الخليفة عثمان، وكانت أول معاركه معركة ذات الصواري التي انتصر فيها العرب على الروم، وقد رأى الأمويون ضرورة الاهتمام بالأسطول لرد اعتداءات الروم على السواحل العربية، ولدعم الجيش البري، فأنشؤوا دوراً لصناعة السفن في مصر وتونس وغيرها، وساعد على نمو الأسطول توافر الخشب في مصر ولبنان وتونس، ووجود الصانع المهرة من سكان السواحل، واستخدمت في هذه السفن الأشعة والمجاديف مستغلة هبوب الرياح وخصوصاً في جنوب شبه الجزيرة العربية.

ب- الأساطيل العربية في العصر الأموي: كان للدولة الأموية ثلاثة أساطيل قوية،

وهي:

١- الأسطول المصري وتلحق به وحدة بحرية في البحر الأحمر.

٢- والأسطول الشامي.

٣- والأسطول المغربي.

٤- كما وجدت وحدة بحرية في الخليج العربي.

وكانت الأساطيل العربية تتعاون فيما بينها في أثناء الحرب.

ج- سفن الأسطول: تعددت أنواع سفن الأسطول في العهد الأموي حسب مهماتها

وأهمها:

١- الشونة والبارجة: وهما أكبر سفن الأسطول وتوجد فيها أبراج، وتستخدم للدفاع

والهجوم.

٢- الحراقة: وهي سفينة صغيرة تستعمل لحمل النفط والمواد المحرقة.

٣- الطراد: سفينة صغيرة تشبه البرميل تستخدم لحمل الخيول والفرسان.

٤- الغراب: سفينة تشبه الشونة وتشبه في مقدمتها رأس الغراب، وقد استخدمت لغزو

شواطئ السند.

د- قيادة الأسطول: كان لكل أسطول قائد يسمى أمير الماء، ولكل سفينة قائدان

أحدهما ربان مسؤول عن تسيير السفينة، والآخر يدير شؤون الحرب، وأهم القادة جنادة بن

أمية الأزدي فاتح رودس سنة ٥٣ هـ.

هـ- الأسلحة البحرية: تطورت أسلحة الأسطول في العصر الأموي، فبالإضافة إلى

الكاليب التي استخدمت في العصر الراشدي، فقد قذفوا النفط لخرق سفن العدو بوساطة

منجنيقات صغيرة تسمى العرادات، واستخدموا المزاريق لخرق سفن العدو وغير ذلك من

الأسلحة.

و- طرق القتال البحرية: اتبع العرب في العهد الأموي طرقاً مختلفة من أساليب القتال

مثل شد سفن العدو إلى سفنهم والقفز إليها، ثم الاشتباك مع جنودها.

الباب الأول

الفصل السادس

الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الفكري

نمت الحركة الفكرية في العصر الأموي للأسباب التالية:

١ - تشجيع الإسلام للعلم؛ لقد دعا الإسلام إلى تحرر العقل واستخدامه في التفكير في خلق السموات والأرض، كما دعا إلى طلب العلم ولو في أقصى الأرض، والآيات التي تشير إلى ذلك كثيرة.

٢ - تعريب الدواوين؛ أدى تعريب الدواوين إلى إيجاد فنيين ومصطلحات جديدة أغنت العلم واللغة.

٣ - الاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى؛ وتشجيع الخلفاء والولاة للأدب وخصوصاً الشعر والشعراء تعدت هذه الحركة الفكرية العناية باللغة العربية وآدابها وبدأ الاهتمام بالتاريخ والعلوم الأخرى والتعليم.

أولاً: علوم اللغة وآدابها:

آ- علوم اللغة (النحو وقواعد اللغة): أدى اختلاط العرب بالأعاجم بعد قيام حركة الفتوح وتعلم هؤلاء لغة العرب إلى انتشار اللحن (الخطأ) في اللغة، وقد دفع هذا أبا الأسود الدؤلي إلى وضع أسس قواعد اللغة بتوجيه من الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وقد ضبطت اللغة في العصر الأموي بإيجاد الشكل والتنقيط لها، وأسهم في ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي وأبو الأسود الدؤلي.

ب - آداب اللغة (ويقصد بها الشعر والنثر):

١- الشعر: لم يعد للشعر في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الدور الأول لانشغالهم بالفتوحات، وعندما جاء العصر الأموي ازدهر الشعر وعاد إلى مجده القديم بفضل تشجيع

الأمويين للشعراء؛ لأنه كان يؤمن لهم الدعاية السياسية اللازمة إذ كان بمثابة الصحافة في عصرنا.

- النشاط السياسي للفئات المختلفة، وتبنت كل فئة شاعراً يدافع عنها ويهاجم أعداءها.

- عودة العصبية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وقيام شعراء الجانبين بالافتخار بقبائلهم، ومهاجمة القبائل المنافسة لهم.

- الترف والغنى: الناتج عن الفتوحات والذي أدى إلى إغداق الأموال على الأدباء لقاء مدحهم لهم، وقد تنوعت موضوعات الشعر، وزادت عما كانت عليه زمن الخلفاء الراشدين.

٢- النشر: ازدهرت من فنون النشر في العصر الأموي (الخطابة والكتابة).

٣- الخطابة: ازدادت أهميتها في العصر الأموي نظراً لازدياد الحاجة إليها للدعوة إلى الجهاد، ولبعث روح الطاعة للخليفة وللدعاية السياسية ومن أشهر خطباء هذا العهد الحجاج بن يوسف الثقفي.

٤- الكتابة: كان لتعريب الدواوين وإنشاء ديوان الرسائل أثر كبير في تطور الكتابة، وقد أدخلت إليها أساليب جديدة وخصوصاً فن كتابة الرسائل على يد عبد الحميد الكاتب.

ثانياً: التاريخ؛

ظهر التاريخ على شكل قصص تروي حياة الأمم الماضية أو حياة الرسول ﷺ وغزواته. وقد جمعها الرواة عن طريق المحدثين دون التدقيق في صحتها، ومما دفع إلى الاهتمام بالتاريخ الحاجة إلى التعرف على أخبار الرسول وغزواته وأخبار الصحابة والأمم الأخرى، وسمي كتابها: كتاب السير والمغازي أو الإخباريين، وأشهر من اهتم بها محمد بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٤ هـ.

ثالثاً: العلوم المختلفة؛

بدأت بواكير الحركة العلمية على يد خالد بن يزيد بن معاوية الذي عوض عن إخفاقه في الوصول إلى الخلافة بالاهتمام بعلم الصنعة أو الكيمياء، وقد ترجمت له كتب في الكيمياء

والطب، ومن المحتمل أن خالد بن يزيد نفسه ألف في علم الصنعة، وأشهر الكتب المترجمة في هذا العصر كتاب هارون بن أعين في الطب.

رابعاً: التعليم:

لم يكن هناك تعليم بالمفهوم الحديث له، وإنما كان هناك تعليم بسيط يتم في الكتاتيب وحلقات المساجد، حيث يتعلم الطالب القراءة والكتابة وبعض التاريخ، وأما أبناء الخلفاء وكبار الأمراء فقد كان لهم مؤدبون يعلمونهم القراءة والكتابة والرماية والسباحة وركوب الخيل، واستخدم في الكتابة ورق البردي والورق الخراساني والجلود.

الباب الأول

الفصل السابع

الحضارة العربية في العصر الأموي

في المجال الفني

(١) فن العمارة وبناء الجوامع والمدن

أ- العمارة في العصر الأموي: اهتم العرب في العصر الأموي بالعمارة بعد استتباب الأمن نسبياً في الدولة وتدفق الأموال عليهم بسبب الفتوحات، وحب الخلفاء للترف والعمارات وتقليدهم الفرس والروم، وخصوصاً أنهم استقروا في بلاد الشام وابتعدوا عن جو الحجاز الديني.

ب- مصادر فن العمارة العربية: استفاد العرب في فني البناء والزخرفة من فنون الروم والفرس والعرب القدماء، ولكنهم لم يتوقفوا عندها، بل ابتكروا أساليب جديدة، فظهر لذلك فن عربي له شخصيته المميزة.

ج- خصائص فن البناء العربي: تميز فن البناء العربي بمجموعة من الخصائص منها:

- تأثره بالدين الإسلامي: ويظهر ذلك في بناء المساجد والابتعاد عن رسم الإنسان والحيوانات في زخارفها، وتزيين الأبنية بكتابة الآيات القرآنية عليها، وهو متمثل في كل أنحاء الدولة من حيث طرازه وتزييناته.

- بناء الجوامع: اهتم الأمويون ببناء الجوامع لتأمين أماكن العبادة للمسلمين الذين كان يتزايد عددهم، وقد استخدمت هذه الجوامع كمقر للتعليم والاجتماعات العامة ولأخذ البيعة والدعوة للجهاد، واعتنى الأمويون بتزيينها، واستقدموا لذلك الصانع المهرة من بيزنطة كما فعل الوليد في بناء جامع المدينة.

د- طراز بناء الجوامع: اتخذ جامع الرسول ﷺ قدوة بناء المساجد في الدولة العربية الإسلامية، ثم جرى تطوير بنائها في عهد بني أمية فأضيفت إلى المسجد الأقواس والقباب

والمقصورة والمئذنة والمحراب، وأصبح الجامع يتألف من بناء يتوسطه صحن مكشوف فيه مكان للوضوء، ويقع في جنوب الباحة مكان مسقوف للصلاة حيث يوجد المحراب والمنبر.

هـ- أهم الجوامع:

١- جامع قبة الصخرة في القدس: أمر ببنائه عبد الملك بن مروان، وهو بناء مثنى الشكل يحمل في وسطه قبة، وقد زين بالفسيفساء الجميلة.

٢- الجامع الأموي بدمشق: بني بأمر من الوليد بن عبد الملك عام (٩٦هـ): في موضع كان منذ القديم مكاناً للعبادة اشتهر هذا الجامع بفسيفسائه وزخارفه، وقد تعرض هذا المسجد للحريق عدة مرات؛ ما أدى إلى دمار قسم مهم من فسيفسائه.

٣- بني الأمويون مساجد أخرى كالمسجد الأقصى، وجددوا المساجد التي بنيت أثناء العهد الأول كمسجد المدينة.

و- بناء المدن: أنشأ الأمويون المدن لضرورات أمنية وعسكرية، وكان يبني المسجد أولاً، ثم دار الإمارة قربه، ثم تبنى الأسواق والأحياء، وكانت كل قبيلة من القبائل تسكن حياً خاصاً بها، ومن أهم المدن التي بنيت في العصر الأموي:

١- القيروان في تونس: أمر ببنائها عقبة بن نافع (٥٠هـ) لتكون مقراً لجنده ومركزاً لولاية شمال إفريقيا.

٢- واسط في العراق: قرب قرية الحي اليوم، أمر ببنائها الحجاج بن يوسف (٨٣هـ) في مكان وسط بين الكوفة والبصرة والأهواز، وجعلها مركزاً لولاية العراق وأسكن فيها الجند الشامي.

(٢) بناء القصور - الزخرفة:

أولاً - بناء البيوت: تميزت بيوت العرب بوجود باحة سماوية تقوم على جوانبها الغرف، ومع ازدياد غنى المسلمين الناتج عن الفتوحات أخذت عنايتهم ببيوتهم تزداد، وأصبحت هذه البيوت واسعة وتبنى من الآجر والطين والحجارة وتزين بالنقوش، وقد بلغ الاهتمام بالعمارة درجة كبيرة عند الخلفاء الأمويين فبنوا القصور المختلفة.

١- قصور الأمويين: لا تزال بقايا كثير من قصور الأمويين منتشرة في البادية والمدن، وهي تربو على ثلاثين قصراً أهمها قصر الخضراء وعمرة والحير الغربي.

أ - قصر الخضراء في دمشق: أمر ببنائه معاوية بن أبي سفيان في دمشق جنوب شرقي المسجد الأموي، وسمي بالخضراء نسبة إلى قبة خضراء كانت له.

ب - قصر عمرة: يقع في الطرف الشمالي الشرقي للبحر الميت في شرقي الأردن، أمر ببنائه الوليد بن عبد الملك ليستجم فيه ويبارس هوايته في الصيد، وأهم ما بقي منه الحمام، ويتميز بوجود صور بشرية على جدرانه إضافة إلى مشاهد الصيد والمهن المختلفة.

ج - قصر الحير الغربي قرب تدمر: أمر ببنائه هشام بن عبد الملك، وقد شيدت أسواره من الحجارة والأجر، ودعمت بأبراج نصف دائرية، ونقل إليه الماء بواسطة قناة، ونقلت واجهته إلى متحف دمشق.

٢- طراز قصور الأمويين:

تألقت قصور الأمويين من سور خارجي مرتفع تتوسطه باحة مكشوفة تلتها أروقه مسقوفة، ثم الأجنحة السكنية.

ثانياً - فن الزخرفة:

لم يشجع الإسلام على تصوير الكائنات الحية خوفاً من عودة الناس إلى الوثنية، لذلك انصرف الفنانون العرب إلى الزخرفة الهندسية والنباتية، ولم يمنع ذلك من وجود صور قليلة بشرية وحيوانية في قصور الأمويين، ولا نجد لمثلها أثراً في المساجد، واستخدم الفنانون العرب إلى جانب الزخرفة الهندسية والنباتية الخط العربي وخصوصاً الكوفي في التزيين.

- الفنون الصناعة الأخرى: برع العرب بتطعيم الخشب والنحاس والخزف، وتجلت براعتهم في هذه الصناعة في كل الآثار التي خلفوها وراءهم.

ثالثاً - فن الموسيقى: إن قيام العرب بالفتوحات واختلاطهم بالروم والفرس وإعجابهم بموسيقاهم دفع المهويين من العرب إلى نقل ألحانهم وتكييفها مع الذوق العربي، ثم تطويرها في العهود التالية، وشجع الأمويون الغناء والموسيقا خلافاً لما كان في عهد الخلفاء الراشدين ومنحوا المغنين هبات كبيرة، واستمعوا إليهم في مجالس الطرب والأدب التي كانوا يقيمونها في قصورهم، وأشهر المغنين في هذا العصر ابن سريج ومعبد.

- الآلات الموسيقية: عرف العرب الدف والمزهر والقصبة والزم والناي، كما استعملوا الطبول والصنوج، وقد أباح الفقهاء استعمال الدف منها فقط.

الباب الأول

الفصل الثامن

الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الاقتصادي

نقصد بالحياة الاقتصادية الزراعة والصناعة والتجارة وطرق المواصلات وتطورها في ظل الدولة الأموية.

أولاً- الزراعة؛ لقد شغلت الفتوحات والمشاكل الداخلية الأمويين عن الاهتمام بالزراعة، ولكنهم لم يهملوها تماماً، بل التفتوا إليها بين الحين والآخر، فقد أمر يزيد بن معاوية بحفر قناة من نهر بردى لري المناطق المرتفعة من الغوطة، وأطلق عليها اسم نهر يزيد، وقيام ولاية الأمويين كالحجاج بن يوسف بشق قنوات الري، وإعادة فتح ما ردم منها وإصلاحها، وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي، واستخدام في ذلك الرقيق الذي جلب من إفريقيا ومن أسرى الحروب، كما منع الحجاج هجرة الفلاحين من الريف إلى المدينة حرصاً على عدم نقص المحاصيل الزراعية وضريبة الخراج.

أ- ملكية الأرض الزراعية؛ كانت ملكية الأرض الزراعية ثلاثة أنواع:

١- الأراضي التي استولى عليها المتنفذون العرب.

٢- الأراضي التي كان يملكها الدهاقنة (المتنفذون من الفرس).

٣- أراضي أملاك الدولة وخصوصاً المستصلحة منها، وكانت توزع على أبناء البيت المالك وأتباعهم، كما كانت هنالك ملكيات خاصة لبعض الفلاحين، وقد تشكلت نتيجة هذا النظام طبقة تملك الأراضي الواسعة استخدمت الفلاحين والرقيق في زراعتها.

ب- أهم المنتجات الزراعية؛ تنوعت الحاصلات الزراعية في الدولة الأموية تبعاً لاختلاف المناخ وتوافر وسائل الري والتربة الخصبة، وكانت أهم الحاصلات الزراعية الحبوب والزيتون والفواكه والكتان والتمر وقصب السكر.

ثانياً- تربية الماشية: اهتم العرب بتربية الماشية إذ بقيت مصدراً هاماً من مصادر غذائهم وتنقلهم وصناعتهم النسيجية، وأهم الحيوانات التي ربوها الإبل والغنم والبقر، كما جلبوا الجاموس من الهند إلى أهوار العراق والجزيرة السورية، وقد بذلت عناية خاصة لتربية الخيول العربية الأصلية في هذا العهد.

ثالثاً- الصناعة: عمل سكان البلاد على تطوير الصناعات التي كانت عمدتهم بتشجيع من الخلفاء الأمويين، وقد ازدهرت الصناعة المعدنية بسبب توافر المعادن الضرورية لها، كما تميزت صناعة النسيج برقيها بسبب وجود دور الطراز والخيوط المختلفة اللازمة لها، فاشتهرت مصر بالنسيج الكتاني ودمشق بالنسيج الحريري وأرمينيا وفارس بالسجاد، كما وجدت صناعات أخرى كصناعة الورق في مصر وخراسان وصناعة السفن في المناطق الساحلية.

رابعاً- التجارة: انشغل الأمويون عن التجارة بالحروب، ولكن ذلك لم يمنع العرب من القيام بنشاط تجاري.

١- التجارة الداخلية: وكانت تتم بين الولايات المختلفة، وساعد على تقدمها اتساع رقعة الدولة، والاهتمام بطرق المواصلات، وإيجاد نقد عربي ثابت وموحد للدولة، وتوطيد الأمن.

٢- التجارة الخارجية:

أ - تجارة البحر المتوسط: أدى الصراع الذي كان قائماً بين العرب والبيزنطيين إلى تناقص تدفق السلع من الشرق إلى الغرب، ولم يخفف من هذا النقص قيام تجار بعض الموانئ الإيطالية الجنوبية بالتجارة مع سواحل شمال إفريقيا.

ب - التجارة مع الهند والصين: لم يكن هناك عائق يمنع التجارة مع الهند والصين، لذلك كانت السفن التجارية تصل إلى سواحلها وتجلب مختلف البضائع الشرقية إلى موانئ الخليج العربي وعدن، وكانت أهم السلع المستوردة التوابل والمعادن الثمينة، وقد وصلت الحضارة العربية إلى أقصى الشرق بفضل التجارة العربية.

٣- الطرق التجارية:

أ - الطرق البرية: وكانت تمتد بين العاصمة دمشق وولايات الدولة المختلفة، ومن ثم إلى الدول المجاورة، وأهم هذه الطرق:

١ - طريق تصل دمشق بالولايات الشرقية والسند والصين.

٢ - طريق ممتدة إلى الأندلس عبر شمال إفريقيا.

٣ - طريق دمشق - الحجاز - اليمن، وقد اهتمت الدولة بطرق المواصلات البرية.

ب - الطرق المائية:

١ - طريق المحيط الهندي: ويبدأ من موانئ البحر الأحمر وعدن وموانئ الخليج العربي إلى الهند والصين.

٢ - طريق البحر المتوسط: ويبدأ من موانئ بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا إلى جنوبي إيطاليا وفرنسا وغيرها.

٤ - أهم المدن التجارية: كانت أهم المدن التجارية دمشق في بلاد الشام والإسكندرية في مصر والقيروان في المغرب والمريّة في الأندلس وعدن في شبه الجزيرة العربية والكوفة والبصرة في العراق والديبل في السند ومرو في خراسان.

٥ - مراقبة الدولة التجارة: كان للدولة حق مراقبة التجارة لمنع الغش والتلاعب بالأسعار ولجباية رسومها، وكان المحتسب في كل مدينة يقوم بهذه الأمور.

الباب الثاني

العصبية القبلية في العصر الأموي

الباب الثاني

الفصل الأول

عوامل عودة العصبية القبلية في العصر الأموي

بلغت العصبية القبلية في هذا العصر من الحدة مبلغاً كبيراً بسبب بروز عوامل عدة أبرزها:

١ - **العوامل الاجتماعية:** وتمثل في انتقال القبائل العربية من الطور البدوي إلى الطور الحضري الذي كان من المفترض أن يفتت هذه العصبية، إلا أن نظام توزيع العطاء على الجند واستنفار المقاتلين قد فرض على الدولة أن تخطط المدن والأمصار على أساس قبلي، حتى أن مدينة الكوفة شطرت شطرين شطراً للقبائل اليمينية وشطراً آخر للقبائل النزارية، وهذا ما جعل العصبية تعود بشكل حاد أضف إلى ذلك حرص بني أمية وأشرافهم وولاتهم على مصاهرة القبائل العربية، فإذا تزوج الخليفة أو الوالي من قبيلة من القبائل تعصب لها، ويدل على ذلك ما أحدثه أصهار (خالد بن يزيد) إلى آل الزبير من تبدل شعوره نحو هذه الأسرة التي ناصبت بني أمية العداء ونازعتها سلطانها حتى غدت أحب أسرة إليه، وفي ذلك يقول.

أحب بني العوام طراً لجهها ومن أجلها أحببت آخر كلبها
كما أن هذه المصاهرات جعلت بني أمية ينحازون مرة إلى (كلب) ومرة إلى (قيس) وأدى ذلك إلى الصراع القبائل وتنافسها.

٢ - **العوامل السياسية:** التي هي بدورها زرعت بذور الاحترام بين هذه القبائل، ولذلك وجد الأمويون في إثارة العصبية بين القبائل كسباً سياسياً لدولتهم ودعماً لسلطانهم؛ لأن انشغال القبائل في تيار الخصومات القبلية كان عاملاً في انجراف هذه القبائل عن نظام الحكم الأموي وعدم تكتل هذه القبائل ضدهم، وقد وضع معاوية اللبنة الأولى لهذه العصبية، فانحاز في بداية أمره إلى القبائل اليمينية بالشام حتى عزت اليمن في الشام في عهده، وتناولوا على قصره وهموا بإخراجهم من الشام؛ ما أدى إلى تحرك العصبية المضربة في

معاوية، فأخذ يتعصب لها وأعطى (٤٠٠٠) رجل من قيس عطاء مخصصاً، ثم جعل (بغزو اليمن بالبحر) و(قيس في البر):

أترك قيساً آمناً بدارهم ونركب ظهر البحر والبحر زاخر وهكذا بقي خلفاء بني أمية يقربون القيسية ويقصون البيانية وبالعكس حتى دال ملكهم وانهار حكمهم. أضف إلى ذلك أن التحريض بين الشعراء والرجال البارزين زاد من حدة الصراع القبلي، وقد كان ممن اتهم بالعصبية القبلية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اختار كل عماله وولاته من القيسية، وقد كان الجراح بن عبد الله الحكمي من أشد ولاة بني أمية تعصباً ومن المغالين في تعصبهم حيث كان يقول: (والله لرجل من قومي أحب إليّ من مئة غيرهم).

وقد أدت عصبية الولاة إلى اتقاد نار العصبية القبيلة طوال عهد بني أمية وإلى اتصال الفتن القبلية في شتى الأقطار الإسلامية، ومما ساعد على اشتهاار النزاع القبلي سياسياً تنازع القبائل التي تنزل في ديار واحدة (السلطان السياسي) فيها فكل قبيلة ترغب أن يكون لها نصيب الأسد من المناصب السياسية، وهذا ما جعل بني العباس يقوضون حكم بني أمية للسهولة.

٣ . **العوامل الاقتصادية:** التي برزت في رغبته القبائل العربية في الحصول على القسط الأوفى من المكاسب المادية والمغانم، وليس فقط السلطان السياسي على أن تداخل العاملين جعل الصراع يمتد أكثر فالبحث عن السلطات السياسي دوافعه كسب المغانم، كما كان هو صراع القبائل العربية في العصر الجاهلي على (الماء والكأ والمرعى).

٤ . **العوامل الثقافية:** المتمثلة فيما قام به الشعراء والخطباء من إيقاد لنيران العصبية القبلية، وفي الحقيقة أن هؤلاء الشعراء والخطباء هم أكثر الناس تأثيراً في إثارة العصبية القبلية بشكل مباشر من خلال دعوة القوم للثأر والتحريض، أو بشكل غير مباشر من خلال المفاخرات والمناقضات بينهم، والتي ساعدت في نشر ثقافة التذكير بالوقائع والمعارك القديمة ونشر المثالب والمعائب ونكء الجروح القديمة وإثارة الحزازات التي عفا عليها الزمن.

الباب الثاني

الفصل الثاني

مظاهر العصبية القبلية في العصر الأموي

لقد أدى إذكاء نار العصبية القبلية في هذا العصر إلى صراع (حربي ولساني) بالإضافة إلى اعتزاز القبائل بأنسابها وافتعال الأخبار والروايات التي ترفع من شأن القبائل واستمرار النزعات القبلية والتنافس القبلي والثأر والمعاقرات ومن تلك المظاهر:

١ - التمسك بالإنسان والاعتزاز به: ومن ذلك انتساب (كثير الخزاعي) إلى كنانة ويفخر باتصال نسبة بقريش أمام عبد الملك بن مروان:

أليس أبي بالصلت أم ليس إخوتي بكل هجان من بني النضر أزهرنا
إذ ما قطعنا من قريش قرابة فإني قيسي يحمل النبل ميسرا
فرد عليه الأحوص الأوسي:

فإنك لا عمراً أباك حفظته ولا النضر أن ضيعت شيك تلحق
٢ - التماسك القبلي: الذي أدركت معناه القبائل من أجل تحقيق مصالحها ويتجلى التماسك القبلي واضحاً في قصة سجن خالد القسري للفرزدق، وما صنعه الفرزدق من أنه أوصى ابنه أن يستعين بقبسية الشام ليشفَعوا له عند هشام ففعلوا وعبر الفرزدق عن أهمية الرابطة المضرية التي تؤلف بين (قيس وتميم):

ألم تر قيساً قيس عيلان شممت لنصري وحاطتني هناك قرومها
فقد حالفت قيساً على الناس كلهم تميماً فهم منها ومنها تميمها
وعادت عدوي إن قيساً لأسرتي وقومي إذا ما الناس عد صميمها

٣. الأحقاد القبلية: التي حاول الإسلام وأدائها في مهدها غير أن العصر الأموي جاء وأعاد بعثها من جديد وأذكى نارها، وقد عبر الأخطل عن عمق هذه الأحقاد حين قال:

إذا ما قلت قد صالحت بكرا أبى الإضغان والنسب البعيد
وأيام لنا ولهم طـوال يعرض المهام فيهن الحديد
وهكذا كانت هذه الأحقاد تجعل القوم يسرون بكل مصيبة تظهر في القبائل الأخرى،
ويبتهجون لكل نائبة تنزل بهم، وقد ازداد التشفي بين القبائل في هذا العصر، وأصبح السلعة
الرابحة التي لا ينفك أصحابها يبيعون ويشرون لها.

٤ - استمرار النزعات الجاهلية: التي حاربها الخلفاء الأمويون وتمسك بها الناس لما
رأوه من انحياز في السلطان كالتداعي إلى القبائل والعشائر والتنافس في الكرم الموروث من
خلال المعاقرات للإبل وإطعام الناس، وكذلك نزعة المفاخرة والمنافرة وعلى الرغم من أن
الإسلام وضع (التقوى) ميزان التفاضل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
[سورة الحجرات: ١٣] إلا أن الكثير من القبائل عادت لميزان الجاهلية في تفاضل الناس.

٥ - الأحلاف القبلية: التي عادت إلى الظهور في هذا العصر لإقامة التوازن بين الكثير
من المشاكل القبلية في البلد الواحد أو التنافس لدفع أذى قبيلة قوية معادية، ومن ذلك حلف
(تميم و كلب) وحلف (ربيعة واليمن) وحلف (بكر الربيعية وقبيلة الزاد اليمنية) بالبصرة.

الباب الثاني

الفصل الثالث

أثر العصبية القبلية في الشعر الأموي

حمل الشعراء العرب منذ عصر الجاهلية لواء العصبية القبلية ونفخوا ببوقها وأججوا نارها وزاد صدى النزعة القبلية في العصر الأموي مترافقة مع النزعة الدينية، وخاصة حين وجدت الأحزاب السياسية والفرق الدينية مسرباً لها، وقل أن نجد شاعراً أموياً لم يخضع للنزعة القبلية السياسية سوى شعراء اتجهوا للهو والنزاع والعبث كعمر بن أبي ربيعة، فقد بقي معظم الشعراء الأمويين يسرون على سنن الشعراء الجاهليين في الحديث عن الأغراض القبلية في شعرهم وتقديم الولاء القبلي على سائر النزعات والمنافحة عن القبيلة والإشارة بماثرها والشعراء المحترفون لم ينج من ذلك (لا شعراء الشام ولا العراق ولا الحجاز ولا خراسان).

وقد نطق بلسان (قيس) زفر بن الحارث ونفيع بن صفار والعجير السلولي ونطق بلسان (تغلب) الأخطل الكبير والقطامي وأعشى تغلب ونطق بلسان (اليامية) عمرو بن مخلدة وجواس بن القعطل وحكيم بن عياش المعروف بابن الأعور وعمران بن هلباء والأصبغ بن ذؤالة، وبلسان (نزار) الفرزدق وجريز والبعيث وغسان السليطي والعجاج والراجز وابنه روبة، وبلسان (القحطانية) الطرماح بن حكيم الطائي وسراقة بن مرداس البارقي؛ أما المواقع التي كان العرب يخوضون فيها المعارك في بلاد العجم فقد حكى عنها النابغة الجعدي والمغيرة بن حبناء وكعب الأشقري والشمر دل اليربوعي ونهار بن توسعة البكري.

وقد كان الشاعر المتعصب لقومه يعتقد أن الله ما وهبه موهبة الشعر إلا ليدافع عن قومه، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
وقد كان النزاع السياسي وثيق الارتباط بالنزاع القبلي، إذ وقف الشعراء من الأحداث السياسية حسب الموقف الذي تمليه القبيلة، ولكن بعض الشعراء لم ينقادوا لهذه العصبية

وبقيت أصواتهم خافتة في مناهضة هذه العصبية، ومن هؤلاء الشعراء (نهار بن توسعة - التميمي البكري) الذي كان يؤثر الإسلام على الانتفاء إلى بكر أو تميم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا هتفوا ببكر أو تميم
دعي القوم ينصر مدعيه فيلحقه بذى النسب الصميم
وما كرم ولو شرفت جدود ولكن التقى هو الكريم
وللأخطل الكبير موقف فخر في إثارة الفتن القبلية حين حرّضه يزيد بن معاوية على هجاء
الأنصار الذين رضي الله تعالى عنهم في قرآنه الكريم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ
حَثِيَ رَبُّهُ﴾ [سورة البينة: ٨] وقد قال فيهم الأخطل:

ذهبت قريش بالمكارم والعللا واللوؤم تحت عمائم الأنصار
وهكذا نجد أن الشعراء الذين يجب أن يكونوا رسل سلام ومحبة وخير وخاصة بعد أن
جاء الإسلام يبشرون بالشر وتلقيح الفتن، كما أكد زفر بن الحارث أن حزازات الصدور
الجاهلية ستبقى كما هي، مهما مر عليها الزمن.

فقد ينبت المرعى على دمنة الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا
على ألا نغفل أن الشعراء كانوا يحرصون قومهم على الثأر من أعدائهم ويحثون الموتورين
على الطلب بدماء قتلاهم حتى أن بعض الشعراء وصف القاعدين عن الثأر لقتلاهم بالنساء؛
لأنهم عجزوا عن إدراك وترهم:

وإن أنتم لم تثأروا بأخيكمو فكونوا نساء للخلوق وللكحل
وبيعوا الردينيات بالحلي واقعدوا على الذل وابتاعوا المغازل بالنبل

الباب الثاني

الفصل الرابع

الرتاء القبلي في العصر الأموي

بغض النظر عن دوافع الرثاء المختلفة في نفس الشاعر سواء ما كان منها لفقد شخص عزيز أو تربطه به رحم أو صلة أو يمثل عقيدة أو مذهب أو منزلة اجتماعية، فإن الرابطة القبلية تمثل جانباً من دوافع الرثاء حيث تهز المواجه التي تنزل بقوم الشاعر وقبيلته ذلك في هذا العصر، ففي أعقاب موقعه مرج راهط التي دارت الدائرة فيها على قيس قام شعراء القيسية يندبون من صرع في ميراث المعركة من فرسانهم ويتوعدن كلباً بلقاء قريب يثأرون فيه لهزيمتهم، ومن ذلك ما قاله سيد قيس زفر بن الحارث:

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ماهيا
أبعد ابن عمرو وابن معنى تتابعوا ومقتل همام أمن الأمانيا
وقد رثى الشعراء من هلك من أقوامهم إبان الفتوح والفتن السياسية والحروب الداخلية، فلقد ترك موت عبد الرحمن بن مخنف سيد الأزدي الكوفة في قتاله الأزارقة أثراً عميقاً في نفوس أهل الكوفة فرثاه سراقه بن مروان البارقي قائلاً:

أعيني جوداً بالدموع السواكب وموتا كواهي شنة مع راكب
على الأزدي لما أن أصيب سراتهم فنوحاً لعيش بعد ذلك خائب
وكنا بخير قبل قتل ابن مخنن وكل امرئ يوماً لبعض المذاهب
وأكثر ما كان يؤلم الشاعر تفرق قومه وتشتت أمرهم بسبب المنافع واصطراع المطامع، ومن ذلك قصيدة عبد الله بن قيس الرقيات التي يأسى فيها لما آل إليه أمر قريش من الفرقة والاختلاف وقاتل بعضها بعضاً:

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورهما الأهواء

ومن الرثاء القبلي في هذا العصر رثاء السادة والأشراف في القبائل الذين تغتالهم يد الردى أو يستشهدون في سح الوغى، ومن ذلك ما عبر عنه أعشى همدان في بكائيته لابن الأشعث.

عليك محمد لما ثويت تبكي البلاد وأشجارها
وكنت كدجلة إذ ترتمي فيقذف في البحر تيارها
وقد يكون الرثاء بسبب وباء جارف أو بسبب جائحة طبيعية، كما في قول الحكم بن عبد
الفاضري الأسدي يرثي جماعة من بني فاضرة هلكوا بطاعون وقع في الكوفة:

أبعد بني زر وبعده ابن بحدل وعمرو أرجي لذة العيش في حضي
وهنوا وبقينا نأكل العيش بعدهم ألا إن من يبقى على أثر من يمضي
وللرثاء القبلي خصائص متميزة تتمثل بـ:

- ١ - أنه صوت الشعور تجاه المرثي.
- ٢ - مخالجة اليأس لنفس الشاعر.
- ٣ - تهويل الخطب وتعظيم الرزء.
- ٤ - تعداد مناقب المرثي التي تسوغ شدة الجزع عليه.
- ٥ - الإشادة بشجاعة المرثي.

الباب الثاني

الفصل الخامس

الفخر القبلي في العصر الأموي

غلب الطابع القبلي على الشعر الأموي بشكل عام وموضوعاته، ولكنه في الهجاء والفخر كان أكثر فقد عاد الفخر القبلي إلى صورته الجاهلية في العصر الأموي بسبب إذكاء الروح القبلية، وقد مثل ذلك الفرزدق في قوله:

تميم هم قومي فلا تعدلنهم يحي إذا اعتز الأمور كبيرها
وحتى حين ينزع الشاعر إلى الفخر بنفسه فإن فخره في الغالب يكون صدى عصبيته، وقد قال الفرزدق أيضاً:

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
ولذلك فقد كانت موضوعات الفخر القبلي تتمثل في المناقب والمآثر التي كان الجاهليون يفاخرون بها، وأهم هذه الموضوعات.

١- التفاخر بالأيام والوقائع: فشعر كل قبيلة سجل يؤرخ وقائعها الظافرة كفخر العديل بن الفرخ العجلي بيوم- ذي قار- وفخر بني عامر بن صعصعة بيوم- شعب جيلة- والفخر بيوم- ررحان- ويوم- السلان- وفخر شعراء اليمانية بأيامهم على معد في الجاهلية كيوم (أوارة) وفخر بني تغلب بيوم- الكلاب الأول- وكذلك فخر بني يربوع بأيام- طنخفة- وذي نجب- والصمد- ومن ذلك قول جرير:

هم ضربوا هام الملوك وعجلوا بورد غداة الحوفزان فبكرا
وقد جعلت يوماً بطخفة خيلنا لآل أبي قابوس يوماً مذكرا

٢- التفاخر بفضائل الصحراء: التي فرضتها البيئة على المجتمع القبلي كالشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف وحماية المستجير وقرى الضعيف ونقيضة جرير الفائية تمثل ذلك أصدق تمثيل:

ترى جارنا فيها يجير وإن جنى فلا هو مما ينطف الجار ينطف
ويمنع مولانا وإن كان نائياً بنا جاره مما يخاف ويأنف
وقد علم الجيران أن قدورنا ضوامن للأرزاق والريح زفنف
نعجل للضيفان في المحل بالقرى قدوراً بهبوط تمد وتقرف

٣- التفاخر بإيثار حياة البادية على حياة الحضرة؛ وقد مثلت ذلك الشاعرة
ميسون بنت بحدل حين رفضت العيش في حياة القصور وآثرت العيش في الخيام.

ليبت تعصف الأرواح فيه أحب إليّ من قصر منيف
٤- التفاخر بالتمسك بالنظام القبلي؛ والخضوع لسادة القبيلة والانقياد إلى أولي
الرأي، وقد عبر عن ذلك القطامي في قوله:

ونطيع أمرنا ونجعل أمرنا لذوي جلادتنا وجزم قوانا
٥- الفخر برجاحة العقل وشدة النزق؛ كل بحسب الموقف والحاجة إليه فحين
تعامل بالعقل ترد بالعقل، وحين تستثار ترد كالجن يقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنأ إذا ما نجهل
ويرد عليه جرير:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويفوق جاهلنا فعال الجهل
٦- تفاخر كل قبيلة؛ بأنها أعرق القبائل شرفاً وأنبها محتداً وأفضلها نسباً وأشرفها بيتاً
وأعلاها منزلة وأكثرها عزة، وفي ذلك يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمهم أعز وأطول
٧- التفاخر بقتال أهل الشرك؛ والمشاركة بالفتوح الإسلامية، من ذلك ما قاله
الطرماح مفاخرًا بقومه اليمانية الذين نصروا الخليفة وقتلوا الثائرين عليه، كما نصروا النبي من
قبل وقتلوا المشركين:

بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت

بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى عقد الإسلام حتى استمرت
وقد دارت هذه المفاخرات في إطار العصبية القبلية الواسعة بين العدنانية والقحطانية، كما
هو في فخر الوليد بن يزيد بالعدنانية:

ونحن المالكون الناس قسرا نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الحي ذلا ومانا الوهم إلا خبالا
شددنا ملكنا ببني نزار وقومنا بهم من كان مالا
وفخر القحطانية ببلائها في مرج راهط الذي مثله عمرو بن مخلاة:

حزينا لكم من منبر الملك أهله بجيرون إذ لا تستطيعون منبرا
وأيام صوت كلها قد عرفتم نصرنا ويوم المرج نصراً مؤزرا
وكذلك دارت هذه المفاخرات في إطار العصبية الضيق وبين القبائل التي تربطها أصرة
الرحم الكبرى، وخاصة بين القبائل المتجاورة ومن المفاخرات الشعرية التي تمثل هذا الضرب
تفاخر شعراء تميم (جرير من جانب) و(الفرزدق والبعيث من جانب آخر) مستخدمين المآثر
الجاهلية لإبراز خصائصهم كإحياء الموءودات وإكرام الضيف ونجدة المستغيث وحماية
المظلوم والشجاعة في القتال، وقد كان جرير والفرزدق على الرغم من مهاجبتها يركزان على
الفخر بتميم القبيلة الأم.

يقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
ويقول الفرزدق في تميم نفسها:

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرت علينا تميم ظالمين وأسرفوا
لما تركتكن تشرن بإصبع ولا تركت عين على الأرض تطرف
ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أوأمانا إلى الناس وقفوا
وقد تميز الفخر بخصائص فنية بارزة تمثلت بـ:

- ١ - ظهور أثر الصنعة الفنية فيه.
- ٢ - ظهور أثر الثقافة الدينية فيه (القرآن الكريم - الحديث الشريف).
- ٣ - ظهور أثر الثقافة الفكرية فيه (وجود صدى الحياة الاجتماعية فيه).
- ٤ - الاتكاء على التصوير الحسي.
- ٥ - اللجوء إلى الألفاظ الفخمة المجلية التي تفرع الأذان بقوة جرسها وتملاً الفم لفخامتها.
- ٦ - الاعتماد على جزالة التراكيب وقوة التأليف.
- ٧ - استخدام أسلوب التهويل والتعظيم والمبالغة.

الباب الثاني

الفصل السادس

الهجاء القبلي في العصر الأموي

يعد الهجاء القبلي في العصر الأموي من الفنون العريقة، ذلك أنه سلاح حاد يهدد به الشاعر خصوم وأعداء قبيلته، وبذلك يكون الهجاء الأموي قبلي في دوافعه وطابعه وسماته من خلال الطعن بخصومه، فما إن ثور فتنة أو تهييج عصبية ما حتى يسارع الشعراء إلى خوض المعركة بسلاحهم اللساني فيتهاجون ويتفاخرون، وبلغ من شدة تأذي بعض القبائل بالهجاء مبلغاً حملها على قتل الشعراء الذين تصدوا لهجائها، وقد أصبح فن الهجاء في هذا العصر فناً معقداً بعد أن كان سابقاً بسيطاً حيث أضاف شعراء العصر الأموي إلى ألوان الهجاء القديم ألواناً جديدة تمثلت في:

١ - تجريد المهجو وقبيلته: من جميع الفضائل والمناقب التي كانت مناط التفاخر في مجتمعه القبلي كالشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف وحماية الجار ونيل المحتد وعراقة النسب، وهي مآثر جاهلية استمرت في عصر الإسلام والعصر الأموي؛ لأن المجتمع القبلي لم يختلف كثيراً عما كان عليه في العصر الجاهلي، ومن ذلك ما قاله الأخطل في بني النجار حين جردهم من مكارم الأخلاق.

خلوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار

٢ - التعرض للصفات الحسية والعيوب الخلقية: حيث يصف الشاعر قبح مهجوه به وسوء منظرهم لما أصاب العرب في هذا العصر من تحضر نسبي وتغير أذواقهم حيث يكثر الالتفات في المجتمع المتحضر إلى العيوب الخلقية التي تؤذي حاسة الاستماع بالجمال والأذواق المرهفة، ومن ذلك قول جرير في هجاء قبيلة الهجيم حيث يصور سوء منظرهم:

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

٣ . ألح الشعراء على نعت القبيلة المهجرة بالهوان؛ والعجز والخضوع للقبائل الأخرى تحقيراً لشأنها، ومن ذلك هجاء الطرماح لقبيلة تميم وتعييرهم بالانقياد ليزيد بن المهلب والقحطانية:

بأي بلاد تطلب العز بعدما بمولدها هانت تميم وذلت
أقرت تميم لابن دهمه حكمة وكانت إذا سميت هواناً أقرت
٤ . التعيير بالمثالب القبلية؛ والتنقيب عن مخازي كل قبيلة ومثاليها، وقد كانت العرب تعير غيرها بمزاولة الزراعة وصيد السمك من ذلك ما قاله جرير في بني حنيفة حيث عيرهم بمزاولة الزراعة:

أبناء نخل وحيطان ومزرعة سيوفهم خشب في مساحيها
ويقول الفرزدق معيراً أزد عمان بمزاولة الملاحظة وصيد السمك:
ولم يدع داع يا صباحاً فيركبوا إلى الروع إلا في السفين المضب
٥ . تفضيل بطن من بطون القبيلة على البطن المهجو؛ أو تفضيل إحدى القبائل على القبيلة المهجوة، وفي ذلك يقول جرير موبخاً بني نمير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كلباً بلغت ولا كلابا
٦ . إضافة أساليب جديدة لم يعرفها القدماء في الهجاء؛ تتمثل في إضحاك الآخرين من صورة المهجو، وذلك برسم صورة ساخرة له تحمل السامع على الضحك منه، أو باستخدام ألفاظ مثيرة للضحك، وفي ذلك يقول جرير:

والتغلبى إذا تنضح للقري حك اسسته وتمثل الأمثالا
وكذلك قوله:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأهمم بولي على النار
٧ . استخدام الإفحاش في اللفظ؛ ونهش الأعراض وهتك العورات، وقد فعل ذلك فئة من الناس وأشفى غليلهم هذا الإفحاش تجاه أعدائهم من القبائل الأخرى وامتنعض منه

آخرون ولم يألفوه؛ لأنه ليس من أخلاق العرب التي لم تكن كذلك في الجاهلية ولا ألفوا ما ورد من هذا النوع من الهجاء لما دعا إليه الإسلام من أخلاق حميدة.

وقد تميز الهجاء القبلي بخصائص فنية جديدة قديمة رسمت معاملة بشكل آخر من خلال:

١ - ترك العفوية وعدم الاكتفاء بأبيات قليلة.

٢ - الحرص على الإتيان بمعاني بكر وصور طريفة.

٣ - الاعتماد على الصنعة والمهارة الفنية.

٤ - إظهار مقدرته الهجائية وطول باعه في هذا المضمار.

٥ - استخدام الثقافة الدينية القرآنية والحديث النبوي الشريف في وصم المهجو بعدم

مراعاته للأخلاق الدينية.

٦ - ترسُّم أسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف واقتباسه في استخدام الحجج

والبراهين في دحض قضية من القضايا.

الباب الثاني

الفصل السابع

المناقضات القبلية في العصر الأموي

ظل الطابع القبلي واضحاً في الشعر في عصر بني أمية على الرغم من محاربة الإسلام لهذه النزعة في جانبها السلبي، وازدادت النزعة الفردية في هذا العصر وتغني الشعراء بمشاعرهم الغزلية أحياناً، كما عند (عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر) وطغى استقلال شخصية الفرد على شخصية الجماعة، وبحث بعض الشعراء عن مكاسب فردية، وفي العموم فقد بقيت المظاهر القبلية الرابطة للشاعر بقبيلته.

ولم تكتمل الصورة الفنية للمناقضات القبلية على الرغم من وجودها في العصر الجاهلي إلا في عصر بني أمية على يد فحول شعراء الهجاء (جرير - الفرزدق - الأخطل) حتى غدا هذا الفن فناً أموياً خالصاً، وذلك بعد أن كان فن النقائض يجري على هواه وضع له الشعراء في العصر الأموي شروطاً دقيقة تمثلت في شروط تمس بناء القصيدة الخارجي وموسيقاها الشعرية (التزام الشاعرين المتناقضين بحراً واحداً وقافية واحدة وروياً واحداً) وشروط تمس بناء القصيدة الداخلي (نقض الشاعرين معاني بعضهما بعضاً) وتلمس ذلك في نقيضتي جرير والفرزدق يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً وعائمة أعز وأطول
ويقول جرير:

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلح الأعزل
وقد التزم الشاعران بشروط النقيضة باستثناء (حركة الروي) وتعتبر النقيضة مزيجاً من الهجاء والفخر القبلي والتصدي والمنازعة في الشرف والمنافسة في المآثر، فهي تنفيس عما تكنه الصدور من أحقاد وضغائن ومطاوله ومنازعة في الشرف والفضائل وتحقير للخصوم وتجريدهم من كل منقبة، كما في قول الفرزدق:

وكنّا إذا نامت كليب عن القرى إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
وقد يمزج الشاعر في النقيضة بين الهجاء والمدح أو قد يلجا في نقيضة إلى مزج رثاء زوجته
(خالدة) بهجاء الفرزدق:

لولا الهجاء لهاجني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وقد كان الشعراء يستلهمون نقائضهم بالنسيب والوقوف على الأطلال، وقد يبادر
خصمه مباشرة بالهجوم دون مقدمة ولا يألو شاعر النقيضة جهداً في محاولة تحقير صاحبه
وتقزيمه ولو كذباً غير متجاهل لإحكام الصنعة الفنية (الجدل والمناظرة واستقصاء المثالب
والمفاخر وإطالة القصيد).

وهكذا فقد دخلت كل القبائل في العصر الأموي فهي مناقضات في نطاق العصبية
الكبرى (العدنانية والقحطانية) (ربيعة ومضر) (نزار واليمن حيث اشتعلت نار العداوة بين
مضرية الشام التي تمثلها قبيلة قيس والقبائل اليمنية وتمثلها كلب، وجرت المناقضات بين زفر
بن الحارث وجواس بن القعطل الكلبي، وشارك في هذه المعركة اللسانية في أعقاب معركة
مرج راهط شعراء كثيرون من الجانبين، ومن المناقضات المشهورة بين الشعراء نزار وقحطان
تلك التي ثارت بين (الطرماح الطائي والفرزدق التميمي) بسبب الأحداث القبلية التي
شهدتها العراق في زمنيهما، وكذلك ما دار بين (الشاعر زياد الأعجم شاعر عبد القيس
والشاعر كعب الأشعري شاعر الأزد).

وكذلك ما نشب بين المهلب بن أبي صفرة والخوارج من خصومات سياسية جعل (الشاعر
ابن الكواء اليشكري يتهاجى مع الشاعر ثابت قطنة الأزدي) وكذلك ما جرى بين الشاعر عبد
الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري وعبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكذلك مناقضة جرير
وسراقة البارقي وكذلك ما جرى بين ثابت قطنة الأزدي وحاجب بن ذبيان المازني.

ومن الجدير بالذكر أن المناقضات امتدت من العصبية الكبرى إلى العصبية الصغرى
كما حدث بين (النابغة الجعدي وابن مفرأ السعدي التميمي) وبين (أرطأة بن سببة المري)
(شيب بن البرصاء) وبين (الشاعر العبيسي المساور بن هند والشاعر الأسدي المرار بن سعيد
الفقعسي) ومن أشهر المناقضات التي جرت في الحجاز ما دار بين الشعارين القيسيين (ابن
ميادة المري وحكم بن معمر الحضري).

الباب الثاني

الفصل الثامن

مواقف الشعراء من العصبية والأحزاب السياسية

كانت القبيلة في العموم تستظهر بشاعرها الذي يمثل وزير إعلامها من أجل اتقاء أذى شعراء القبائل المعادية، ذلك أن القبيلة لا تلوذ إلا بشاعر مفلق تطمئن على براعته الهجائية كما حصل مع جرير عندما هجا قبيلة نمير بقصيدته المشهورة حين قال:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
كما وأن عصبية الشاعر لم تكن تقف عند حدود عشيرته، بل تضم قومه جميعاً، وربما دعا الشاعر إلى نبذ أسباب العداوة والخصومة وجمع كلمة العشائر تحت رابطة واحدة، ومع قدوم الإسلام تبلورت لدى الشاعر القيم الدينية كعصبية جديدة أخذ يدافع عنها دون أن تقتلع هذه القيم الدينية عصبية الشاعر القبلية مع أن بعضاً من شعراء الخوارج سموا بعقيدتهم الدينية فوق روابط الرحم والعصبية القبلية متخذين ميزان تقوى الله الميزان الحقيقي في تفاضل الناس، ومثل ذلك شعراء الشيعة الذين اتسعت صدورهم أكثر لعقيدة التشيع كما اتسعت لنحلة العصبية والتقت عندهم العصبيتان، فقد كان الكميت الأسدي أشد شعراء الشيعة غلواً في تشيعه كما كان أشدهم غلواً في عصبيته وانتصاره لقومه النزارية.

وأعجب ظاهرة تلك التي قامت بين شاعرين هما الكميت والطرماح، فقد كان الكميت عدنانياً عصبياً وشيعياً من القالية يتعصب لأهل الكوفة بينما كان الطرماح قحطانياً عصبياً وخارجياً من الصفرية يتعصب لأهل الشام مع العلم أن كليهما يقف من الحكم الأموي موقف المعارض وينظر إلى السلطة نظرة الكره، ولو أننا درسنا مواقف الشعراء من عصبيتهم القبلية لوجدنا أنهم لم يكونوا يتخلون عنها حتى في حالة مدح الخلفاء والولاة، كما حصل مع يزيد بن الحكم الثقفي حين وفد على الحجاج فولاه فارس، ثم استنشده فعدل عن مدحه إلى الفخر بقومه ورهطه بني كعب:

ومن يك سائلاً عنِّي فإني أنا ابن العبد من سلفي ثقيف
وفي كعب ومن كالحى كعب حللت ذؤابة الجبل المنيّف
فغضب الحجاج وعزله وطرده، ولما فارقه يزيد وأمن جانبه قال:

أورثني أبي مجده ومقاله وأورثك أبوك أعنزاً ترعاها
ولو رحت تستجلي مواقف الشعراء من الأحزاب السياسية لوجدت أن الذين وقفوا في
جانب الحزب الأموي الحاكم كانوا يبحثون عن المال والأعطيات في الغالب، وقليلاً ما كان
الشاعر يخالف موقف قومه حين يجمعون على مناصرة حزب سياسي كما حصل مع أعشى
همدان، فقبيلته شايعة المختر الثقفي ونصرته بينما أثر هو البقاء في جانب مصعب بن الزبير،
وفي ذلك يقول أسى على قومه الذين أوقع بهم مصعب:

وما إن سرنى إهلاك قومي وإن كانوا وجدك في خبار
أما شعراء الحزب الزبيري فقد استجابوا لموقف قبائلهم حين نصرت عبد الله بن الزبير،
فلما قضى على الحزب الزبيري عاد شعراء الحزب الزبيري إلى حظيرة بني أمية، كما أن الشاعر
عبد الله بن الزبير الأسدي كان من المدافعين عن بني أمية، فلما غلب مصعب بن الزبير على
الكوفة أتى به أسيراً فمَنَّ عليه مصعب وأحسن إليه فانقلب نصيراً للحزب الزبيري، وانقطع
إلى مصعب يمدحه حتى أواخر حياته وترك موته في نفس عبد الله بن الزبير الأسدي الشاعر
أسى عميقاً وخاطب قاتل عبيد الله بن زياد بن طبيبات قائلاً:

أبامطر شلت يمين تفرغت بسنيك رأس ابن الحوارى مصعب
فلما انقادت المرات لسطان بني أمية عاد الشاعر عبد الله بن الزبير يمدح الأمويين، أما
الحزب الزبيري فلم يستطع استمالة الشعراء إليه في الغالب واتخاذهم أبواقاً تدعو له؛ لأنه لم
يكن ييسط كفه بالعطاء لهم على أن طائفة أخرى من الشعراء كان همها التكسب بالشعر
تعرضه على كل من ييسط لها كفه بالعطاء، ولم يظفر الحزب الزبيري إلا بشاعر واحد أخلص
له الولاء هو عبيد الله بن قيس الرقيات، وقد لازم الشاعر مصعب بن الزبير حتى آخر أيامه،
فلما قتل تواری الشاعر عن الأنظار، فلما أمن على نفسه عاد إلى مدح بني أمية، وأما شعراء

الشيعة فقد كانوا يجمعون بين السياسة والدين مالوا إلى نزعة نصرته آل البيت اعتقاداً بأحقيتهم في الخلافة فهذا الكميت بن زيد لم يقبل نوالاً وعطاءً على نصرته لآل البيت إلا بعض الثياب تبركاً بها على أن الشاعر أبو جلدة اليشكري كان يناصر الحجاج، فلما قامت ثورة بن الأشعث شارك مع قبيلته في نصرتها، وكان من أشد الناس تحريضاً على الحجاج وبني أمية فأنتهى الأمر بقتله.

الباب الثاني

الفصل التاسع

رعاية الشاعر لمصالح القبيلة في العصر الأموي

تهيأ للشاعر في العصر الأموي علاقة ثنائية تتمثل في حظوة الشاعر عند قومه وحظوته عند ذوي الملك والسلطان؛ مما جعل الشاعر أسيراً لقومه يقوم على خدمتهم والدفاع عنهم، فإذا ما أصاب قوم الشاعر مظلمة وجه الشاعر للسلطان عتياً كما حصل مع قوم الراعي النميري حين استبد سعاة الخليفة في جباية الصدقات وجانبوا جادة العدل التي أمرهم بلزومها:

أخليفة الرحمن أنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا
فارفع مظالم عيلت أبناءنا عنا وأنقذ شلوننا المأكولا
إن السعاة عصوك حين بعثتهم وأتوا دواهي لو عملت وغولا
ولما قال الشاعر:

ولئن بقيت لأدعون بطعنة تدع الفرائض بالشريف قليلا
غضب عبد الملك بن مروان فلم يجب الراعي النميري سؤله، وعاد الشاعر إلى الشكوى للخليفة بأسلوب رقيق فأجابه:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد
واختل ذو المال والمثرون قد بقيت على التلاتل من أموالكم عقد
فإن رفقت بهم رأساً تعشقهم وإن لقوا مثلها من قابل فسدوا
وكذلك دافع النعمان بن بشير عن قومه الأنصار لدى معاوية، وكان غليظاً وعنيفاً في ذلك
مذكراً ما صنع الأنصار بمشركي قريش في بدر:

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف بحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
ألم تتبد، يوم بدر سيوفنا وليلاً محاناب قومك قاتم
ضربناكم حتى تفرق جمعكم وطارت أكف منكم وجماجم
ولما أبلى اليمانية بلاء حسناً في تثبيت الحكم الأموي بعد وفاة يزيد وتوقعوا أن يقربهم بنو
أمية ويباعدوا خصومهم القيسية وخذلوا انطلقت ألسن الشعراء شعراء كلب وتوجهت إلى
الأمويين بالعتب واللوم والتذكير بصنيعهم، وفي ذلك يقول عمرو بن مخلاة الكلبي:

حربنا لكم عن منبر الملك أهله بجيرون إذ لا تستطيعون منبرا
وكذلك كان شعراء العدنانية وقفوا مثل هذا الموقف من بني أمية وعاملهم ينافحون عن
قبائلهم ويدافعون عن حقوقهم حيث نجد الفرزدق يثور على بني أمية وعاملهم على العراق
خالد بن عبد الله القسري حين سجن خالد نصر بن سيار:

أخالد لولا الدين لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم توثقوا نصرا
أفي الحق أنا لا تزال كتيبة نطاعنها حتى تدين لهم قسرا
وهكذا كان الشعراء ينتهزون المناسبات التي تظهر فيها قبيلتهم الولاء للأمويين، ومن
ذلك قول الشاعر خلف بن خليفة مخاطباً بني أمية ومدلاً عليهم بموقف ربيعة منهم وولائها
لهم:

حفظنا أمية في ملكها ونخطر من دونها أن تراعا
ندافع عنها وعن ملكها إذا لم نجد بيديها امتناعا
فقل لأمية ترعى لنا أيادي لم نجزها واصطناعا

الباب الثاني

الفصل العاشر

المديح المتصل بالعصبيات القبلية

يعد المديح في عصر بني أمية حرفة مجزية يبذل الشاعر في تجويدها غاية جهده إذ لم يعد المديح مقتصرًا على القبيلة، بل تجاوز ذلك إلى الخلفاء والأمراء وأشرف القبائل الأخرى وأجواءهم وصارت قضية (التكسب) بالشعر ذات أولوية كبيرة عند أكثر الشعراء باستثناء قلة منهم بقيت ترصد بالشعر خلجات النفس ومشاعر وأحاسيس الشاعر، وحتى في حالة مديح الشاعر لرجل من قبيلته لم يكن دافع هذا المدح عاطفة الولاء للقبيلة، بل كانت الرغبة بالتكسب هي الدافع لذلك ومن هذا النوع مديح كعب الأشقري الأزدي في مدح المهلب وبنيه وآله.

لقومي الأزدي الغمرات أمضي وأوفي ذمّة وأعز جارا
هم قادوا الجياد على وجاهها من الأمصار يقذفن المهارا
ثم يثني على المهلب قائلاً:

شهاب تختلي الظلماء عنه يرى في كل مبهمّة منارا
براك الله حين براك بحرا وفجّر منك أنهاراً غزارا
وكذلك وقف الفرزدق وجريبر جانباً من مدائحهما على طائفة من رجال بني تميم البارزين في العراق، فهذا الفرزدق في مدائحه لابن أحوز يدل على الخليفة وعلى بني أمية بمجالدتهم عنهم وبلائهم في سبيلهم فيقول:

ألم يأت بالشام الخليفة ابنا ضربناله من كل عنه يخالف
صناديد أهدينا إليه رؤوسهم وقد باشرت منه السيوف الخذارف
ثم يمدح ابن الأحوز بعد ذلك:

فأنت الفتى المعروف والغازي الذي به بعد عباد تجلى المخاوف
أعز عظيم المنكبين سما به إلى كرم المجد الكرام الغطارف
وكذلك نجداً جرير يقف جانباً من نقيضته له على مدح هلال بن أحوز وإيقاعه بآل
المهلب وأنصارهم الأزدي بقناديل ويفخر بتميم:

ألا رب سامي الطرف من آل مازن إذا شممت عن ساقها الحرب شمرا
وأطفأت نيران النفاق وأهله وقد حاولوا في فتنة أن تسعرا
ويتصف هذا النوع من المدح القبلي:

١- صدق الشعور.

٢- قوة العاطفة.

٣- الانسجام مع عصبية الشاعر لقومه.

٤- وصف وقائع المدوح الحربية.

٥- الفخر يقوم الشاعر والإشادة بطولاتهم وشجاعتهم ومناقبهم.

٦- التصريح بطلب العطاء من المدوح والتكسب بالشعر.

٧- نعت المدوح بالجوهر ليهزوا أريحيته.

الباب الثالث

الشعر في العصر الأموي

الباب الثالث

الفصل الأول

حاضنة الشعر في العصر الأموي

أتت الدولة الأموية بعد منازعات وإحن وإيقاظ لفتن نائمة وازدادت معها رقعة الإمبراطورية الإسلامية شرقاً ببلاد السند والأفغان الشرقية وغرباً بما وراء مصر إلى المحيط الأطلسي في إفريقيا، وأصبحت عاصمة الدولة دمشق في بيئة فاتنة مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة من جبال وأنهار وأودية ورياض فهل وصفت تلك الطبيعة، وهل غير الشعراء الذين أقاموا بها وأخذوا ينشدون أشعارهم أمام أمير المؤمنين المنهاج القديم كلا ظل الشعراء يقفون بالأطلال ويصفون الناقة والرحيل ويمعنون بالمعاني الجاهلية من الخمر والنساء كأن الإسلام لم يغير حياة الشعراء وكان حياتهم لم تتغير.

وتعد البيئة التي يعيش فيها الشعر الحاضنة الأساس للشاعر، وقد بقيت الشاعرية في القبائل العربية التي كانت تهتم به ومن هنا، فإن للأقاليم آثارها المختلفة في حياة أهلها، فللحجاز حياة خاصة من نحو مادي، ومن نحو اجتماع وسياسي أيضاً، وللعراق كذلك حياته الخاصة التي تختلف من هذه الأنحاء عن حياة الحجاز، وإذا كان ذلك، فمن الطبيعي أن يختلف الشعراء، وهم الذين يخضعون لهذه المؤثرات المختلفة ويتمثلونها، فيقل شعراء الحجاز من المدح والهجاء والفخر ويكثر من الغزل على هذا النحو الذي يصور حياتهم حياة مبتهجة،

ويقف بعض الشعراء في نجد وبادية العراق شعرهم على المدح والهجاء والفخر، على حين يعنى بعضهم الآخر بلون خاص هو الشعر السياسي.

على أن هذه المؤثرات كانت على فنون الشعر، وتجاوزت ذلك إلى مادة الشعر في ألفاظه ومعانيه، فإذا وفق الشاعر أن يعيش عيشة نعيم كما وفق إلى ذلك شعراء المدن في الحجاز فستكون معانيه معاني مترفين، وستكون ألفاظه ألفاظ المترفين، وإذا ظل بدوياً خشن العيش

كما كانت الحال في نجد وبادية العراق فسيظل شعره بدوياً في ألفاظه، وهكذا اختلف الشعر باختلاف الأقاليم لا في فنه فحسب، بل في معانيه وألفاظه كذلك، ولعل أرق الشعر كان في الحجاز، ولعل أغلظه كان في نجد وبادية العراق.

إن العرب في الأصل ينقسمون إلى عدنانية وقحطانية، وإن الشعر كان عدنانياً مضرياً ولم يكن قحطانياً، وأنه لم يزدهر بعد الإسلام إلا حيث استطاعت المضرية أن تسود، أو حيث استطاعت القبائل والمجموعات الأخرى إن تتصل بالمضرية وأن تتأثر بها، ويتبين هذا ويوضحه أمر العراق بعد الفتح الإسلامي في أثناء القرن الأول للهجرة، فإذا استقصينا فيه الشعراء الناهيين وجدنا أنهم من عرب الشمال، من المضرين، ولا نكاد نجد فيهم شاعراً ينتسب إلى قحطان، ومع ذلك فقد استقرت جماعات ضخمة من العرب الجنوبيين في العراق، واتصلت بالبيئات العدنانية، ولكنها لم تأخذ عنها الشعر، ولم تتعلمه إلا في عصر متأخر جداً، وإنما يعود ذلك إلى أسباب أخرى.

فالكثرة المطلقة من العرب الذين كانوا يقيمون بالكوفة كانوا من عرب الجنوب، فلم يفش فيهم الشعر في العصر الإسلامي، وإن الكثرة المطلقة من عرب البصرة في حضرتها وباديتها كانت من عرب الشمال ولذلك فشا فيهم الشعر، وكثر فيهم الشعراء مثل جرير والفرزدق وذي الرمة، وأن بلاد الشام لا تكاد تعرف شاعراً يعد في طبقات الشعراء المعروفين؛ لأنها كانت مقطوعة أو كالمقطوعة عن عرب الشمال، وموصولة أو كالموصولة ببيئات أجنبية غربية.

وهناك أشياء أخرى تتصل بهذه البيئات وتدعو إلى أن يأخذ الشعر في تطوره طريقاً بعينها، فيقال في هذا الموضوع أو ذاك، ويشتهر بهذا الفن أو ذاك، تبعاً للظروف التي تحيط به، والتي تخضع للبيئة الجغرافية التي ينشأ فيها الشعراء، إن ظروف الحجاز مثلاً في جملتها أنشأت شعراً خاصاً هو شعر الغزل، وهذه الظروف نفسها في اختلاف ما بينها فرقت بين غزل الحجاز الذي نشأ في الحواضر وغزل الحجاز الذي نشأ في البوادي.

وظروف العراق التي أحاطت بالشعر دفعته في اتجاه آخر، فخالفت بينه وبين شعر الحجاز ونجد، ذلك أنه اتخذ وجهة المعارضة للحكم القائم،

ولم يكن موقف البيئات الإسلامية واحداً من هذه المعارضة ولم يكن وجهة المعارضة كذلك واحدة، وذلك إن بلاد المسلمين أو بلاد العرب الخالص في العهد الأموي كانت تنقسم في مجملتها إلى ثلاثة أقسام:

١- العرب المواليون لبني أمية.

٢- والعرب المعارضون في صمت لبني أمية.

٣- والعرب المعارضون في عمل ومقاومة.

فأما الشام فكانت موالية لهم، وأما الحجاز فقد كانت معارضة صامته؛ لأن أهل الحجاز خافوا أن ينالهم ما نالهم مع الزبيريين من تقتيل وتدمير، ولأن المال الذي انهار عليهم من بني أمية صرفهم عن هذه المعارضة، واتسعت المعارضة في العراق، وكانت معارضته صاحبة لا صامته، ومتكثرة لا مقتصدة، ومتنوعة لا واحدة، ذلك أن العراق كان موطن الخصومات السياسية بين السلطان الأموي ومعارضيه من الزبيريين والشيعية والخوارج. وقد بدت هذه المعارضة في وجهتين كبيرتين:

١- معارضة السياسة العامة وهي تتناول أصل نظام الحكم ومسألة الخلافة، وترى إن

ينتقل هذا الحكم إلى قريش أو بني هاشم منها أو أن يكون شائعاً بين المسلمين

٢- ومعارضة إقليمية كانت تقف للأمرء والولاية في طريقة حكمهم للأقاليم، فتنكر منهم

ما يكون من جور أو قسوة، فهي لا تنفي السلطان الأموي في أساسه، ولكنها تكره بعض الولاية كالحجاج مثلاً أو تكره ما يكون منهم من حيف.

والمتصفح للشعر في عصر بني أمية لا يجد تجديداً فيه؛ لأن الأمويين صرفوا الشعراء عن

مواكبة الحياة الجديدة إلى مناخرات قبلية إشغالاً للناس عن الخلافة وبقي الشعراء رغم حياته الحضرية يعيشون في رسوم الأطلال فعمر بن أبي ربيعة مثلاً يبدأ حديث الهوى بقوله:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعاً
إلى الشرى من وادي المغمس بدلت معالمه وبلا ونكبء زعزعا
فيبخلن أو يخبرن بالعلم بعد ما نكأن فؤاداً كان قدماً مفجعاً

ولا ريب أن هذه وقفة تعيدنا إلى البداوة الأصلية، فهل كانت لصاحبنا نزعة بدوية أو كان أبوه بدوياً لِقنه العناية بالبادية والهيام بأطلالها؟ لا لقد كان الشاعر حضرياً نشأ في مكة وكان أبوه حضرياً من المكيين المعروفين بالثروة والنعيم إنه لم يعبر عن عاطفة أو هوى بدوي، وإنما بدأ قصيدته، كما بدأ القدماء قصائدهم، وليس من اللازم أن تكون هذه المعالم الباهتة آثاراً لحب.

ولم يكن كثير من الشعراء بصورة مختلفة عنه وبأكثر مرونة من عمر، وإنما كانوا أشد جموداً على المعاني الجاهلية، بل في الأخيلة والصور التي ينتزعونها من الحياة والطبيعة حين يتحدثون عن الحب، وقد يسرفون في المعاني البدوية حتى يسخر منهم معاصروهم وتنكر عليهم القول حبيباتهم، ويبدو الجمود على أشده عند شعراء الأقاليم المداحين الذين اتصلوا بملوك الأمويين وولاتهم وتوفروا على المدح والمهجاء، وهؤلاء هم الشعراء الذين يحتلون المكانة الأولى في العصر الأموي وتسير أشعارهم في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية بتأثير الخلفاء والولاة، وعملهم لهذه السيرة ويشغل العامة والخاصة بإنشادها والمبارزة في المفاضلة بين أصحابها.

وأعلام هذه الجماعة الأخطل وجريير والفرزدق والثلاثة من بلاد ما بين النهرين ولدوا ونشؤوا فيها، ثم أقبلوا يسهمون في الأحداث السياسية ويضربون بسهم وافر، وقد امتثلوا الشعر القديم وسلكوا في المدح الطريقة الجاهلية وجمدوا في الأوصاف الطبيعية جموداً لا يتفق مع حياتهم الاجتماعية والسياسية ولا مع البيئة التي نشؤوا فيها.

والأخطل أكبر هذه الجماعة وشاعر أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ولا نستطيع أن نتبين في استفتاحاته الطبيعية التي تطول حيناً وتقصّر حيناً أي فرق بينها وبين الشعر الجاهلي حتى ألقه جمهرة النقاد بالشعراء الجاهليين وفضلوه لهذا على معاصريه.

وقد أوغل في وصف حيوان الوحش وعهدنا بشعراء بكر الذين كانوا يسكنون بيئته قبل الحضارة الإسلامية ألا يتوغلوا توغله، لكنه يحاكي من جملة الشعر القديم ما اتصل ببيئته وما بعد عنها.

وهو لهذا الجمود لا يظفر بمميزات بيئته من الترتيب ووضوح الوحدة في القصيدة وإن ظفر بالعناية اللونية وبشيء من التصوير المعنوي، ففي قصيدة ينتقل من المنزل إلى وصف المهمة والناقة وحيوان الوحش، ومن هذا إلى حديث الشراب والنديم ومنه إلى القسم على

الطريقة الوثنية لينتهي بالمدح وكل هذه الانتقالات مفاجئة لا رابط بينها وإن صح تقدير روابط نفسية في الشعر القديم، فإنها لا تصح في هذا الشعر بحال.

وإذا احتمل هذا الجمود إن صح للجمود أن يحتمل من الأخطل بما كان له في البادية من هوى ومقام، فإنه لا يحتمل من الفرزدق، وقد ولد في البصرة المدينة الإسلامية لآخر عهد الخليفة الثاني، وعرفت أسرته منذ الجاهلية بالرفقة والبعد عن الفظاظة والوحشية لكنه على هذا كله كان جامداً على القديم البدوي.

ويبدو هذا الجمود في الوقوف بالأطلال حين يقول:

ألماعلى أطلال سعدي نسلم دوارس لما استنطقت لم تكلم
وقوفاً بها صحبي عليّ وإنما عرفت رسوم الدار بعد توهم
يقولون: لا تهلك أسى ولقد بدت لهم عبرات المستهام المتيم
فقلت لهم: لا تعذلوني فإنها منازل كانت من نوار بمعلم
فقد أخذ ألفاظ امرئ القيس بعد أن سلبها الروح والدم الحار، وألفها هذا التأليف الجامد الذي مجرد أسمى المعاني كل ما فيها من جمال وينتقل من هذا الحديث في غير تمهيد إلى موضوع آخر لا صلة للأول به.

ووهم الفرزدق إذ ظن أن هذه الوقفات التي يقصدها ويصطنعها حين شاء تعبر عن حقيقة أمره حين قال:

إذا شئت هاجتني ديار محيلة ومربط أفلاء أمام خيام
فهذا القول واضح الدلالة في أن الأطلال لا تهيجه، وأنه يقصد إلى هذا الضرب على أنه لون من البراعة النظمية لكن التصنع يكشف عن نفسه دائماً.

وتبدو طريقته في الجمود عند الماضي الشعري حين يصطنع معاني القدماء وألفاظهم في أوصاف الطبيعة، ويصف الفرزدق الذئب فيعجب وصفه القدماء، ويتحدث عنه بعض المحديثين، ويبدو فيه معنى الود للحيوان المفترس، وهذه مرتبة عظيمة من مراتب الألفة للطبيعة؟ لقد وصف الفرزدق الذئب مرة فقال:

على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
لندن فطمته أمه يتلمس
لألبيسته لو أنه كان يلبس
فكان كقيد الرمح بل هو أنفوس
وبينه بقية زادي والركائب نعس
على طارق الظلماء لا يتعبس

دعوت بناري موهناً فأتاني
وإيـاك في زادي لمـشتركان
على ضوء نار مرة ودخان
وقائم سيفي من يدي بمكان
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
أخيين كانا أرضعا بلبان
أتاك بسهم أو شبابة سنان

على أن الفرزدق نفسه قد نعت الذئب نعتاً لا يمت إلى الألفة بسبب حين شبه فقال:

وكنت كذئب السوء لما رأى دما
وثالث الثلاثة جرير بن عطية كان كزملائه في تناول الأوصاف الطبيعية تناوياً جامداً، وقد
يسرع في الوقوف بالأطلال حتى لا يستغرق سوى بيت واحد ينتقل بعده إلى غرضه من
الهجاء أو المدح، وقد يطيل قليلاً فلا ترى عنده طرفة في الطول ولا في القصر.

وقد يطيل في وصف رحيل الأحبة بعد حديث الأطلال كما في قصيدته التي مطلعها:

قل للديار سقى أطالك المطر قد هجت شوقاً فماذا ترجع الذكر

وليلة بتنا بالغرين ضافنا
تلمسنا حتى أتاناً ولم يزل
ولو أنه إذ جاءنا كان دانيا
ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا
فقاسمته نـصـفين بيني
وكان ابن ليلى إذ قرى الذئب داره
وقال في أخرى:

وأطلس عسال وما كان صاحباً
فلما دنا قلت ادن دونك إنني
فبت أقـد الزاد بيني وبينه
فقلت له لما تكشر ضاحكاً
تعش فإن واثقتني لا تخونني
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما
ولو غيرنا نبهت تلمس القرى

وهو في جملة معانيه، بل في ألفاظه أحياناً كثيرة ليس له في هذا الباب جديد مذكور، وقد أفصح عن حقيقة شعوره حين قال بعد أن أطال الوصف والذكر:

ماذا يهيجك من دار ومنزلة أم ما بكأوك إذ جيرانك ابتكروا
فهو يجمع معاني القدماء مع الإفادة من ألفاظهم جمعاً ليس فيه جديد سوى النظم.
ولكل قاعدة استثناء والأحكام الأدبية تمثل الاتجاه العام، ولا تبني على الشواذ اللهم بعض
شعر الطبيعة الذي جاء عفو الخاطر من شعراء كانت عاطفتهم صادقة.

وهذه السمات المعطرة التي تهب قليلاً في دور الجمود لشعر الطبيعة العربي تتمثل في شعر
مجنون ليلى، وتحس أثرها فيما وصلنا من شعر الوليد بن يزيد.

هذا اللون من الشعراء المخلصين في الحب الصادقين عن أنفسهم قد كان لعنصر الصدق
في شعرهم أثر في شعر الطبيعة وأن الشعر المنسوب للمجنون مثل له.

والطبيعة في شعر المجنون وثيقة الصلة بالحب ترتبط بها نفسه حتى تشاركه مظاهرها
وموجوداتها في الحب في الفتنة بهذه المظاهر.

فطلوع الشمس وغروبها يصلان بينه وبين ليلى حتى يسائل النفس: هل هما يهديان التحية
إلى إليها؟

ألا هل طلوع الشمس يهدي تحية إلى آل ليلى أو دنو وغروبها
ويثير طلوع النجم والصبح شجونه:

فما طلع النجم الذي يهتدي به ولا الصبح إلا هيجاً ذكرها ليا
وإذا نظر إلى السماء فرأى طيراً يملق في جوها حملة السلام إلى الحبيب:

ألا أيها الطير المحلق غاديا تحمل سلامي لا تذرنى مناديا
ومن أجل الحب هام برائحة الخزامى وأخذ يناجي شجرات الأثل يطلب الطمأنينة لفؤاده
في ظلها:

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة إلى قرقرى قبل المات سبيل

فيا أثلات القاع ملت صحبتي مسيري فهل في ظلكن مقيـل
ويا أثلات القاع ظاهر ما بدا بحمى على ما بالفؤاد دليل
ويا أثلات القاع من بين توضح حيني إلى أفيائكن طويل
ويا أثلات القاع قلبي موكل بكن وجدوى غيركن قليل
وإذا رأى ظبياً حدثه عن ليلي، وإذا مر بعقاب ساقط على وكره دعا له وطلب منه بياناً عن
الحبيب يخرجـه من الظلمات إلى النور.

وحين تصور الغراب دليل الفراق ونذير الرحيل قسا ودعا عليه بالعذاب والهوان
وبالتشريد وفراق الأحبة مثله.

وإذا مر بأطيار على أشجار دنا منها مفتوناً ومتذكراً الحبيبة بفتنتها وأنشد أشعار الهوى
والغرام، وإذا هتفت ورقاء على فنن بكى بكاء الوليد، وقد ينفس على الحمام طمأنينتها مع
اضطرابه ويعقد بينه وبينها ألواناً من المقابلة الطريفة الدالة على شدة الفناء في الطبيعة.

ومن هذا تشبيه قلبه ليلة الرحيل بقطاة وقعت في الشرك معلقة الجناح يبكيها فرخاها
القائمان بقفر يمينان النفس بمرآها ويتخيـلان عصف الرياح إيذاناً بقدمها، وأشد دلالة على
معنى الفناء في الطبيعة تمنيه أن يكون هو والحبيب غزالين يرتعان في الرياض أو طائرين يـحلقان
نهاراً في الجو، ثم يأويان مساء إلى وكرهما أو حوتين يسبحان معاً في البحر.

والوليد بن يزيد - وقد كان يسير مع نفسه على سحبتها غير حافل بأعباء الإمارة والملك
ولا مقيد نفسه بأي قيد، يدل المأثور من شعره وهو قليل على نزعة متشابهة لنزعة المجنون:
ومن شعره الدال على الاتصال النفسي بالطير عن طريق الحب قوله:

خبروني أن سلمى	خرجت يوم الصلى
فإذا طير مليح	فوق غصن يتفلى
قلت: من يعرف سلمى	قال: هائم تعلّى
قلت: يا طير ادن مني	قال: هائم تدلّى

قلت هل أبصرت سلمى قال: لا! ثم تولى
فنكأ في القلب كُلمًا باطنًا ثم تعلى
وقد تحدث كذلك عن العصافير وتبشيرها بالصباح.

إن الأحداث السياسية هي التي قسمت الشعر على هذا النحو: غزل في الحجاز مشتهر في
الحضر، وعفيف في البادية، وشعر سياسي عند الخوارج والشيعة، ومدح تقليدي عند شعراء
الأقاليم، ذلك بأن الحجاز قد سلب السلطان حين صارت العاصمة الإسلامية دمشق الشام،
بل أصبح مأوى للثائرين من بني هاشم والزبيريين والأنصار.

وبهذا عاد إلى خمول الذكر وذهبت شهرته ولم يبق له سوى موسم الحج، وانقلب سكان
الحجاز ونجد إلى حياتهم المحدودة، وانصرفوا عن السياسة والجيش، طبيعي ألا يصطنع المدح
ولا الهجاء، فالمدح مصدره الاتصال بالحكم والهجاء الذي ينال من الناس ولا يحميه الخليفة
يؤاخذ به صاحبه، أما إذا اتصل بالخليفة نفسه فالويل للشاعر الذي لا يستطيع النجاة من
سلطان الخليفة بعد أن دانت له شبه الجزيرة، بل بلاد فارس وممتلكات الروم، والويل للحجاز
إن همى هذا الشعر الثائر!

اصطنع أهل الحجاز الغزل الجاهلي الذي بلغ ذروته عند الأعشى الشاعر المغني، وشاع
عندهم شيوعاً حتى أصبح ينشد في البيوت، وخاصة في بيوت المشهورات من النساء مثل
سكينة بنت الحسين، بل كان ينشد في مسجد رسول الله كما كان النساء يجلسن في المسجد
الحرام يوازن بين شعر كثير وجميل ونصيب.

أما أهل البادية فقد اصطنعوا الغزل الشعبي الملائم لبيئتهم، والذي لا يزال له نظير في تلك
البيئات حتى اليوم.

وكان الفريقان مقلدين لم يخرجوا على الأصول القديمة، وكان جهودهما في شعر الطبيعة على
أتمه، أما الذين ثاروا وهيؤوا أنفسهم لحمل أعباء الثورة، وهم الخوارج والشيعة فقد شردوا ولم
يكن لهم في شعر الطبيعة نصيب، وأما المداحون فقد جمدوا في التقليد، وكان لكل ذلك أسبابه:

١ - أحيا الخلفاء الأمويون وخاصة من بعد معاوية النزاع القبلي، فكان الخليفة يصطنع
القبائل التي تناصره، ويستبد بالقبائل التي تعاديه.

٢- وثارت بين القبائل فتن، وانبعث الماضي بكل ما فيه من ألوان شعرية وخصومات وفخر بالأيام والمواقع، ويتمثل هذا النزاع القبلي، وبعثه بعثاً ضارباً عنيفاً، في قول الأخطل يمدح عبد الملك بن مروان، ويهجو قيساً وبني كلب ويحرض عليهما:

بنبي أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم أمنأ زفر
إن الضعينة تلقاها وإن قدمت كالغريكم من حيناً ثم ينتشر
وهي أبيات طويلة منها:

فلا هدى الله قيساً من ضاللتها ولا لعاً لبني ذكوان إذ عثروا
ولم يزل بسليم أمر جاهلها حتى تعايا بها الإيراد والصدر
أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر
أرأيت جاهلية أمعن من أن يستمع أمير المؤمنين إلى شاعر نصراني ينال من القبائل الإسلامية ويمن على الخليفة بنصر تغلب له؟ إن هذا قد يبدو نابياً، وقد أدى ببعض المتعصبين إلى الطعن على دين بني أمية، لكن الحقائق الأدبية لا توزن بميزان غيرها وفي سبيل الفتنة الأدبية وفي سبيل السياسة يستساغ الكثير، وقد أنكر هذا أحد المسلمين المعاصرين للشاعر وقال لعمر وبن العلاء: يا عجباً للأخطل نصراني كافر يهجو المسلمين، لكن الإحياء للعصبية الجاهلية كان من الواضح بحيث استحق عجب عمرو من هذا العجب فأجابه: يا لكع لقد كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن.

٣- إحياء الخلفاء الأمويين للعصبية الجاهلية والأدب الجاهلي إحياء لا يأهون في سبيل هذا الإحياء لشيء ويجيون وسط الحضارة بعقول بدوية، وقد أغدقوا على شعراء المدح أنواعاً من النعيم بالغة، واتخذ كل خليفة شاعراً مختاراً كما أغدق واتخذ الحكام في الجاهلية، بل أشد مما فعلوا.

وترتب على فتنهم بالحياة الجاهلية وأدبها الفتنة بشعراء الجاهلية وبأوصافها الطبيعية.

٤- الخلفاء يشغلون مجالسهم بحديث المفاضلة بين الجاهليين، ويطلبون إلى الشعراء الحياة البدوية بإبلها وصفاً مفصلاً ويطلبون للشعر الجاهلي كل الطرب.

٥- كانت الناس على دين ملوكهم تطرب للشعر الجاهلي وتشغل نفسها بالمفاضلة بين شعراء الجاهلية، كما كان الوقوف بالأطلال وبكاء الدمن ووصف الرحيل والإبل وما إليها يستهويهم، ويفضلون الشعراء الذين يتبعون الطريق الجاهلي ويعنون بهذه الألوان.

٦- كان للرواة حلقات يأوي إليها الناس ليسمعوا من الشعر، وكان الخلفاء يجيزونهم على روايتهم كما يجيزون الشعراء، بل أعظم مما يجيزونهم.

ولم لا يفعل الخلفاء والناس ذلك والشعراء يحتذون القدماء ويجمدون عند أمثلتهم أليس الأصل أحق بالتقدير من الفرع.

الباب الثالث

الفصل الثاني

سمات الشعر في العصر الأموي

تتمثل سمات الشعر في هذا العصر على الأحكام العامة المختصة بالشعر في شكله وأهدافه وأساليبه وأغراضه، وقد اتسم هذا الشعر بالسمات الآتية:

١- الذاتية: ونعني بهذه السمة الأهواء والآراء الخاصة والمشاعر الذاتية التي تترجم الأفراح والأتراح التي عاشها الشاعر، وقد بدأ الشعر في هذا العصر معبراً عن ذات الفرد بسبب عودة النظام القبلي وبسبب القهر الذي عاشه الناس بعد انتقال السلطة إلى الأمويين، فانكب كل شاعر يتحدث عن همومه الخاصة ومشاعره الذاتية كما عند جميل الذي يقول:

يقولون جاهديا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتييل بينهن شهيد
ولم يخرج معظم الشعراء عن هذه الذاتية التي عبروا عنها بألفاظ جزلة أحياناً وغريبة أحياناً أخرى، وفخمة من جهة ثالثة.

٢- التعبير الجمالي: إذ بقي الشعر مهتماً بالتعبير البليغة ومعتمداً على قوة الشاعرية ومرتسماً طريقة القدماء في تحكيك الشعر وتنقيحه والاعتناء به لفظاً ومعنى على الطريقة الأوسية، كما عند كعب بن زهير والحطيئة والأخطل والفرزدق وجريز.

٣- القوة والاتساع المكاني: وقد حافظ شعراء العصر الأموي على قوة النص الأدبي على الرغم من اتساع الرقعة المكانية له بحيث امتدت خارج الجزيرة العربية إلى الشام ومصر وخوزستان ولم يضعف الشعر كما يزعم المستشرقون والباحثون، بل رق.

٤- الثنائية: التي تمثلت في شعر المدن والبادية، وثنائية معارك شعراء الأمويين ثنائية الغزل الحسي والعذري، وما يتميز به من سمات في كل منها وثنائية السهولة والغرابة كما في شعر جرير والفرزدق، وثنائية استخدام القصيد من جهة والرجز من جهة.

ومن ثنائيات الغزل قول جميل بن معمر:

وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا عادت النفس تتلف
تسوّف ديني وهي ذات يسارة فحتى متى دّيني لديها يسوّف
بينما يقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واسبتدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

٥- التعمق والتخصص: وقد جاءت هذه الخصيصة من اختلاف ثقافة الشاعر عما كانت عليه ومن انتشار الأحزاب السياسية، فكانت القصائد الهاشمية والأموية والخارجية، كلٌّ بحسب معتقده وفكره إضافة إلى أن شعراء آخرين تخصصوا في موضوعات معينة، كتخصص ابن ربيعة بالغزل وذو الرمة بالوصف والخوارج بالسياسة الخاصة بالملك، وكذلك جعل الشعر يستمر في نموه وارتقائه.

الباب الثالث

الفصل الثالث

أغراض الشعر في العصر الأموي

نظراً لتغيُّر القيم الاجتماعية والإنسانية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي عمّا كانت عليه، ونظراً لاستمرار قسم من هذه القيم فقد استمر الشعراء في الحديث عن أغراض متنوعة منها ما هو تقليدي، ومنها ما هو مستحدث تبعاً لمدى التأثير الذي طرأ على شخصية الشاعر، وأهم الأغراض التي كتب بها الشعراء في هذا العصر:

١- **الفخر والحماسة**: نقصد بالحماسة التعبير عن عمق الشجاعة والجرأة لدى الشاعر، ونقصد بالفخر ذكر الصفات التي يتمايز بها الناس ضمن أعراف معينة، وقد اتجه الفخر عند شعراء العصر الأموي اتجاهاً تشرب بروح الإسلام وترك وراءه الولاء القبلي، ولم يعد يفتخر بالعصبية القبلية، بل ركز على معان جديدة للفخر تتمثل في:

١ - الحرص على نيل الشهادة.

٢ - الفخر بانتصار المؤمنين.

بالإضافة إلى القيم التي أبقى عليها الإسلام والتي جاء الرسول عليه السلام متمماً لها: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) افتخر الشعراء بقيم الجاهلية مثل إكرام الضيف والعفة والشجاعة... وغيرها.

يقول بهس بن صهيب مفتخراً باستقبال الضيوف:

ما ينبح الكلب ضيفي قد أسبّ إذا ولا أقول لأهلي أطفئوا النارا

من خشية أن يراها جائع صرد إني أخاف عقاب الله والنارا

ويقول أبو الأسود الدؤلي مترفعاً عن الجهل:

وإني ليشنني عن الجهل والخنأ وعن شتم ذي القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وبقيا وأنني كريم ومثلي قد يضرّ وينفع
وهناك اتجاه عاد إلى التفاخر بالأباء في الجاهلية بعد أن أعاد الأمويون نزعات القيسية
واليمانية، يقول الطّرمّاح بن حكيم مفتخراً بقومه الأسد واليمانية:

لنا من مجازي طيّئ كلّ معقل عزيز إذا دار الأذلين حلّت
لنا نسوة لم يجرفيهن مقسم إذا ما العذارى بالرماح استحلّت
إلى أن يمدح قومه قائلاً:

بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى عقد الإسلام حتى استمرت
وهذا أبو محجن الثقفي يفخر بكرم السيوف، وإسباغ الدروع وبوقائع عشيرته في
القادسية:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأننا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
أما الخوارج فقد تنكروا للعصبة القبلية وللتفاخر بالأنساب وأن لا شرف للمرء إلا
بتقواه:

أبي الإسلام لا أبي سيواه إذا هتفوا بيكر أو تميم
دعيّ القوم ينصر مدعيه فيلحقه بندي النسب الصميم
وما كرم ولو شرفت جدود ولكنّ التقى أخو الكريّم

٢ . المديح: جاء الإسلام لينفي وليبعد صفة التكسب عن الشعراء من خلال قول الرسول
عليه الصلاة السلام (احثوا في وجوه المادحين التراب)، ولكن المدح عاد إلى ما كان عليه في
العصر الأموي، فقد اتجه هذا المدح إلى الخلفاء والولاة والأمراء وأخفى الشعراء على
مدحهم صفات التقى والورع وحماية المسلمين والذود عن حراماتهم، وإن بقي المدح أحياناً
يشرّب إلى صفات المدح عند الجاهليين، يقول الأخطل مادحاً بني أمية:

حشد على الحقّ عيافو الخنى أنف إذا أملت بهم مكروهة صبروا

أعطاهم الله جِداً ينصرون به لا جدّاً إلا صغير بعد محتقر
و تقول ليلي الأخيلية مادحة الحجاج:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبّع أقصى دائها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزّ القنّاة سقاها
و قد استنكر عمران بن حطّان المدح التكسبي قائلاً:

أيها المادح العابد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمّي البخيل باسم الجواد

٣ - الهجاء: غض الأمويون الطرف عن هجاء من خالف سياستهم، بل شجعوا هذا الفن بصورته القبلية الذي فرّخ لنا فن النقائض والذي هو من أشبع صور الهجاء العربي، فهذا هو يزيد بن معاوية يشجع الأخطل التغلبي على هجاء الأنصار وأمنه من غضب والده معاوية:

خلو المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم من النجار
ذهبت قريش بالمكارم كلّها واللؤم تحت عمائم الأنصار
وهكذا عادت العصبية القبلية، وما تحمله من هجاء قبلي مثله الطرماح بن الحكيم الطائي
عندما هجا بني تميم قوم الفرزدق بعد أن خضعت هذه القبيلة ليزيد بن المهلب:

أقرت تميم لابن دحمة حكمه وكانت إذا سببت هوانا أمرت
أفخرأ تميمأ إذا فتنة خبت ولؤماً إذا ما المشرفية سلّت
ولو خرج الدجال ينشدُ ذمّةً لزافت تميم حوله واحزألت
لعمري لقد سارت سجاح بقومها يكرُّ على صَفِّي تميمٍ لوَلّت
كما أن الهجاء بين الأحزاب السياسية استعرت ناره وتحول إلى نقاش سياسي.

٤ - فن النقائض: النقيضة في الشعر هي قصيدة يقولها شاعر من الشعراء في هجاء شاعر آخر مع قومه، فيرد الشاعر الثاني بنقيضة أخرى تظهر مخازي الأول وقومه، تكون على الروي

نفسه والقافية ذاتها، وإن اختلفت بعض الحركات والقوافي أحياناً، وموضوعها الشتم والسباب والقذف وعدم مراعاة الحرم والأعراف، وقد كانت النقائض استمراراً لما حدث في العصر الجاهلي من مناقضات، كما حصل بين حسان والزبعرى، عندما ذكر ابن الزبعرى أخت حسان بن ثابت (عمرة) وقد نشأ هذا الفن وتطور في العصر الأموي بفعل عوامل اجتماعية وسياسية وعقلية.

١ - أما العوامل الاجتماعية فتنتقل من الفراغ الداخلي الذي أحدثه الأمويون في نفوس الناس، فمالوا إلى الفراغ.

٢ - أما العوامل العقلية فتتمثل في نمو العقل العربي ونمو الجدل والمناظرة في العقائد والتشريع وأحقية الخلافة.

٣ - وأما العوامل السياسية فتتمثل في محاولة الأمويين صرف الناس عن أمور الحكم وإشغال بعضهم ببعض.

لقد كانت النقائض في العصر الأموي استمراراً للهجاء القبلي في الجاهلية، وكان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين فينتصر شاعر لقومه أو أحلاف قومه، فيرد عليه شاعر من هؤلاء، فيعود الأول إلى الرد عليه، ثم يلتحم الهجاء ويستطير، ولقد أذكى هذه النزعة في الشعراء قيام الأحزاب وتقرب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومها تكسباً للمال.

ولقد دلت النقائض على أن الحمية الجاهلية ظلت ذات أثر في النفوس حتى بعد أن انتشر الإسلام، إلا أن شعراء النقائض لم ينسوا، في غمرة نزاعهم القبلي المحلي، إن يشيدوا بعظمة العرب وأن يшиروا إلى اتساع الفتوح الإسلامية، وخصوصاً في المشرق: في فارس والهند والصين، ولعل مجموع الشعر الأموي يدلنا على أن البداوة ظلت غالبية على المجتمع الأموي، وأن الشعر الأموي مملوء بالمفاخر الجاهلية والبدوية كالفخر بالأنساب وبأيام العرب (ومعاركهم الجاهلية) وبالكلام على الثأر، وظل شعراء المناقضات حتى أواخر العصر الأموي يعدون الحياة الحضرية في باب المعاييب العربية، فالأخطل قد هجا الأنصار؛ لأنهم زراعون، وجرير ظل إلى آخر حياته يهجو مجاشع؛ لأنهم قيون (حدادون)، ذلك لأن القيانة (الحدادة) وسائر الصناعات إنما كان يقوم بها العبيد في العصر الجاهلي.

ولكن الشعر الأموي امتلاً أيضاً بالألفاظ الإسلامية والآراء الإسلامية، وذكر جرير والفرزدق وغيرهم الصلاة والحج في شعرها واقتباسهم كلهم من القرآن الكريم ظاهر. وللقائض قيمة لغوية لا شك في ذلك، فشعراء المناقضات قد حفظوا اللغة العربية صافية كما كانت في الجاهلية، فالألفاظ التي حفظت لنا، في النقائض كانت كثيرة، وكان أكثرها غريباً متصلاً بالمعاني الجاهلية القديمة، بل لعل قسماً من ألفاظ النقائض كانت أكثر غرابة من ألفاظ المعلقات.

وكانت النقائض تقليداً واضحاً للمعلقات خاصة: تقليداً في شكل القصيدة وفي كثرة أغراضها وطول نفسها، وفي كثير من خصائصها الأخرى كالفخر بالأنساب والهجاء القبلي والنسب في مطالع القصائد وكالغزل البدوي، عفيفاً وصریحاً.

ومع أننا لا نعجب بالنقائض من الناحية الخلقية والاجتماعية، فإننا لا ننكر إن شعراء المناقضات قد أضافوا إلى الشعر العربي فناً جديداً هو فن الشعر السياسي، أو أنهم على الأصح قد وسعوا هذا الفن، الذي ظهرت طلائعه منذ الجاهلية عند النابغة خاصة، توسيعاً جعله فناً جديداً، والنقائض قد قامت على ((التكسب)) بخلاف أكثر الشعر الجاهلي، إن شعراء النقائض عموماً لم يميلوا إلى حزب دون حزب بدافع المبدأ والعقيدة، بل مالوا إلى كل حزب كان يفيض عليهم بالعطايا.

وقد كان السبب المباشر في ظهور هذه النقائض أن شاعراً يربوعياً هجا جريراً فانقض عليه جرير بالهجاء فاستغاث اليربوعي بالبعيث المجاشعي فأغاثه فهجا جريراً، فانصب جرير على مجاشع وأفحش بذكر النساء فاستغاثت نساء مجاشع بالفرزدق فهجا جريراً، وهكذا تكاملت حلقة المناظرة، وأصبح هذا الفن الذي دام خمسين عاماً من أقبح فنون الشعر العربي بحيث أبرز هذا الفن مدى التراجع الذي حل بالشعر العربي بعد مرور خمسين عاماً على دعوة الرسول عليه السلام، يقول الفرزدق مفتخراً بشرفه وأصله وعزة بيته:

إن الذي سمك السماء بنى لنا	بيتاً دعائمه أعز وأطول
بيتاً بناه المليك وما بنى	حكم السماء فإنه لا ينقل
بيتاً زراً محتب بفنائمه	ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وقد أجابه جرير قائلاً:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
إني بنى لي في المكارم أولي ونفخت كيرك في الزمان الأول
ومن المناقضات التي انتشرت في ذلك العصر ما قاله الفرزدق معتداً بعقول قومه الراجحة
في أيام السلم وشجاعتهم في أيام الحرب:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنأً إذا ما نجهل
وقد نقض جرير ذلك في قصيدة:

أبلغ بنبي وقبان أن حلومهم حقت فما يزنون حبة خردل
وقد كان الفرزدق هجاءً مقدعاً يجاهر بما لا يحلّ من النساء في هجائه ما يعف عن
ذكره كما حصل معه في المدينة المنورة من ذلك:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فردّ جرير متهكماً وساخرأً:

تدليت تزي من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلا والمكارم
ويقال: إن الأخطل التغلبي قد حكم للفرزدق بالسبق على جرير بعد أن أغراه بشر بن
مروان والي العراق بأن ينحاز إلى الفرزدق بعد أن حكم بالسبق لجرير.

يقول الأخطل:

اخساً إليك كليب إن مجاشعا وأبا الفوارس نهشلاً أخوان
وإذا سمعت بدارم قد أقبلوا فاهرب إليك مخافة الطوفان
فيرد عليه جرير:

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
تدعو الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بنسي شيبان

٥- فن الرثاء؛ وهو فن استمر في العصر الأموي على ما كان معروفاً عند الجاهليين، فندبوا وعزّوا أحياءهم وإن تغيرت مناقب التآبين وتبدلت شائئها فأصبح المرثي يتصف بالتقوى والإيمان والخير والبر والرحمة والهداية والطهر.

وقد يتناول الرثاء زوجة محببة لدى الشاعر تمنعه العادات أن يزور قبرها فيقول:

لولا الحياء لهاجني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلبي إذ علنتني كبرة وذوو التمام من بنيك صغار
صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
أما رثاء الخوارج فيصف مناقب العباد من قيام الليل وصيام النهار، يقول عمر بن الحصين رثياً عبد الله بن يحيى وأبا حمزة الخارجي:

كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من أي القران مفرع الصدر

٦- قصائد الانتصارات؛ نظراً لكثرة الغزوات والحروب الداخلية والخارجية التي خاضها العرب بعد الإسلام، فقد كتب الشعراء الذين خاضوا تلك المعارك قصائد تمثل الانتصارات.

٧- شعر الشكوى؛ عبر الشعراء في العصر الأموي عن التظلم واليأس من سوء العلاقات الاجتماعية وتوزيع الأموال والمناصب السياسية، فقد أخذ بالتحول البطيء باتجاه التخلي عن القيم الإيجابية التي كان الإسلام قد بدأ بغرسها في نفوس الناس.

وهذا هو الراعي النجدي يتوجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان منشداً إياه شكواه الشعرية من جباة الضرائب الذين جلدوا قومهم بالسياط لعجزهم عن دفع الضرائب:

أخليفة الرحمن إنما معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
إن السعاة عصوك يوم دعوتهم وأتوا دواهي لو علمت ونحولا

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالأصبحية قائماً مغلولاً
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتبلا
وهذا الشاعر كعب الأشقري يستغيث بعمر بن عبد العزيز متظلماً من عماله:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذي تدعوله حتى تجلّد بالسيوف رقاب
٨ - الغزل: لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمّين من
مراكز الشعر، وحتى تتحضرا تحضراً واسعاً، وتغرقا إلى آذانها في الرقة والنعيم، بتأثير ما صب
فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي، وأخذ هذا الرقيق يسد حاجة الشباب المتعطّل من
اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقا، وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقا
موجة واسعة من المرح، ورقية الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل
فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوئ الناس من رجال ونساء، وبذلك
كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر، فقلما نجد فيها مديحاً أو هجاء، إنما
نجد الغزل يشيع على كل لسان.

وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً، إذ أصبحت كثرته مقطوعات
قصيرة، وعدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرمل السريع والخفيف والمتقارب
والهزج والوافر، وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره، فقد دفع
الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة، حتى يرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع
المتحضر الذي يخاطبونه.

وكانت هذه أول دفعة قوية نحو العربي، وهو احتجاج بالكلمة والسلاح، غير أنها تتخذ
طابعاً جماهيرياً واسعاً ومنظماً ليكتب لها النصر، وهي مع ما حملته من أمل في تحرير الإنسان من
الظلم لم تخل من مواقف سلبية تجلت في كره شعرائها للمجتمع وانعزالهم عنه، وحقدهم على
الناس، والتماسهم حلولاً غير مجدية في حل مشكلتهم الاجتماعية، تصفية الشعر العربي من
ألفاظه البدوية الجافية، ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته

الموسيقية والأسلوبية فحسب، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاء على الإطلال، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبتها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء، وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية، فكانت تلقي الرجال وتحادثهم، وكانت، شأن المرأة في كل عصر، تعجب بمن يصف جماها وتعلق القلوب بها، وكان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر الغزل.

وأخذ الشعراء يخضعون ملكاتهم وعواطفهم له، ومنهم من لا يتحفظ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحجوباته، وهم الجمهور الأكثر، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب، وهم جميعاً يلقون من حولها شباك الإغراء، وبلغ من تيه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاككة عليه تتضرع إليه وتستعطفه.

أولاً: أسباب ازدهار الغزل في العصر الأموي:

أ - الأثر الإسلامي: الذي أحدث تغييراً كبيراً في حياة الإنسانية بشكل عام والعرب بشكل خاص، وذلك من خلال النصوص القرآنية التي تدعو إلى رفعة حياة المرأة، ودعوة الرجل أن يترفق بها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ١٩]. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: ٢١]. فقد أحكم الإسلام الرابطة بين الرجل والمرأة عن طريق المودة والتعاطف، وكان أثره في الحياة الروحية والعاطفية من خلال عاطفة الحب الفطرية التي سماها وأسبغ عليها ثوباً من العفة؛ ما دفع الكثير من الشعراء في نجد والحجاز على إخصاب معاني الغزل ودفع بعضهم على ترويض نفسه لاحتمال الصبر على كرب الحب، حتى اعتبروا أن حبهم قدر من الله تعالى ليس لهم أن يقفوا في وجهه.

فقلت له فيما قضى الله ما ترى عليّ وهل فيما قضى الله من ردّ

ب - الغناء الذي انتشر في الحواضر الإسلامية؛ بسبب تدفق الموالي والأرقاء على الحواضر وانتشر الكثير من المغنين الذين لا حاجة لذكر أسمائهم، وهذا ما يفسر نزوع شعراء الغزل في هذه الحواضر إلى الغزل الماجن على نقيض شعراء البادية.

ج - الفراع؛ الذي نشأ قيام الدولة الإسلامية بالقضاء على المنازعات القبلية وعصبياتها والفخر القبلي والهجاء القبلي ومنع شعراء نجد والحجاز من المشاركة بالأحداث السياسية.

د - الثراء؛ الذي تدفق عن طريق الفتوح الإسلامية وما أفاءته على المسلمين من غنائم، وما أغدقه بنو أمية من مال على أشرف مكة المكرمة والمدينة المنورة والقبائل النجدية والحجازية، وكذلك المال الذي جاء عن طريق التجارة بين الشام واليمن، وهذا ما جعل الناس ينغمسون في اللهو.

هـ - تطور المجتمع الحجازي؛ بسبب اختلاط الأعاجم بالعرب وظهور نزعتين اجتماعيتين هما:

١ - نزعة زاهدة

٢ - نزعة لاهية

حتى أن بعض الزهاد قالوا الغزل نازعين فيه إلى العفة.

ومحاكاة الشعراء بعضهم في قول الغزل مع خلوهم من تجارب عشق حقيقية، حتى قيل: إن كثير عزة كان مدعياً ولم يكن عاشقاً، وكما في تقليد الشعراء لمجنون ليلي في ادعاء الجنون في الحب.

ثانياً: أنواع الغزل في العصر الأموي؛

شاع في العصر الأموي ثلاثة أنواع من الغزل (العفيف العذري)، (الصريح العمري)، (التقليدي النسب).

١- الغزل العذري؛

آ- تعريف الغزل العذري؛ وينسب إلى قبيلة عذرة القضاعية اليمنية التي كانت تنزل وادي القرى شمال الحجاز والتي كان أبناؤها مشهورين بهذا النوع من الغزل، وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، أن الجمال والعشق في عذرة كثير، وهو امتزاج للظاهرة البدوية مع العفة الإسلامية بحيث جعلت هذه الظاهرة منزهة عن الدوافع الجسدية، وهو يختلف عن الحب الأفلاطوني الذي يقوم على النظرة الفلسفية، كما يختلف عن الحب الصوفي

الذي يتجه فيه المحب إلى الذات الإلهية، وقد رأى الباحثون أن هذا الحب تجسيد لعقدة المازوخية القائمة على التلذذ بالألم والعذاب، وإن كان البعض يروي أو يرى أن في هذا الحب سمواً من خلال سماته التي تتمثل بالعفة وتوقد العاطفة والديمومة والوحدانية والمعاناة والشكوى والخضوع المطلق لسلطان المحبوب، وتعني ملازمته والحرص على رضاه والقناعة به والإعراض عن أقوال العذال فيه، وإكبار المرأة من خلال وصف محاسنها القيمة لا الجسدية غزل نقي طاهر ممعن في النقاء والطهارة.

وقد نسب إلى بني عذرة إحدى قبائل قضاة التي كانت تنزل في وادي القرى شمالي الحجاز؛ لأن شعراءها أكثرها من التغني به ونظمه ويروى أن سائلاً سأل رجلاً من هذه القبيلة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، ويروى أيضاً أن سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عفرأ: أصحيح ما يروي عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً؟ فأجابه: نعم، والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب، ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عذرة وحدها، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز، وخاصة بين بني عامر، حتى أصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير.

ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس وبرأها من كل إثم، وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يطوى فيها من هو وعبث، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز، فقد كانت تعصمها بدواتها وتدينها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب، وإنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يصيب المحب بناره ويستقر بين أحشائه، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه.

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف، فالشاعر لا يني يتغنى بمعشوقته، متذلاً متضرعاً متوسلاً، فهي ملاكه الساوي، وكأنها فعلاً وراء السحب، وهو لا يزال يناجيهما مناجاة شجية، يصور فيها وجده الذي ليس بعده وجد وعذابه الذي لا يشبهه عذاب، وتمضي الأعوام لا ينساها، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه، وقد يصبح

كهلأً أو يصير إلى الشيخوخة، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان، حتى ليظل يغشى عليه، بل حتى ليجن أحياناً جنوناً إذا كان الشاعر الجاهلي يعيش متمثلاً الفروسية والمرأة فإن الشاعر في العصر الأموي قد عايش مبدأً جديداً رفع من شأن المرأة وبوأها مكانة مرموقة لأسباب كثيرة؛ ذلك أن الشعر الغزلي قد تطور في هذا العصر لأسباب عدة:

يقول جميل بثينة:

لا والذي تسجد الجباه له مالي بما دون ثوبها خبير
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر
ويقول كثير عزة:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكل سبيل
ويقول جميل بثينة:

لقد فضلت حسناً على الناس مثلها على ألف شهر فضلت ليلة القدر
ويقول ابن حزام:

وإني لأهوى الحشر إذا قيل إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان
فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متناضماً كفنان
ويقول جميل بثينة:

وماذا دها الواشون إلا كرامة عليّ وما زالت مودتها عندي
ب - سمات الغزل العذري:

إذ كان الغزل العذري صدى للخيبة والإخفاق في الوصول إلى المحب وصدى للمعاناة الصادقة في هذا الحب، فإن الشعر قد تلون بالحزن واليأس الذي صفاه الشعور الديني ومازجه ضرب من الإذعان لقضاء الله تعالى، فإنه اتسم بـ:

١ - العفة: التي تمنع الشاعر العذري أن يتحدث عن فتاة شائنة أو عن أمور تخدش الحياء أو تلوث الطهر الأنوثي، حسب الشاعر أن يكون قريباً ممن يجب يحدثه وينظر إليه فقط.

يقول جميل بن معمر:

لا والذي تسجد الجباه له مالي بدون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر
٢ . توقد العاطفة: بسبب الهوى المشوب المتوقد دون فتور على مر الأيام، يقول جميل
بن معمر:

وهل هكذا يلقي المحبون مثلها لقيت بها أم لم يجد أحد مثلي
٣ . الديمومة: لكون هذا الحب شعلة دائمة التوقد فهو لا يسلو حبيبته ولا يعرض عنها،
يقول كثير عزة:

أريد لأنسى ذكرها فكأنها تمثل لي ليل بكل سبيل
٤ . الوحدةانية في الحب: لأن الشاعر العذري يقف فؤاده على امرأة واحدة لا يجب
سواها، يقول قيس بن ذريح:

فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمعي بعدها كل منظر
٥ . المعاناة والشكوى المتصلة: إذ لا يتذوق الشاعر العذري طعم الراحة لما يعانيه من
عذاب حبه اليأس، فإذا هجره المحبوب ضاقت به الدنيا وتحولت حياته إلى جحيم مستعر،
يقول المجنون:

فواكبداً من حب من لا يحبني ومن زفرات ما هـن فناء
٦ . الخضوع المطلق لسلطان المحبوب: بحيث يدعن الشاعر العذري هوى محبوبته دون
تذمر فهي كالسحر لا يستطيع منه فكاكاً، يقول مجنون ليلي:

هي السحر إلا أن للسحر رقية وإني لا ألفي لها الدهر راقيا
٧ . تمنى ملازمة المحبوب: طيلة الدهر وحتى بعد المات، يقول ابن حزام:

وإني لأهوى الحشر إذ قيل إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان
فإليت محياناً جميعاً وليتنا إذا نحن متناضماً كفنان

٨. القناعة في الحب؛ فهو لا يرجو من محبوبته سوى النظر والحديث والأمانى والنظرة العابرة، يقول جميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبالأأساطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي أوآخره ما نلتقي وأوائله
٩. الحرص على رضا المحبوب؛ فهو لا يرجو سوى رضا محبوبته بحيث يقدم في سبيل ذلك أي أمر يطلب منه، يقول جميل:

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغي يميني ولو عزت عليّ يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها وقلت لها بعد اليمين سليني
١٠. الإعراض عن قول العذال؛ فهو يسخر من عاذليه ومن أقوال الوشاة ولوم اللائمين ونصائحهم التي لا تزيده إلا تعلقاً بمن يحب

وما زادها الواشون إلا كرامة عليّ وما زالت مودتها عندي
١١. وصف محاسن المحب؛ بما يلائم الهوى العفيف من القدود والعيون:
مفلجة الأنياب لو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر
١٢. إكبار المرأة؛ لأن الشاعر العذري لا يرى في المرأة وسيلة لتحقيق المتع الحسية، فهي شطر من روحه لا يعيش دونها.

١٣. التأثر بالمعاني الإسلامية والقرآنية؛ في إثراء الجانب الفكري كجعل جميل فضل بثينة على النساء كفضل ليلة القدر على سائر الليالي:

لقد فضلت حسناً على الناس مثلها على ألف شهر فضلت ليلة القدر
ج. الخصائص الفنية للشعر العذري:
١ - تشابه أساليب الشعراء.
٢ - تشابه معاني الشعراء.

- ٣- عدم اتضاح شخصية فنية متميزة للشاعر.
- ٤- بروز الشعر العذري كتيار سائد في الحجاز.
- ٥- محاكاة كل شاعر لمن سبقوه في هذا الفن.
- ٦- الإغارة على معاني الغير.
- ٧- الإغارة على أساليب الغير.
- ٨- جريان شعرهم على الطبع.
- ٩- إثارة السهولة والبساطة.
- ١٠- لا تأتق ولا تنقيح للشعر.
- ١١- تصوير المواجه بأقرب لفظ وأيسر عبارة.
- ١٢- مجانبة الألفاظ الغريبة المستكرهه.
- ١٣- مراعاة الرقة والعذوبة.
- ١٤- توفير القيم الموسيقية للشعر.
- ١٥- الحرص على الصراحة.
- ١٦- صدق التصوير.
- ١٧- بروز الطابع البدوي في الشعر.
- ١٨- سذاجة المعاني وعفويتها.
- ١٩- التجديد في المعاني الغزلية.
- ٢٠- الوحدة العضوية للنص الغزلي.
- ٢١- جاء بناء القصيدة أشد تماسكاً وتلاحماً.
- ٢٢- بروز صدى القرآن الكريم:
 - أ- في معاني القصائد.
 - ب- وتهذيب الألفاظ.
 - ج- وإثراء الصور.
 - د- وطرق الأداء.

٢- الغزل الصريح ((العمري)):

نظراً لاعتماد الأمويين سياسة صرف الناس عن الخلافة فقد أغدقوا على أبناء الحجاز الأموال وأعادوا خارطة العصبة القبلية إلى واقع الجزيرة، فاتجه قسم كبير من أبناء الحجاز إلى اللهو والترف والتألق في المأكل والملبس والمسكن، فانتشر الغناء وكثرت المغنيات وغلب على قسم كبير من شعراء مكة والمدينة الغزل الصريح الذي يتحسس جمال المرأة جسدياً، ولكنه على رأي الأدباء بقي أسير دوافع جمالية لا دوافع جنسية، إذ إن كثيراً من هؤلاء الشعراء يجدون متعة في مجالسة النساء والتحدث إليهن، ولا يتعدون ذلك وإن كان ذلك محرماً شرعاً، وقد اتسم هذا الغزل الصريح بسماتٍ متمثلة بالصراحة في وصف علاقة الشاعر بفتاته وتصوير محاسنها، ووصف معاناته بعاطفة سطحية سريعة الانطفاء، ذلك أن هؤلاء الشعراء تعلقوا بأكثر من امرأة واحدة، إضافة إلى نزعة الاستعلاء التي تستحوذ على نفوسهم، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة في محاسن محبوبته:

غادة تفر عن أشنبها حين تجلوه أقحاح أو برد
ولها عينان في طرفيهما حورٌ منها وفي الجيد غيد
وأيضاً قوله:

ثم قالت للتي معها لا تديمي نحووه النظرا
خالسيه يا أخت في خفر فوعيت القول إذ وقرا
إنه يا أخت يصر منا إن قضى من حاجة وطرا

وقد برز من شعراء هذا الاتجاه: عمر بن أبي ربيعة، عبد الله بن عمر العرجي، الحارث بن خالد المخزومي، أبو دهب الجمحي، عبد الله بن محمد الأنصاري.

أ- ماهيته: الغزل الصريح الذي كان يصدر عن شعراء الحواضر كعمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي لا يمثل عاطفة الحب بدلالاتها الدقيقة، فالحب إنما هو رباط عاطفي بين شخصين يرغب كل منهما في ملازمة صاحبه، ولا ينبغي عنه بديلاً، أما التعلق بعدد من النساء في آنٍ واحد فلا يصح أن يسمى حباً، وكذلك تلك العاطفة الآنية السريعة الذبول والانطفاء

ليست من الحب في شيء، فالحب يبني على التعلق بامرأة واحدة وعلى استمرار هذه العاطفة وصدقها نعم نحن لا نذهب إلى أن هذه العاطفة ينبغي أن تكون سرمدية لكي تستحق أن تسمى حباً، ولكن الاستمرار سمة أساسية من سمات الحب الصادق والتقلب العاطفي ليس من آيات هذا الحب.

فغزل عمر وإضرابه لم يكن إذن صدى بالمعنى الذي حددناه، وإنما كان صدى الغريزة الجنسية والشهوة والميل الفطري إلى الجنس الآخر، وكان هؤلاء الشعراء ينشدون لدى المرأة المتعة العابرة واللهو، ومن هنا كانت عواطفهم سرعان ما يدب إليها الملل والفتور بدافع الارتواء والإشباع فتنتفيج جذوتها، فلا يلبثون أن يتحولوا إلى امرأة أخرى خليقة بأن تعيد الحرارة إلى عواطفهم.

على أنه من الإنصاف أن نسجل هنا ملاحظتين:

الأولى: أن هؤلاء الشعراء لم تكن دوافعهم جنسية محضاً، وإنما كان إلى جانبها دوافع جمالية تعلق سعيهم وراء النساء، فالشاعر كان إذا وقعت عينه على نموذج للجمال الرائع فتن به، كما يفتن كل ذي حسّ جمالي بتمثال أبدع النحات في تصويره أو بلوحة من روائع الفن، ويؤكد هذا التعليق.

والثانية: أن ما ينشده هؤلاء الغزليون من النساء لم يكن دائماً المتعة الجنسية، وإنما كانوا يجدون كذلك متعة كبيرة من مجالسة النساء والتحدث إليهن، ويقنعون في غالب الأحيان بمتعة الحديث لا يتوخون شيئاً سواها، فإن كل ما يتصل بالمرأة كان يبعث فيهم اللذة والنشوة، وهم في هذا الجانب يقتربون من شعراء الغزل العذري الذين كانوا يجدون في مناجاة من أحبوا لذة أي لذة، ويصور هذه اللذة التي كان يجدها في مناجاة شعراء الغزل الصريح في محادثة النساء ما رواه أبو الفرج في الأغاني عن عمر فقد روي عنه قوله: لقيتني فتان مرة فقالت لي إحداهما: ادن مني يا ابن أبي ربيعة أسرُّ إليك شيئاً فدنوت منها وندت الأخرى فجعلت تعضني، فما شعرت بعض هذه من لذة تلك.

وقد بينا آنفاً أننا لا ينبغي أن نضع حدوداً صارمة بين غزل العذريين وغزل عمر وإضرابه، فما كان غزل الحضريين غزلاً إباحياً فاحشاً، على نحو ما نجد في الشعر العباسي، وما كانت

البيئة الحجازية ولا العصر الذي وجدوا فيه ليسمح بظهور ذلك اللون من الغزل الإباحي، وقد يتصور بعضهم أن هؤلاء الشعراء كانوا يطلقون العنان لشهواتهم لا يجد من جماعها رادع من دين أو خلق أو رقابة اجتماعية، وهذا التصوير يبين الحقيقة، ونحن نجد في أخبارهم ما يُنبئ بأخذهم بأسباب الحيلة والتوقي لتلا يتهموا بتحدي مجتمعتهم، كما كانت المبادئ الدينية والخلقية تفرض عليهم أحياناً كبح جماح شهواتهم على أنهم كانوا يحظون بقسط من الحرية في صلاتهم العاطفية أوفى من القسط الذي كان يحظى به شعراء البادية، ولكن هذه الحرية لها حدود تقف عندها، وهي تخضع لرقابة المجتمع الإسلامي في عصر قريب من عصر النبوة، وفي بيئة كانت إلى حين قريب مهد الرسالة المحمدية، ونحن نجد الأحوال على ما عرف به من فساد الخلق، يصرح بأنه لا يتحرش ولا يعرض في غزله لجاراته ولا لنساء خلاته، رعاية لواجب الصداقة ولما أمره الله به:

ثنتان لا أدنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب
 أما الخليل فلست فاجعه والجار أوصاني به ربي
 وأوجه الاختلاف الأصيلة بين هذين الضربين من الغزل إنما تتجلى في السمات التي نجدتها في كل منهما.

ب- سمات الغزل الصريح

١- الصراحة في وصف علاقة الشاعر بفتاته

لم يكن الشاعر الحضري يتحرج من وصف صلاته بالمرأة التي يهواها، ومن التصريح بما يعف الشاعر العذري عن ذكره، فقد كانت بيئته تتيح له من حرية القول ما لم تتيح مثله بيئة البادية للشاعر البدوي، على نحو ما نجد في قول عمر:

وناهدة الشدين قلت لها: اتكي
 فقالت: على اسم الله أمرك طاعة
 على الرمل من جبانة لم توسد
 فيما زلت في ليل طويل مثلما
 لذيذ رضاب المسك كالمشهد
 فلما دنا الإصباح قالت: فضحتني
 وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
 فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

ومع ذلك فإننا لا نجد في هذا الغزل تهتكاً وصوراً فاحشة كالتي نجدها في شعر المجان في العصر العباسي، وكثير من هذا الغزل ينحو نحو غزل جميل وأصحابه في جنوحه إلى العفة سواء في اللفظ أم في تصوير العواطف، فالصراحة التي تتحدث عنها صراحة نسبية بالقياس إلى تعفف أهل البادية.

وقد نحا عمر وأصحابه في تصوير صلاتهم بالنساء منحى قصصياً في كثير من قصائدهم، وهذا القصص يذكرنا بامرئ القيس في حديثه عن مغامراته وفي وصف تعرضه للنساء واتصاله بهن.

٢- وصف محاسن المحبوب

كان الشاعر العذري ربما وصف محاسن فتاته ليقيم الدليل على أنه محق في تعشقه لها، ولكن وصف المحاسن كان في شعر الحضريين غرضاً أساسياً لا تخلو منه قصيدة من قصائدهم، وذلك لأن تعلقهم إنما كان بهذه المفاتن، فقد كانت مظاهر الجمال الخارجية تجتذب انتباههم قبل جوانبه الداخلية، ومن هنا نجدهم وقفوا على وصفها الجانب الأكبر من شعرهم وهم يصورون المرأة في الصورة التي تجد ذوق أبناء ذلك العصر، والتي يجدون فيها المثل الأعلى للجمال الأنثى، كما نجدهم يعنون بوصف نواح من جسد المرأة ربما يعف عن وصفها الشعراء العذريون، على نحو ما نجد في قول عمر:

غادة تفر عن أشنبها	حين تجلوه أقحاح أو برد
ولها عينان في طرفيهما	حور منها وفي الجيد غيد
طفلة باردة القويظ إذا	معمعان الصيف أضحى يتقد
سخنة المشتى لحاف للفتى	تحت ليل حين يغشاه الصرد

٣- وصف معاناة الشاعر:

يلتقي الغزل العمري بالغزل العذري في هذه السمة، فهي سمة عامة في الغزل الأموي، وهي التي تجعله يختلف عن الغزل الجاهلي الذي يدور حول الأوصاف المادية أكثر مما يدور حول وصف الموجد والأحاسيس، بيد أن الشاعر الحضري لم يكن دائماً في تصوير موجدته،

شأن الشاعر العذري، فتراه يذرف الدموع من شدة الوجد، ويصف أرقه وسهده وما لقيه من
عناء في حبه، ونحو ذلك مما وجدناه لدى الشاعر العفيف، فإذا سمعنا الأحوص يقول مثلاً:

وما زلت من ذكراك حتى كأني أميم بأفياء الدير سليل
أبثك ما ألقى وفي النفس حاجة لها بين جلدي والعظام ديب
فلا تركي نفسي شاعراً فإنها من الحزن قد كادت عليك تذوب
خيل إلينا أنه مح صادق الصباية يكاد العشق يودي به، ومثل هذا كثير في شعر عمر
وأصحابه، وهو في شعرهم لون من الافتنان في التصرف بالمعاني الغزلية الشعرية، وربما نمّ
أحياناً عن معاناة صادقة، ولكنه في جله بادي التكلف لا يصدر عن عاطفة صادقة مشبوبة.

٤- سطحية العاطفة وسرعة انطفائها

لم يعرف من شعراء الغزل الصريح في دلالاته الحقيقية الصادقة التي وجدناها عند شعراء
الغزل العفيف، وإنما عرفوه تعلقاً بالمفاتيح الجسدية الظاهرة وإرضاء لنزوات الجنس، ومن هنا
كانت عاطفتهم إزاء من تغزلوا بهم تتسم بالسطحية والضحالة، ويعوزها الصدق والعمق،
وهي تبدو متكلفة فاترة في جل ما تقرؤه من غزلهم، وإن وصف هؤلاء الشعراء معاناتهم في
حبهـم - على ما قدمنا - فإن هذا الوصف اقتضته الصناعة الشعرية أكثر مما اقتضته المعاناة
الصادقة.

ومثل هذه العاطفة الفاترة القريبة الغور مآها إلى الانطفاء السريع، هي أشبه بشهاب لا
يكاد يسطع نوره حتى ينطفئ ويبتلعه الظلام، أو ماء ضحل لا يكاد يتعرض لو قد المهاجرة
حتى يجف، ومن هنا كان الشاعر الحضري يبدو في غزله عابثاً أكثر منه هجداً، وهو يحاول أن
يعوض عن نضوب العاطفة بوصف محاسن فئاته ومفاتيحها الجسدية، أو بإطالة الحوار بينه وبين
فئاته، ومن هنا أيضاً كان تعلق الشاعر الحضري بين العديد من النساء، يحاول بهذا التنقل أن
يشيع الحرارة في عواطفه وأن يبعد السأم عن نفسه الطرف الملول.

٥- التعلق بأكثر من امرأة واحدة

بسبب من سطحية العاطفة وسرعة انطفاء حب الشاعر الحضري الماجن نراه لا يتعلق
بامرأة واحدة يقف عليها شعره - شأن الشاعر العذري - وإنما كان همه التنقل من امرأة إلى

أخرى، لا يكاد يمل محبوبه حتى يسعى إلى أخرى، فالشاعر الحضري لم يعرف صورته المثالية التي عرفها الشاعر البدوي، ولهذا وجدنا عاطفته آنية سريعة الانطفاء فالشاعر العمري فراشة تقف على الزهرة فإذا ارتوت من رحيقها غادرتها إلى زهرة أخرى، إذا استهوته محاسن امرأة تعلق بها أول الأمر تعلقاً خيل إليه أنه سيلازمه طوال حياته، فلا يكاد يلقاها ويعاشرها حيناً من الدهر حتى يدب إليه الملل فيسلوها ويمضي باحثاً عن سواها.

فالمرأة في نظر عمر وأصحابه لا تعدو أن تكون وسيلة للاستمتاع واللهو، وليست جزءاً من حياة الشاعر ووجوده لا يطيق له فراقاً، شأنها عند الشاعر العذري، والعاطفة المبنية على اللهو والاستمتاع من شأنها أن تكون سريعة الانطفاء قصيرة العمر، وحسبنا أن نذكر أسماء طائفة من النساء اللاتي أحبهن عمر وتغزل بهن للتحقق من صحة ما ذكرناه، فمنهن فاطمة بنت محمد بن الأشعث، وزينب بنت موسى، والثريا بنت علي، وهند بنت الحارث ولبلى بنت الحارث، وكلثم بنت سعد، فهو كما يتحدث عن نفسه مولع بالحسن يتبعه أنى رآه، وكان ينتهز مناسبة الحج ليلقى النساء، وقد جئن من مختلف بقاع الدولة الإسلامية يقضين فريضتهن، فلا تكاد عينه تقع على فتاة حسناء حتى يتعلق بها، ويدفعه هذا الإعجاب إلى التغزل بجملها، حتى لقد تمنى لو أن الحج فريضة يؤديها المسلم كل يومين:

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجة واعتبارا
وكان عمر عارفاً باقتداره على مفارقة المرأة التي يتعلق بها، ويصور هذا الاقتدار قوله في بعض شعره:

وكم من خلة أعرضت عنها لغير قلي وكنت بها ضنيا
أردت بعادها فصدت عنها ولو جن الفؤاد بها جنونا
والنساء كذلك كن يعرفن في عمر هذه الخصلة وسرعة تحوله عن المرأة إذا قضى وطره منها، فكن يصطنعن ألواناً من الحيل لبيقين على صحبتته، على نحو ما نجد في هذه الأبيات:

ثم قالت للتلي معها لا تديمي نحووه النظر
خالسيه أخت في خفر فوعيت القول إذ وقرا

إنه يا أخت يصر منا إن قضى من حاجة أو وطرا
 ٦- النزعة الاستعلائية في حين وجدنا الشاعر العذري ينقاد إلى سلطان محبوبه
 وتتوارى شخصيته وراء شخصية من يحب، ولا يجد غضاضة في إظهار التذلل له، نجد أن
 زعيم الشعراء الحضريين عمر بن أبي ربيعة وأصحابه كانوا يقفون من محبوبتهم وقفة المستعلي
 في كثير من الأحيان، وكان يدفعهم إلى هذا الاستعلاء أمور عديدة منها ما كان لهم من نسب
 عريق ومكانة اجتماعية رفيعة، ولا غرو فإن عمر وجل شعراء الغزل الصريح كانوا من كرام
 أبناء قريش والأنصار، فكان أبو عمر من سراة قريش البارزين، وكان يسمى (العدل)، لأنه -
 فيما ذكروا - كان يكسو الكعبة من ماله سنة وتكسوها قريش سنة، والعرجي كان يمت بنسبه
 إلى عثمان بن عفان، والحارث بن خالد كان من أشرف بني مخزوم.

ومن دواعي الاستعلاء كذلك وفرة النساء في المجتمع الحضري وكثرتهم من الإماء
 والقيان المجتلبات، فلم تكن المرأة عزيزة المنال في ذلك المجتمع شأنها في المجتمع البدوي،
 وعمر خاصة توافرت له إلى جانب ما ذكرنا دواع أخرى تحمله على أن يستعلي على النساء
 اللاتي اتصل بهن فقد توافر له الشباب والجمال والثراء، فضلاً عن نشأته المدللة المرفهة في
 حجور النساء، تلك النشأة التي ولدت فيه عقدة النرجسية ودفعته إلى الإعجاب المفرط بنفسه
 وجماله، فلا غرو أن نراه يصف تعلق النساء به أكثر مما يصف تعلقه بهن، وأن يصور لنا في
 شعره تحرش النساء به حتى في مواسم الحج:

قالت لها أختها تعابثها لنفسدن الطواف في عمر
 قومي تصدي له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
 قالت لها: قد غمزت فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثري
 ولا غرو أن يرى نفسه قمراً في نظر النساء بحسن طلعتة:

بينما ينعتنني أبصرني دون قيد الميل يعدوي الأغر
 قالت الكبرى: أتعرفن الفتى قالت الوسطى: نعم هذا عمر
 قالت الصغرى وقد تيمتها: قد عرفناه وهل يخفى القمر

وربما وجدناه يصف وجد النساء به وما يلقيين من عناء في حبه وكأنه هو المعشوق لا العاشق:

قلت: من أنت؟ فقالت: أنا من شفه الوجد وأضناه الكمد
وليس ثمة أمر أشق على فتياته من فراقه لمن:

تقول إذ أيقنت أنني مفارقتها: يا ليتني مت قبل اليوم يا عمر
ولا حساسة برفعة منزلته كان لا يختار من النساء إلا الأرسقراطيات وقل أن وجدناه
يتغزل بفتاة من سواد الناس، بل كان يتعمد أن يعرض لمن يأتين مكة في مواسم الحج من
الشريفات السريات ليتغزل بهن.

ونحا الحارث بن خالد نحو عمر في التغزل بالنساء ذوات المنزلة الرفيعة، فكان جل غزله
في عائشة بنت طلحة وليلي بنت أبي مرة، ولكنه لم يكن يستعلي على محبوباته استعلاء عمر
فتلك الخصيصة تبرز خاصة في شعر أبي ربيعة.

ج- الخصائص الفنية للغزل الصريح:

إن جل الخصائص الفنية التي وجدناها في الغزل العذري هي خصائص مشتركة للغزل
الإسلامي بقسميه، ومن ذلك رقة الألفاظ وعذوبتها والعفوية في النظم ومجانبة التكلف
والغرابة اللفظية ونحو ذلك، ولكن النوعين يتباينان بعد ذلك في طائفة من الخصائص تتصل
ببيئته كل منهما، ففي الغزل العذري يتجلى الطابع البدوي من حيث اختيار الألفاظ وبساطة
المعاني وسذاجتها، ومن حيث الصور المنتزعة من البيئة البدوية، أما في غزل عمر وأصحابه
فالطابع الحضري واضح في هذه الجوانب، ولكن الفوارق تبقى مع ذلك هينة؛ لأن البيئتين لم
تكونا عصرئذ متباعدين كل التباعدين من حيث مشاهدتهما ونمط الحياة فيهما.

ويتجلى الطابع الحضري خاصة في موضوع هذا الغزل وهو المرأة، فالمرأة في شعر جميل
وأصحابه هي تلك المرأة البدوية التي تنهض مبكرة لتزاول الأعمال المنوطة بها، والبعيدة عن
الترف والتأنق، وهي في شعر الحضريين امرأة منعمة مترفة تنهض من نومها مكسالاتاً في
الضحى ولا يناط بها ما يناط بالمرأة البدوية من أعمال خشنة مضمينة تفسد جمالها. وإذا استقبلها
فاحت منها شتى روائح العطور التي كانت تجتلب من بلاد الهند والروم، ووقعت عينك على

ألوان من الحلي تزين جيدها وأذنيها ومعصميتها، وإليك هذه الصورة التي أبرز فيها عمر فتاته:

والزعفران على ترائبها شرق به اللبات والنحر
وزبرجد ومن الجمان به سلس النظام كأنه جمر
وبدائد المرجان في قرن والدر والياقوت والشذر

ونلاحظ في هذا الغزل ما لاحظناه في الغزل العذري من نواحي التجديد بالقياس إلى ما كان عليه الغزل في العصر الجاهلي، ومنها وحدة الغرض في القصيدة وصيرورة الغزل غرضاً رئيسياً من أغراض الشعر، حتى أننا لنرى شعراء يختصون بالغزل لا يكادون يجاوزونه إلى أغراض أخرى، فلم يؤثر عن عمر إلا مقطوعات قليلة في غير هذا الموضوع، وحين طلب إليه أن يقول شيئاً في المديح كان جوابه أنه لا يمدح الرجال وإنما يمدح النساء.

وهذا التفرغ لفن الغزل أتاح للشعراء الغزليين تجديد هذا الفن وتطويره وابتكار الجديد من المعاني فيه، ولاسيما عمر، وهذا التجديد يبيح لنا الزعم بأن فن الغزل عرف غاية ازدهاره وتألّفه في العصر الأموي.

ومن المحقق أن النصيب الأوفى من هذا التجديد يحظى به عمر، فهو رائد الغزليين في جميع العصور، فقد فرغ لهذا الفن الذي عرفه الجاهليون في صورته الساذجة البسيطة ودفعه وضعته في مقدمة الفنون الشعرية المزدهرة، وعرف النقاد والشعراء لعمر هذا الفضل، فقال الفرزدق حين سمع شيئاً من نسيه: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه، بل إن جميلاً زعيم العذريين أقر به بالتقدم في فن مخاطبة النساء ووصفهن.

وفي الأغاني خبر مطول مروى عن مصعب بن عبد الله الزبيري يعدد فيه ما ابتكره عمر من المعاني الغزلية، وهو من النصوص النقدية النادرة في تقويم الشعر، وقد مثل أبو الفرج لكل معنى بأبيات من شعر عمر.

ومن مناحي تجديده التي ذكرها سهولة شعره وحسن الوصف ودقة المعنى، واستنطاق الربع وإنطاق القلب، وإثبات الحجة، وطلاوة الاعتذار، وتبخيل المنازل.

وإلى هذا كله نُضيف ميزة عمر الأولى وهي تطويره القصص الغزلي الذي كان بدأه امرؤ القيس في الجاهلية، حتى تحولت القصيدة عند عمر أحياناً إلى شبه مسرحية شعرية تتوافر فيها جل مقوماتها من حدث وعقدة وحل العقدة ونحوها، ويتجلى هذا خاصة في رائيته التي أولها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غداً أم رائح فمهجر
على أن الطابع الحواري في قصائده قد أفقد أسلوبه أحياناً شيئاً من جزالته وامتانة تراكيبه.

وحين نوازي بين شعراء الغزل العذري وشعراء الغزل الصريح في الخصائص الفنية نرى أن شعر الفئة الأولى كان أقرب إلى النفس وأنفذ إلى القلوب لما فيه من عفوية وصدق وبعد عن التكلف، في حين أن الصنعة الشعرية في شعر الفئة الثانية كانت أكثر إتقاناً في المعاني الغزلية وأوفى، وعلى أية حال فإن نهضة الغزل في العصر الأموي مدينة إليهما جميعاً.

د- مقارنة بين الغزل العفيف والصريح

الغزل العذري غزل نقي طاهر معن في النقاوة والطهارة، وهو يعود إلى بني عذرة إحدى قبائل قضاة، ولم تقتصر موجة الغزل العذري على قبيلة عذرة وحدها، بل شاع في بوادي نجد والحجاز حتى أصبح ظاهرة عامة، ويرجع تفسير انتشار هذا الغزل يعود إلى ظهور الإسلام الذي طهر النفوس وبرأها من كل إثم، ومن أهم السمات التي تطبع هذا الغزل لوعة المحبين وظمؤهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمماً لا يقف عند حدّ ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف، وهو دائم بدوام الحياة ومرافق للحياة حتى الممات كقول الشاعر قيس بن ذريح:

تعلق روعي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدي
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باقٍ على كلِّ حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحد
على عكس الغزل الصريح الذي يتسم بالآنية والتجدد وعدم الصدق في العاطفة كقول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالت للتي معها لا تديمي نحوهِ النظر

إنه يا أخت يصر منا إن قضى من حاجة وطرا
أما الليل عند شعراء الغزل العذري فهو مصدر الموم والآلام واللوعة والأحزان، حتى
أنهم يمضون الليل كله يلمون بالأحبة ويتمنون أن تتحول الأحلام إلى حقيقة، فيقول
قيس بن ذريح:

وإني لأهوى النوم في غير حينه لعل لقاء في المنام يكون
تحدثني الأحلام أني أراكم فياليت أحلام المنام يقين
أما عند الشعراء الصريحين فالليل ليل الفرح واللعب والعبث، حتى أنهم تحنوا أن يطول
أكثر؛ لأن الحب عاش في هذه الليالي ونما في ظلامها كقول عمر بن أبي ربيعة:

سـمـون يـقـلـن أـلـا لـيـتـنـا نـرى لـيـلـنـا دـائـمـاً أشـهـرا
أما الصفة الأساسية الفارقة بين الغزلين تتضح من خلال إقبال الشعراء الصريحين إلى
وصف المحاسن الجسدية والتغني بها وبالتلذذ بمتعها فتطرقوا إلى وصف لباسهن
وحديثهن وعطورهن وزيتتهن كقول عمر بن أبي ربيعة:

وحساناً جوارياً خفرات حافظات عند الهوى الأحسابا
سحرتني الزرقاء من مارون إنما السحر عند زرق العيون
وتضوع المسك الذكي وعنبر من جيبها قد شابه كافور
أما الشعراء العذريون فلم يهتموا بهذه الأمور، بل اقتصروا على وصف مشاعرهم
وعذابهم ولوعتهم في الحب لقول قيس بن ذريح:

لقد عذبتني يا حبيب ليلى فقح إما بموت أو حياة
فإن الموت أروح من حياة تدوم على التباعد والشتات
والحب عند العذريين مصدر الشقاء والحرمان والألم والحرارة كقول قيس بن ذريح:

إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن حرق تعادني وزفير
ومن ألم للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير

ولكنه لا يشكل أي ألم أو لوعة للشعراء الصريحين، بل إنه مصدر المتعة والترف والترويح عن النفس، وبذلك يتحلى بعدم صدق العاطفة كما أنهم لا يكتفون بمحبة واحدة، من ذلك كله نخلص إلى القول: إن الغزل الصريح غزل يعتمد الحب الذي يؤمن باللحظة، ولا يفكر بالديمومة يؤمن باللهو والعبث ويكره الجد والمعاناة بعكس الغزل العذري الذي يتسم بالبقاء واللوعة والألم الغزير الذي يلحق بالمحبين وهو غزل عفيف لا يتطرق إلى المسائل المادية التي تطرق لها الغزل الصريح، وبها يسمو العذري فوق الصريح، ويعلو عليه ويكون تأثيره في النفوس أقوى وأوجع وأقرب إلى النفوس السامعة أو القارئة.

٣ - الغزل التقليدي: (النسيب) الذي كان به الشعراء يصدرون به قصائدهم جرياً على سنن القصيدة العربية الجاهلية والذي لا يمثل شعوراً صادقاً إزاء المرأة؛ لأنه ضرب من الصناعة الشعرية.

٩ - الشعر السياسي: ليس لدى الجاهليين شعر سياسي بالمفهوم العصري لمعنى كلمة سياسة، إذ أن القبيلة هي الدولة المصغرة التي ينتمي إليها الإنسان الجاهلي ودفاعه عنها دفاع عن حدود مناطق الرعي فيها، وإذا كان هناك بعض المالك قد بدأت تبلور، فإن الإسلام قد جاء وقطع الطريق عليها، فأنشأ نظاماً جديداً للحياة السياسية المتمثلة بإيجاد خليفة واحد يدافع عن همى الأرض التي فتحت، ولكن خلاف المسلمين حول مفهوم الخلافة، لمن تكون وكيف تكون؟ جعل المسلمين في العصر الأموي ينقسمون إلى أحزاب اتخذت طابعاً سياسياً تمثل في:

أ- الحزب الخارجي.

ب- الحزب الأموي.

ج- الحزب الزبيري.

د- الحزب الهاشمي.

و لو عدنا إلى بدايات الدعوة الإسلامية لوجدنا أن مسألة تبليغ الرسالة الدينية قد أخذت طابعاً سياسياً.

١٠- شعر الخوارج السياسي: الخوارج هم شيعة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الذين خرجوا عن صفه بعد أن قبل بمسألة التحكيم بينهم وبين معاوية، ذلك أن معركة صفين قد أوشكت نهايتها على فوز جيش علي مما جعل معاوية ومعاوية وجماعته يرفعون المصاحف طلباً للتحكيم، وقد زعم هؤلاء الخوارج الذين انشقوا عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن مسألة التحكيم خدعة، ولكن علي قبل بها؛ لأنها تطلب تحكيم القرآن الكريم في هذا الخلاف، وما كان لخليفة مثل علي رضي الله تعالى عنه أن يرفض التحكيم.

وقد شكلت هذه الفئة من المسلمين جيشاً عنيداً صلباً رأى بالجهاد ركناً أساسياً من أركان الإسلام واعتقد أصحاب هذا الحزب الذين تسموا: (الشراة، المحكمة، الخوارج، الحرورية) أنه (لا حكم إلا لله)، وهي كلمة حق أريد بها باطل، وأنه لا يجوز تعيين خليفة للمسلمين، وقد خرجوا إلى بلاد ما وراء النهر، وقد انقسم الخوارج إلى طوائف متعددة منهم: (النجيدات، والأزارقة، والإباضية، والصفرية) وأشدهم تعنتاً الأزارقة الذين يرون أن القعود عن الجهاد إثم كبير، وأن الخلافة ليست بالضرورة أن تكون من القرشيين أو من العرب.

وقد مثل هؤلاء من الخوارج حزبهم أكبر تمثيل، فنبذوا كل تعصب يقوم على الأسرة أو الجنس، فقد كانوا مجموعة أفراد ينتمون إلى فئات متعددة، ومن أشهر وأهم شعراء الخوارج: (قطري بن فجاعة، الطرمّاح بن حكيم الطائي، عمران بن حطان، وعمرو بن الحصين، يزيد بن حنّاء)، وقد جمع قطري بين رقة النفس والحماة للعقيدة، وعبر عن رؤية الخوارج في القتال فقال:

لعمرك إني في الحياة لزاهد	وفي العيش ما لم ألق أمّ حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها	شفاء لذي بثّ ولا لسقيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جدّ لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
ويقول عيسى بن فاتك الحبطي حينما هُزم أربعون من الخوارج، ألقان من جند عبيد بن زياد في معركة أسك:	

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعوننا

كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا
ويقول مصقلة بن عتبان يفتخر على بني أمية بأنصاره الخارجين كسويد والبطين وقعب
وشيب وغزالة التي نذرت أن تدخل مسجد الكوفة وتصلي فيه ركعتين ووفت بوعداها
وصلت والحجاج لا يجزؤ على الخروج إليها:
وأبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح إن لم يريح منك قريب
فمناسويد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شيب
غزالة ذات النذر مناهيدة لها في سهام المسلمين نصيب

١١ - شعر الزهد: فلسف الإسلام النظرة إلى الحياة الدنيا من منطلق بسيط يدعو إلى أن
يكتفي الإنسان بالقليل من متاعها، وركز على النظر إلى ما بعد الموت؛ لأن فيه الحياة الأبدية
والسرمدية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة
الحديد: ٢٠].

ومن هذا المنطق تبني عدد من الشعراء المسلمين في العصر الأموي هذه الفلسفة ودعوا إلى
طرح الدنيا والإقبال على الآخرة والتوكل على الله والثقة به والإيمان بأنه متكفل برزق العباد
جميعاً، ومن هؤلاء الشعراء الذين دعوا إلى ذلك: (أبو الأسود الدؤلي تلميذ علي رضي الله عنه،
مالك بن دينار، وعروة بن أذينة، وسابق البربري).

يقول عروة بن أذينة:

لقد علمت، وما الإسراف من خلقي إن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه ما يعينني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعينني
ويقول أبو الأسود الدؤلي داعياً إلى السعي من أجل العيش القائم على الحياة الكريمة:
وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء
ولا تقعد على كسل تمنّي تحيل على المقادر والقضاء

وينتقد الشاعر سابق البربري انصراف الأغنياء إلى جمع المال:

فحتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازن
كما أن شعراء الزهد في هذا العصر قد أكثروا من ذكر الموت وتحذثوا عن هاجسه المفزع
قائلين:

فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت باب أنت لا بد داخله
وكيف يلدّ العيش من هو عالم بأن إله الخلق لا بد سائله
وهذا هو الفرزدق يذكر الموت وعذاب الله في الآخرة في حوار مع الحسن البصري في يوم
جنازة زوجه النوار:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني أشدّ من القبر التهاباً وأضيقاً
إذا جاء في يوم القيامة قائداً عنيّف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مغلول القلادة موثقاً

١١- شعر الطبيعة: نظراً لنزوح العرب بين حياة الصحراء وحياة الحضارة الجديدة فقد
بقي عالقاً في أذهان الشعراء مجال الصحراء وما تحمله من ذكريات بما فيها من خيام ونوق
وخيول وحيوانات ونجوم، وبقي كثير من الشعراء يفضل حياة الصحراء على حياة المدن.

ويعد الشاعر ذو الرمة من أكبر الشعراء الذين عشقوا الصحراء وأيامها، وما فيها ورأى ما
في الصحراء مسلاة في إطار ذكره لمية تلك المرأة التي أفلتت من يده فجعلته يذوب في رمال
الصحراء، يقول ذو الرمة في وصف حيوان الصحراء بظبية وابنها عاكساً عواطف الإنسان
عليها:

إذا استودعت صفصفاً أو صريحمة تنحت ونصت جيدها بالمنظر
حذار على وسنان يصرعه الكرى بكل مقيل عن ضعاف فواتر
وتهجره إلا اختلاسات نهارها وكم من محب رهبة العين هاجر

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الطبيعة كانت على الدوام ملهماً بالغ التأثير في نفسية الشاعر العربي، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصعدون عنها لا في أشعارهم، فهم يصورون، فلواتها بكثبانها ورمالها وغدرها وسيولها، وخصبها وجدبها، ونباتاتها وأشجارها، وحيوانها وطيورها، وزواحفها وهواجرها، وما قد ينزل ببعض أطرافها من البرد وقوارصه.

ومضى شعراء العصر الأموي، على سنة آبائهم يستلهمون الصحراء مزواجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى فيها شبابه مع بعض صواحيبه، ويسترسل في الحديث عن بعض ذكريات حبه، ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء وما قطع من مفاوز على ناقته، يسهب في وصفها لما لها من جمال في نفسه، كما يسهب في وصف فرسه، وهو في ثنايا ذلك يحدثنا عن كل ما تقع عليه عينة في صحرائه، أو يخلف أثراً في نفسه من طير وحيوان ونجوم وكواكب.

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء في هذا العصر عاش في بيئات متحضرة، فإن الصحراء لم تحف ينابيعها في نفوسهم، بل قد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم، على نحو ما نجد عند مبرزهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجريز، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق فيها بين طبيعة الصحراء ونهر دجيل وما يجري فيه من سفن، موازنة يعلي فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً:

يقول الفرزدق واصفاً السفينة:

لفلج وصحراواه لو سرت فيهما أحب إلينا من دجيل وأفضل
وراحلة قد عودوني ركوبها وما كنت ركاباً لها حين ترحل
قوائمها أيدي الرجال إذا انتحت وتحمل من فيها قعودا وتحمل
وواضح أنه يؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن، وهو يعبر عن شعوره وشعور من حوله من الشعراء الذين فتنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذي الرمة، وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموي لم يفسح مجالاً لطبيعة البيئات الجديدة في شعره، وإنما معناه إن الطبيعة الصحراوية كانت تستولي على ملكاته.

أما بعد ذلك فقد كانت تنفيذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه، فيصور ما فيها من جبال
وثلوج، وقد صور الفرزدق في بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه في
طريقه شتاء من نثر الثلج، يقول:

مستقبلين شمال الشام تضر بهم بحاصب كنديف القطن مشور
على عمائمنا يلقي وأرحلنا على زواحف نزجها محاسير
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد في وصف المناظر الصحراوية، ومع ذلك
تلقانا في ديوانه قطعة صور فيها نهيرات شقها هشام بن عبد الملك، وما نبت على ضفافها من
زرع وزيتون:

شققن من الفرات مباركات جواري قد بلغن كما تريد
بها الزيتون في غلغل ومالت عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في الهنيء جنان دنيا بساتيناً يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمه طلع نضيد

الباب الثالث

الفصل الرابع

التحولات التي طرأت على الشعر في العصر الأموي

إذا كانت الحياة الجاهلية التي عاشها العرب في صحراء الجزيرة العربية وأطراف الشام والعراق حياة بسيطة غير معقدة، قد نتج عنها أدب بسيط لا يحمل من الفكر إلا النزر اليسير ولا يبطن الفلسفة ولا العقائد الدينية، باستثناء ما جاء على لسان الشعراء المتأهين كأمية بن أبي الصلت الذين ذكروا في شعرهم قضية التوحيد الإلهي بمفهومه البسيط، فإن الحياة في العصر الإسلامي قد حملت معها رؤى جديدة وأشكالاً مختلفة للقضايا السياسية والاجتماعية والفكرية، ومن هنا بدأ التحول يأخذ مجراه في الأدب وخاصة في الشعر، وقد أسهم في إبراز هذه التحولات سيبان رئيسيان:

١. التجربة الذاتية: التي تعطي للعالم الداخلي عند الإنسان الأولوية من حيث: المشاعر، وقد مثل ذلك شعراء العذرية، وحمل لنا شعرهم رغبات وانفعالات تعبر عن موقف يعقد على الكره والحب لمختلف هذه القضايا.

٢. التجربة الفكرية: القائمة على التوحيد في الفكر على اعتبار أن الشعر هو أحد وسائل الفكر، وقد مثل ذلك شعراء الخوارج الذين حملوا لنا في شعرهم الصراعات الفكرية حول مفهومي العبادة والسلطة، ومن هنا فإن تحولاً جديداً قد طرأ على مضمون الشعر تمثل في إحداث أغراض جديدة كالشعر الديني الذي يتحدث عن عقائد الدين والمثل العليا التي ينطلق منها، وكشعر الوعظ الذي يدعو إلى التقوى وينهى النفس عن الهوى، بالإضافة إلى شعر الفتوحات الذي يتحدث عن انتصارات العرب المسلمين على الأقوام الأخرى كفارس وبيزنطة، ومن ثم شعر الشكوى الذي فضح ممارسات الولاة وشعر المذاهب السياسية الذي نشأ بفعل نشوء الأحزاب السياسية المتصارعة على السلطة، والشعر العذري الذي يتناول المرأة مضموناً إنسانياً لا شكلاً من أشكال الجمال في الحياة.

أما من حيث الشكل فقد بدأ الشعراء الإسلاميون يتحررون من المقدمة الطللية ومن الابتداء القائم على مخاطبة شخصين: (قفا نيك - خليتي) وبدأ هؤلاء الشعراء بكتابة مقدمات دينية كما في شعر عبد الله بن الأحرر الأسدي:

صحوت وودعت الصبا والقوافيا وقلت لأصحابي أجيئوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعا: لبيك لبيك داعيا
ولو رجعنا إلى شعر عمر بن أبي ربيعة، وجميل بن معمر، وشعراء المذاهب السياسية لوجدنا مقدماتهم ليست بالمقدمات الطللية، فهي هو الكميت على تعلقه العاطفي بآل البيت وانصرافه إلى حبههم وتحمل الأذى من أجلهم، نافياً التغزل يقول:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب
ولم تلهني دارٌ ولا رسم منزلٍ ولم ينظرني بني بنان مخضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يطلب
وقد تأثر الشعراء بأسلوب الجدل الذي كان قائماً على الإقناع وأكثر الشعراء في هذا العصر من استخدام تراكييب: (يا ركباً إما عرضت فبلغن - أبلغ)، وقد ساهم أسلوب القرآن في تصاعد الاعتماد على أسلوب المناقشات والإقناع الفكري، وأسلوب الحوار القصصي المعتمد عند شعراء الخوارج على: (قلت، قالت)، كقول عمر ابن ربيعة:

كلما قلت: متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غدٍ
يضاف إلى ذلك استخدام صيغ وعبارات جديدة مستوحاة من المعاني الإسلامية مثل: (الإيمان، الكفر، الزكاة، الصلاة، الوحي، القيامة، التقوى، الجهاد، الشهداء، الحرام، الحلال...). يقول عمرو بن قريظ العامري:

ثقلت صلاة المسلمين عليكم بني عامر والحق جدّ ثقيل
واتبعوها بالزكاة وقلتم ألا لا تقروا منهم ما بفتيل
كقول جرير:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
وأخذت ألفاظ جديدة تكنسي معاني جديدة لم تكن تحملها سابقاً، كالحزم الذي أصبح
بمعنى التقى: كقول مروة بن نوفل:

ولقد علمت وخير العلم أنفعه أن السعيد الذي ينجو من النار
ويقول الفرزدق متكئاً على معاني القرآن في مخاطبة زوجته نوار:

وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين لَجَّ به الضرار
كما أن الصور الخيالية ازدادت خصوبة كقول الشاعر:

كأن القلب ليلة قيل يفدى بليلى العامرية أو يـراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح
لهافر خان قد تركا بوكر فعشهما تصفقه الرياح

الباب الرابع

رموز الشعر في العصر الأموي

١ . الفرزدق

همام بن غالب بن صعصعة التميمي

أ - حياته ونشأته: ولد الفرزدق أبو فراس، همام بن غالب بن صعصعة التميمي، من مجاشع بن دارم من بني تميم، ومجاشع فرع قوي من تميم، سنة ولادة الأخطل (٢٠هـ - ٦٤١م) في كاظمة، شرقي مدينة الكويت اليوم ونشأ نشأة بدوية، بين مدينة البصرة والبادية فجده صعصعة محيي الموءودات؛ إذ كان يفتديهم بالمال، وقد عرضه والده على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأشار عليه أن يعلمه القرآن، ولقب بالفرزدق لغلظ في وجهه، والفرزدق هو العجين غير الخامر، لم يكن الفرزدق مناصراً للأمويين من أعماقه إلا أنه كان يتردد على عاصمتهم دمشق، ثم ما يلبث أن يعود إلى البادية، صعصعة جد الفرزدق هو محيي الموءودات؛ لأنه كان يفدي كل فتاة يبلغ إليه أن أهلها يريدون أن يتدوها في الجاهلية من فقر، واشتهر والد الفرزدق غالب بالكرم، وكان ينزل جنوب البصرة ويملك إبلاً وأنعاماً كثيرة.

بدأ الفرزدق ينظم الشعر وعمره خمسة عشر عاماً، فحمله أبوه إلى الإمام علي كرم الله وجهه، فلما سمع الإمام شعره نصحه بأن يحفظ القرآن، فقيد الفرزدق نفسه بقيد من حديد ولم ينزعه إلا بعد حفظ القرآن.

بدأت المهاجاة بين جرير والبعيث المجاشعي، فأعان الفرزدق البعيث، فانقلبت المهاجاة بين الفرزدق وجرير، ودخل فيها الأخطل التغلبي معيناً الفرزدق، فكان ديوان شعر النقائض الذي أسهم في بعث العصبية القبلية.

أشعر الفحول في العصر الأموي ثلاثة: الفرزدق وجرير والأخطل، والفرزدق شاعر مقتدر ألفاظه جزلة فخمة كثيرة الغريب وتراكيبه متينة شديدة الأسر، ومعانيه كثيرة متنوعة، وكان في طبعه جفاء حمل إلى شعره شيئاً من الخشونة والصلابة، برع الفرزدق كثيراً في فن الفخر، وأجاد في المديح والهجاء، وقصر في فني الغزل والرثاء، وله ديوان شعر مطبوع.

ب - شخصيته: طغت البداوة على شخصية الفرزدق، فكان يحمل نفساً خشنة تعتد بنشأتها وبأصالة نسبها، فقد كان يتمسك بماثر قومه، فيبيع إبله وينثر أموالها على الناس،

وقد يجير كما يصنع آباؤه من يطلب الإجارة على قبر أبيه، تميز الفرزدق بأنه فاحش النطق خبيث الهجاء، ضعيف الانتها؛ لأنه تقلب بانتمائه بين الأحزاب السياسية في العصر الأموي.

ج - شعره: تطرق الفرزدق بشعره إلى معظم الموضوعات والأغراض، ولكنه لم يفلح إلا في فني المديح والهجاء.

١- المديح عند الفرزدق:

كان موالياً في أعماقه لبني هاشم وإن أبدى مسالمة لبني أمية، ويظهر ذلك من مدحه لعلي بن الحسين (زين العابدين) حيث يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

٢- الفخر عند الفرزدق: نظراً لاعتداد الشاعر بمكانة آبائه وأجداده، فقد برع في محاولة إبرازه والالتكاء عليهم في إثبات وجوده، يقول مفتخراً بقومه:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمها أعز وأطول
أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

٣- الهجاء عند الفرزدق: إن كون الفرزدق أحد شعراء النقائص الذين دارت بينهم معارك في المهاجة جعلته يهتم بهذا الفن اهتماماً كبيراً ويبرع فيه بحيث برز كشاعر هجاء تبوأ المنزلة العالية يقول الفرزدق مهاجياً جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
إن الزحام لغيركم فتحنوا ورد العشي إليه يصفو المنهل
يا ابن المراغة أين خالك إنني خالي حبش ذو الفعال الأفضل

٤- القصة الشعرية عند الفرزدق: كتب الفرزدق القصة الشعرية في محاوره جرت بينه وبين ذئب جائع جسد فيه هذا الشاعر شخص (جسد) هذا الذئب وجعله محاوراً محبباً إلى القلب على الرغم من شرسته:

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت بناري موهناً فأتاني
 فلما دنا قلت: ادن دونك إنني وإياك في زادي لمـشتركان
 يتسم شعر الفرزدق بمتانة الألفاظ وكثرة الغريب فيه وشعره موطن إجماع لعلماء
 اللغة، وديوانه سجل لأيام العرب ومناقبهم ومثالبهم، ولولا شعر الفرزدق لذهب نصف
 أخبار الناس، وقد قيل: (جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت في صخر).

د- نماذج من شعره:

١- فخر وهجاء:

فخر العربي بالقوة والمكارم والشيم وهجا خصومه بالضعف، والبعد عن الفضائل، قال
 الفرزدق يفخر بقومه ويهجو جريراً:

إن الذي سمك السماء بنى لنا	بيتاً دعائمهُ أعز وأطول
بيتاً بناه لنا المليك، وما بنى	حكم السماء فإنه لا ينقل
لا يجتبي بفناء بيتك مثلهم	أبدأ إذا عد الفعال الأفضل
ضربت عليك العنكبوت بنسجها	وقضى عليك به الكتاب المنزل
إن الزحام لغيركم، فتحنوا	ورد العشي إليه يصفو المنهل
حلل الملوك لباسنا في أهلنا	والسباغات إلى الوغى نتسربل
أحلامنا تزن الجبال رزانة	وتخالنا جنأ إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بناءنا	تهلان ذا الهضبات هل يتحلحل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم	وإليه كان حباء جفنة ينقل
وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا	إن اللئيم عن المكارم يشغل
إن التي فقئت بها إبصاركم	وهي التي دمغت أباك: الفيصل

((ديوان الفرزدق))

شرح المضردات: سمك: رفع. حكم السماء: حكم الله. لا يجتبي: لا يجتمع. الفعال: الفعل الحسن من الجود والكرم وغير ذلك. قضى عليك به الكتاب المنزل: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١]. الورد: ورود الماء. وتحينوا ورد العشي، أي انتظروا انتهاء الناس من ورود الماء فيصفو لكم، لكن الماء لا يكون صافياً بعد أن ترده الناس إذا بقي ماء أصلاً. الحلل: مفردها حلة، وهي ثوب من قطعتين له بطانة. السابغات: الدروع الطويلة. الوغى: الحرب. نتسربل: نلبس. الأحلام: العقول. ثهلان: جبل في جزيرة العرب. يتحلحل: يتزحزح. آل جفنة: الغساسنة ملوك الشام، وكان حبيش الضبي خال الفرزدق قد أسر عمرو بن الحارث الغساني فأطلقه واشترط عليه أن يبعث إليه في كل سنة بعتاء. دمغت: أصاب على الدماغ. الفيصل: الفاصل بين الحق والباطل.

٢- قال الفرزدق يمدح عبد الملك بن مروان ويذكر تغلبه على ابن الزبير:

أما العراق فقد أعطتك طاعتها	وعاد يعمر منها كل تخريب
فالأرض لله ولاها خليفته	وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به	كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم	منها صدور وفازوا بالعراقيب
كانوا كسائلة حمقاء إذ حقنت	سلاءها في أديم غير مربوب
والناس في فتنة عمياء قد تركت	أشرافهم بين مقتول ومحروب
دعوا ليستخلف الرحمن خيرهم	والله يسمع دعوى كل مكروب
فانقض مثل عتيق الطير تتبعه	مساعر الحرب من مرد ومن شيب
تغدو الجياد ويغدو وهو في قتم	من وقع منعلة تزجى ومجنوب
قيدت له من قصور الشام ضمرها	يطلبن شرقي أرض بعد تغريب
فقد رأى مصعب في ساطع سبط	منها سوابق غارات أطانيب
يوم تركن لإبراهيم عافية	من النسور وقوعاً واليعاقيب

في قاتمٍ ليظها حمر الأنابيب
حمرّاً إذا رفعت من بعد تصويب
بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
سربال ملك عليهم غير مسلوب
٣- قال يعلن توبته عن هجاء الناس ويذم إبليس ويعدد آثامه:

لبين رتاج قاتم ومقام
ولا خارجاً من في سوء كلام
فلما انتهى شيبى وتم تامي
ملاق لأيام المنون حمامي
أبو الجن إبليس بغير خطام
سيخلد في جنّة وسلام
يمينك من خضر البحور طوامي
بأنعم عيش في بيوت رخام
لكم أو تنيخوها للقوح غرام
وكنت نكوصاً عند كل ذمام
وزوجته من خير دار مقام
له ولها أقسام غير آثام
بأيديهما من أكل شر طعام
أحاديث كانوا في ظلال غمام
رضاه ولا يفتادني بزمام

كأن طيراً من الرايات فوقهم
أشطان موت تراها كلما وردت
فأصبح الله ولي الأمر خيرهم
تراث عثمان كانوا الأولياء له
٣- قال يعلن توبته عن هجاء الناس ويذم إبليس ويعدد آثامه:

ألم ترني عاهدت ربي وإنني
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً
أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فررت إلى ربي وأيقنت أنني
ألا طالما قد بت يوضع ناقتي
بيشرنى أن لن أموت وأنه
فقلت له: هلا أخيك أخرجت
ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله
فقلت اعقروا هذي اللقوح فإنها
فلما أناخوها تبرأت منهم
وآدم قد أخرجته وهو ساكن
وأقسم تباً إبليس أنك ناصح
فظلا يخططان الوراق عليهما
فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا
ما أنت يا إبليس بالمرء ابتغى

٢ - جرير بن عطية الخطفي

أ . حياته ونشأته: هو جرير بن عطية الخطفي أحد بني يربوع، بعض بني تميم، فجرير يلتقي الفرزدق في جدتهما الأعلى تميم، ولد باليامة سنة (٣٠هـ)، ونشأ فقيراً يرعى إبل قومه، وكانت وفاته باليامة سنة (١١٤ أو ١١٥ هـ)، بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر.

ب . شخصيته: بدأ ينظم الشعر في مطلع حياته رجزاً في المهاجة التي جرت إلى المناقضات بينه وبين الفرزدق والأخطل.

انحدر من اليامة إلى البصرة مركز الحركة السياسية وميدان شعراء المناقضات، ثم اتصل بالأمويين ومدحهم، ونال حظوة عند الخليفة عبد الملك بن مروان.

ج . شعره: جرير شاعر وجداني مطبوع، غزير الشعر، وقد قيل: (جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر)) يجمع جرير بين وضوح المعاني وفصاحة الألفاظ ومتانة التراكيب وعذوبة السبك، وشعره شديد العلوq بالذاكرة مطاوع للغناء، وقد امتاز جرير بالفنون الوجدانية كالغزل والرثاء والهجاء، وله براعة في الوصف والمديح، وفاق الفرزدق والأخطل في الغزل والرثاء والهجاء، وأخل ذكر شعراء كثيرين، وتغلب على جميع الشعراء الذين هاجوه، ماعدا الأخطل والفرزدق؛ لأنها اجتمعا عليه.

د - نماذج من شعره:

١ - أنا البازي:

كان راعي الإبل النميري يميل إلى الفرزدق، فهجا جريراً فرد عليه جرير بقصيدته ((الفاضحة)) فخزيت بنو نمير، وانكسرت، ومات الراعي في العام نفسه.

فقال جرير يفخر بنفسه ويهجو الفرزدق وراعي الإبل:

لقد خزي الفرزدق في معد فأمسى جهد نصرته اغتياها

فما هبت الفرزدق، قد علمتم وما حق ابن بروع إن يهاها

أعد الله للشعراء مني صواعق يخضعون لها الرقابا

أنا البازي المدل على نمير أتحمت من السماء له انصبابا
إذا علقت مخالبه بقرن أصاب القلب أو هتك الحجابا
فلا صلى الإله على نمير ولا سقيت قبورهم السحبابا
ولو وزنت حلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
لعلك يا عبيد حسبت حربي تقلدك الأصرة والغلابا
إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
ألسنا أكثر الثقلين رجلا ببطن منى وأعظمه قبابا
(ديوان جرير)

شرح المفردات:

معد: جد العرب، وأراد قبائل العرب. الجهد: الوسع والطاقة. الاغتياب: الغيبة. ابن بروع: راعي الإبل، وبروع: أمة. قرنت: ربطت. عبد بني نمير: راعي الإبل. والقين: الحداد، وأراد بالقينين: الفرزدق ومحمد بن عطار التميمي الذي رشا الأخطل ليفضل الفرزدق على جرير. المدل: المحوم. نمير: قوم راعي الإبل. أتحمت من السماء: هيئت وقدرت من السماء. وانصباب البازي: انقضاضه. القرن: البطل. الحجاب هنا: حجاب القلب. كعب وكلاب: قبائل عربية. تقلدك الأصرة: جعلها في عنقك، والأصرة مفردها صرار، وهو خيط يربط به ضرع الناقة لا يرضعها ولدها. والعلاب: مفردها علبة، وهي وعاء من جلد أو خشب يخلب فيه الحليب. الثقلان: الإنس والجن. الرجل: الرجال. منى: بلد قرب مكة المكرمة ينزله الحجاج، وفيه تنحر الإبل. القباب: مفردها قبة، وهي الخيمة العظيمة من الجلد.

٢- التنديد بالظلم:

قال جرير يهجو الأخطل وقومه بني تغلب ويفخر عليهم ببني تميم قومه:

قومي تميم هم القوم الذين هم ينفون تغلب عن بحبوحة الدار
النازلون الحمى لم يرع قبيلهم والمانعون بلا حلف ولا جار

إلا اصطلينا وكننا موقدي النار
على الأنوف وسوماً ذات أحبار
يا خزر تغلب دار الذل والعار
للمسلمين ولا مستشهد شاري
صروا الفلوس وحجوا غير أبرار
ثم انفرجت انفرجاً بعد إقرار
أخزيت قومك واستشعلت من ناري

ما أوقد الناس من نيران مكرمة
يا خزر تغلب إني قد وسمتكم
لا تفخرن فإن الله أنزلكم
ما فيكم حكم ترضى حكومته
قوم إذا حاولوا حجاً لبيعتهم
نبئت أنك بالخابور ممنوع
قد كان دوني من النيران مقتبس
٣- الله أعطاك فاشكر فضل نعمته:

قال جرير يمدح يزيد بن عبد الملك ويهجو آل المهلب حين ثاروا عليه:

أعطاك ملك التي ما فوقها شرف
إن سرت ساروا وإن قلت اربعوا وقفوا
بالحق يصدع ما في قوله جنف
فاستبشر الناس بالحق الذي عرفوا
لولا تقوم بدرء الناس لاختلفوا
قوم أطاعوا ولاة الحق وأتلفوا
إذا قذفت محلاً خالماً قذفوا
أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف
إلا المعاصم والأعناق تحتطف
فقتلتهم جنود الله وانتفوا
كأنها الحنظل الخطبان ينتقف

الله أعطاك فاشكر فضل نعمته
هذي البرية ترضى ما رضيت لها
هو الخليفة فارضوا ما قضى لكم
يقضي القضاء الذي يشفى النفاق به
أنت المبارك والميمون سيرته
تدعو فينصر أهل الشام أنهم
ما في قلوبهم نكث ولا مرض
آل المهلب جذ الله دابـرهم
ما نالت الأزد من دعوى مضلهم
والأزد قد جعلوا المتوف قائدهم
تهوي بذي العقر أقحافاً جماجمها

٤- إذا سمر الخليفة نار حرب

قال جرير يمدح الحجاج:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح
صبرت النفس يا ابن أبي عقيل
ولو لم يرض ربك لم ينزل
إذا سمر الخليفة نار حرب
نرى نصر الإمام عليك حقا
تشدد فلا تكذب يوم زحف
عفاريت العراق شفيت منهم
وقالوا لن يجامعنا أمير
إذا أخذوا وكيدهم ضعيف
وأشمط قد تردد في عاه
إذا علقت جبالك جبل عاص
بأن السيف ليس له مرد
كأنك قد رأيت مقدمات
جلعت لكل محترس مخوف

فأسمع ذا المعارج فاستجابا
محافظة فكيف ترى الثوابا
مع النصر الملائكة الغضابا
رأى الحجاج أثقبها شهابا
إذ لبسوا بدينهم ارتيابا
إذا الغمرات زعزعت العقابا
فأمسوا خاضعين لك الرقابا
أقام الحد واتبع الكتابا
بياب يمكرون فتحت بابا
جعلت لشيب لحيته خضابا
رأى العاصي من الأجل اقترابا
إذا أفرى عن الرئثة الحجابا
بصينستان قد رفعوا القبابا
صفوفاً دارعين به وغابا

٥- أستم خير من ركب المطايا؟

وقال يمدح عبد الملك بن مروان ويذكر إيقاعه بأعدائه:

أصبحو بل فؤادك غير صاح
يقول العاذلات علاك شيب
يكلفني فؤادي من هواه
عشية همّ صحبك بالروح
أهذا الشيب يمنعني مراحى
ظعائن يجترعن على رماح

ولا يدري ما سمك القراح
وبعض الماء من سبخ ملاح
هجان اللون كالفردياح
كما ابترك الخليع على القداح
رأيت الموردين ذوي لقاح
بأنفاس وتتنظر امتياحي
ومن عند الخليفة بالنجاح
بسيب منك إنك ذوارتياح
زيارتي الخليفة وامتداحي
وأنبت القوادم في جناحي
وأندى العالمين بطون راح
بدهم في ملممة رداح
وما شيء حميت بمستباح
وأعظم سليل معتلج البطاح
جماحاً هل شفيت من الجراح
ألف العيص ليس من النواحي
بعشات الفروع ولا ضواحي
وبينت المراض من الصحاح

ظعائن لم يدن مع النصارى
فبعض الماء ماء رباب مزن
سيكفيك العواذل أرحبي
يعز على الطريق بمنكبيه
تعزت أم حزرة ثم قالت
تعلل وهي ساغة بنهها
ثقي بالله ليس له شريك
أغثنى يا فداك أبي وأمي
فإني قد رأيت عليّ حقاً
سأشكر إن رددت علي ريشي
ألستم خير من ركب المطايا
وقوم قد سموت لهم فدانوا
أبحث حمى تهامة بعد نجد
لكم شم الجبال من الرواسي
دعوت الملحدن أباً خيب
فقد وجدوا الخليفة هزبريا
فما شجرات عيصك في قریش
رأى الناس البصيرة فاستقاموا

٦- نال الخلافة إذ كانت له قدرا

وقال يمدح عمر بن العزيز:

من الخليفة ما نرجو من المطر

إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
ما زلت بعدك في دار تعرفني
كم بالمواسم من شعثناء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
ممن يعدك تكفي فقد والده
أنت المبارك والمهدي سيرته
أصبحت للمنبر المعمور مجلسه
نال الخلافة إذ كانت له قدرا
فلن تزال لهذا الدين ما عمروا
فما وجدت لكم نداء يعادلكم
إني سأشكر ما أوليت من حسن

٧- أتفخر تيم بالضلال!؟

قال يهجو قبيلة التيم رهط عمر بن لجا الشاعر:

أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
قد طال بعدك إصعادي ومنحدري
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
خبلاً من الجن أو مساً من النشر
كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور
زيناً وزين قباب الملك والحجر
كما أتى ربه موسى على قدر
منكم عمارة ملك واضح الغرر
وما وجدت لكم في الناس من خطر
وخير من نلت معروفاً ذوو الشكر

أنفخر تيم بالضلال ولم يكن
فما فخرت تيم بيوم عظيمة
ولو تستعف التيم أو تحسن القرى
ولو يمدفن التيمي ثم دعوته
وقد يحسن التيمي عقد نجافه
ولا يحتبني التيمي قدام بيته
وقد عمرت تيم زماناً وما يرى
وآية لؤم التيم أن لو عددتم
لهم حسب زاك ولا عدد مثري
ولا قبضوا إلا بخالفة صفر
ولكن تيماً لا تعف ولا تقري
إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
ولم يحسنوا عقد القلادة بالمهر
ولا يستر التيمي إلا على القدر
لنسوة تيم من حفاف ولا خدر
أصابع تيمي نقصن عن العشر

فما أوقدوا ناراً ولا دل ساريا
ونبتت تيباً قد هجوني ليدكروا

٨- أنا البازي المطل على نمير

وقال يهجو نمير وشاعرهم الراعي:

أعد الله للشعراء مني
قرنت العبد عبد بني نمير
أتاني عن عرادة قول سوء
أتلتمس السباب بنو نمير
أنا البازي المطل على نمير
فلا صلي الإله على نمير
وخضراء المغابن من نمير
وقد جلست نساء بني نمير
ولو وزنت حلوم بني نمير
فصبراً يا تيوس بني نمير
فغض الطرف إنك من نمير
لعلك يا عبيد حسبت حربي
إذا غضبت عليك بنو تميم
ألسنا أكثر الثقلين رجلا
تنح فإن بحري خندفي
تركت مجاشعاً وبني نمير

على حي تيم من صهيل ولا هدر
فهذا الذي لا يشتهون من الذكر

صواعق يخضعون لها الرقابا
مع القينين إذ غلبا وخابا
فلا وأبي عرادة ما أصابا
فقد وأبيهم لاقوا سبابا
أنحت من السماء لها انصبابا
ولا سقيت قبورهم السحابا
يشين سواد محجرها النقابا
وما عرفت أناملها الخضابا
على الميزان ما وزنت ذبابا
فإن الحرب موقدة شهابا
فلا كعباً بلغت ولا كلابا
تقلدك الأصرة والغلابا
حسب الناس كلهم غضابا
ببطن منى وأعظمه قبابا
ترى في موج جريته حبابا
كدار السوء أسرعت الخرابا

٩- رأيتك لا توفى بجار أجرته

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا
وما كان جار للفرزدق مسلم
يوصل حبله إذا جن ليلة
أتيت حدود الله مذ أنت يافع
تتبع في الماخور كل مربية
رأيتك لا توفى بجار أجرته
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم
تدليت تزي من ثمانين قامة
وإنك يا ابن القين لست بنافخ
فما وجد الجيران جبل مجاشع
ولامت قريش في الزبير مجاشعا
فغيرك أدى للخليفة عهده
فإن وكيعاً حين خارت مجاشع
وقبلك ما أخزى الأخطل قومه
رويدكم مسح الصليب إذا دنا
إذا حدثت قيس علي وخندف

١٠- أنسيت يومك بالجزيرة؟

وقال يهجو الأخطل وقومه بني تغلب وُعيّرهم هزائمهم أمام قيس عيلان:

قبح الإله وجوه تغلب إنها هانت عليّ مراسناً وسبالا

قبح الإله وجوه تغلب كلما
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد
المعرسين إذا انتشوا بيناتهم
والتغلبى إذا تنحى للقرى
أنسىت يومك بالجزيرة بعدما
حملت عليك حماة قيس خيلها
مازلت تحسب كل شيء بعدهم
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم
قال الأخطل إذ رأى راياتهم
قيس وخندف إن عددت فعالهم
ولو أن تغلب جمعت أحسابها
لا تطلبن خوولة في تغلب
لولا الجزى قسم السواد وتغلب

١١- ألا لا تخافا نبوتي في ملة

قال يفخر بنفسه ويعاتب قومه:

وإني لعف الفقر مشترك الغنى
جريء الجنان لا أهال من الردى
ألم أك ناراً يصطليها عدوكم
وباسط خير فيكم بيمينه
إذا سركم أن تمسحوا وجه سابق
ألا لا تخافا نبوتي في ملة

شبح الحجيج وكبروا إهلالا
وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
والدائبين إجارة وسؤالا
حك استه وتمثل الأمثالا
كانت عواقبه عليك وبالالا
شعثاً عوايس تحمل الأبطالالا
خيلاً تشد عليكم ورجالا
فسبى النساء وأحرز الأموالالا
يامار سرجس لا نريد قتالا
خير وأكرم من أيبك فعالالا
يوم التفاضل لم تزن مثقالالا
فالزنج أكرم منهم أخوالالا
في المسلمين فكنتم أنفالا

سريع إذا لم أرض داري انتقاليا
إذا ما جعلت السيف من عن شماليا
وحرزاً لما أجاتم من ورائيا
وقابض شر عنكم بشماليا
جواد فمدوا وابتسطوا من عنانيا
وخافا المنايا أن تفوتكما بيا

أنا ابن صريحي خندف غير دعوة
وليس لسيفي في العظام بقية

١٢- أنا الذائد الحامي

وقال يفاخر برهطه بني يربوع:

أنا الذائد الحامي إذا ما تخمطت
فما ناصفتنا في الحفاظ مجاشع
ويوم عبيد الله خضنا براية
لنا ذادة عند الحفاظ وسادة
إذا ركبوا لم ترهب الروع خيلهم
عن المنبر الشرقي ذات رماحنا

١٣- تلقى السيوف بأيدينا يعاذ بها

وقال يفخر بقومه:

بنى لي المجد في عطاء مشرفة
المطعمون إذا هبت شامية
تلقى فوارسنا يحمون قاصينا
كم من رئيس عليه التاج معتصب
أسد إذا ألحقوا بالخيل لم يقفوا
تلقى السيوف بأيدينا يعاذ بها
فمن يرم مجدنا العادي ثم يقس
حكام فصل وتلفى في مجالسنا

يكون مكان القلب منها مكانيا
وللسيف أشوى وقعه من لسانيا

عرانين يربوع وصالت قرومها
ولا قايست بالمجد إلا نضيمها
وزافرة تمت إلينا تميمها
مقاديم لم يذهب شعاعاً عزمها
ولكن تلاقي البأس أنى نسيمها
وعن حرمة الأركان يرمى حطيمها

أبناء حنظلة الصيد المباحيل
والجابران وعظم الرأس مهزول
وفي أسنتنا للناس تنكيل
قد غادرتة جيادي وهو مقتول
نعم الفوارس لا عزل ولا ميل
عند الوغى حين لا تخفى الخلاخيل
قوم بقومي يرجع وهو مفضول
أحلام عاد إذا ما أهدر القيل

١٤- ولهت قلبي إذ علتني كبرة:

قال يرثي زوجه خالدة بنت سعد

لولا الحياء لهاجني استعمار
ولقد نظرت وما تمتع نظرة
ولهت قلبي إذ علتني كبرة
عمرت مكرمة المساك وفارقت
فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك
كانت مكرمة العشيعة لم يكن
ولقد أراك كسيت أجهل منظر
والريح طيبة إذا استقبلتها
وإذا سريت رأيت نارك نورت
صلى الملائكة الذين تخيروا
وعليك من صلوات ربك كلما
لا تكثرن إذا جعلت تلومني
كان الخليط هم الخليط فأصبحوا
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا

١٥- وأظلمت البلاد عليه حزنا

وقال يرثي عبد العزيز بن عبد الملك:

نعوا عبد العزيز فقلت هذا
فبتنا لا نقر بطعم نوم
فهو الأرض مصرعه فمادت
جليل الرزء والحدث الكبير
ولا ليل نكابده قصير
رواسيها ونضبت البحور

وقلت أفارق القمر المنير
وكل القوم محتسب صبور
يردّ على سقائه الحفير
بنفسي ذلك الحدث المزور
على عبد العزيز ومن يغور
وأحزنهم وزلزلت القصور

وأظلمت البلاد عليه حزنا
وكل بني الوليد أسرّ حزنا
وكيف الصبر إذ نظروا إليه
تزور بناته جـدثاً مقبياً
بكي أهل العراق وأهل نجد
وأهل الشام قد وجدوا عليه

١٦- بان الخليط

وقال يتغزل:

وقطعوا من حبال الوصل أفرانا
بالدار داراً ولا الجيران جيرانا
مروعاً من حذار البين محزاننا
أو تسمعين إلى ذي العرش شكوانا
أو ساقياً فسقاه اليوم سلوانا
هاجت له غدوات البين أحزاننا
ردي علي فؤادي كالذي كانا
يا أملح الناس كل الناس إنسانا
لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
أسباب دنياك من أسباب دياننا
يصبي الحليم ويكي العين أحياننا
أم طال حتى حسبت النجم حيراننا
قتلنا ثمّ لم يحين قتلانا

بان الخليط ولو طووعت ما بانا
حي المنازل إذ لا نبتغي بدلا
قد كنت في أثر الأظعان ذا طرب
لو تعلمين الذي نلقي أويت لنا
يا ليت ذا القلب لاقى من يعلله
ما كنت أول مشتاق أخي طرب
يا أم عمرو جزاك الله مغفرة
ألست أحسن من يمشي علي قدم
لقد كتمت الهوى حتى تهمني
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت
يا أم عثمان إن الحب عن عرض
أبدل الليل لا تسري كواكبه
إن العيون التي في طرفها حور

وهن أضعف خلق الله أركاننا
في النوم طيبة الأعطاف مبدانا
عن ذي مثنان تمج المسك والباننا
وحبذا ساكن الريان من كاننا
تأتيك من قبل الريان أحيانا
عن الصفاة التي شرقي حوراننا
عيش بها طالما احلولى وما لاننا
وكن يهوينني إذ كنت شيطاننا

فلهو حين تذهب مدبرات
فلما غاب عادت راتعات

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
طار الفؤاد مع الخود التي طرقت
مثلوجة الريق بعد النون واضعة
يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا نفحات من يمانية
هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتمكم
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعا
أزمان يدعونني الشيطان من غزلي

١٧- من حكمة

تروعننا الجنائز مقبلات
كروعة هجمة لمغار سبع

٣. الأخطل الكبير

(٢٠١هـ/٦٤٠م)

أ. نشأته وحياته:

الأخطل لغة هو السفية، وهو لقب أطلقه عليه الشاعر كعب بن جعيل لكثرة هجائه، وهو ولد الأخطل الكبير غياث بن عوف التغلبي في بادية الحيرة أو قرب الرصافة حيث مضارب عشيرته، وماتت أمه ليلي وهو طفل فتربى في كنف زوج أبيه، وكانت تقسو عليه، وتربى في أحضان زوجة أبيه بعد أن فقد أمه صغيراً، فأساءت معاملته وقد كانت نشأته في أرض الجزيرة السورية حيث يقطن التغالبة، وظهر الشعر مبكراً عنده فهاجى مجموعة من الشعراء منهم كعب بن جعيل، ودافع عن السيدة رملة بنت معاوية حين تعرض لها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في شعره فهجاه الأخطل بطلب من يزيد بن معاوية الأنصار قائلاً:

ذهبت قريش بالمكارم والعللا واللؤم تحت عمائم الأنصار
نظم الشعر صغيراً، ورشحه كعب بن جعيل شاعر تغلب ليهجو الأنصار، فهجاهم وتعززت صلته ببني أمية بعد ذلك، فقربه يزيد، وجعله عبد الملك بن مروان شاعر البلاط الرسمي، ينافح عن دولة بني أمية، ويهاجم خصومها.

أقحم نفسه في المهاجاة بين جرير والفرزدق حين فضل الفرزدق على جرير، وامتد الهجاء بينه وبين جرير طوال حياته، وقد جمع أبو تمام الشاعر نقائض جرير والأخطل.

ب. شخصيته: على الرغم من صلة الأخطل بملوك بني أمية فقد بقيت نظرتهم إلى الحياة نظرة البدوي الذي يهوى التنقل، ويرفض الإقامة في دمشق. وقد أثر في شخصيته عاملان:

الأول: الانتساب إلى قبيلة تغلب، وقد كان ذلك مدعاة للأنفة والتعالي عندهم.

والثاني: سوء المعاملة التي لقيها من زوج أبيه، وقد دفعه ذلك إلى الهجاء منذ الصغر.

ج - جوانب شعره: كتب الأخطل في الأغراض المهمة، فمدح وافتخر وهجا ووصف.

١- مديحه: اتجه مديح الأخطل إلى الأمويين أصحاب السلطة والمكانة وزعماء العرب ودافع عن حقيقتهم في الخلافة وأشار إلى مكاتبتهم وإلى عظمة خلفائهم وهو أحد أعلام شعراء الحزب الأموي الذين كانوا دعاة لسياسة الأمويين يقول الأخطل مادحاً الأمويين:

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألت بهم مكروهة صبروا
أعطاهم الله جداً ينصرون به لا جدّ إلا صغير بعد محتقر
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
وهذه الصفات التي أضفاها الشاعر على الأمويين هي صفات المدح عند الجاهليين، مما يدل على أن القيم في الدين الجديد لم تخترق نفس الشاعر بعد مرور ثلاثة أرباع قرن من الزمن على انتشار الإسلام، فهم يستحقون الخلافة لأنهم عادلون، منصفون، يقيمون شعائر الدين، بل لأنهم ينتسبون إلى جدّ كان زعيماً من زعماء العرب.

٢- فخره: نظراً لاعتداد الشاعر بانتسابه إلى قبيلة تغلب فقد افتخر الشاعر بشجاعة أبناء قبيلته الذين انتصروا على قبيلة تميم في منطقة الكلاب قرب البصرة، وفي ذلك يفتخر الأخطل راداً على جرير:

ردت تميم بالكلاب لو أنها باعت هناك زمانها بزمان
والخيل تردى بالكماة كأنها يوم الكلاب كواسر العقبان
برجال تغلب كالأسود ومعشر قتلوا طريفاً في بني شيان
وليس لفخر الشاعر أي مزية جديدة، تدل على تأثره بالواقع التراثي الجديد.

٣- هجاؤه: توجه شاعرنا الأخطل بهجائه إلى جرير غالباً، وإلى عشيرته كليب، فإذا ما هجا تحبّر هجاؤه بالفحش والإقذاع، كقوله:

أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر
قوم أنابت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر

ومن هجائه لقوم جرير قوله:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار
د- مميزات شعر الأخطل: لشعر الأخطل قيمه تاريخية عظيمة؛ لأنه يصور في نقائضه مع
جرير حوادث عاصرها أو يشير إلى حوادث تاريخية لم تذكرها المصادر، وقد برع الأخطل في
المدح والهجاء ووصف الخمرة، ويتهمه النقاد بالإغارة على معاني من سبقه من الشعراء،
والخشونة والالتواء في الشعر والتكلف أحياناً، وهو في نظرهم شاعر غير مطبوع كجرير،
لكنه واسع الثقافة اللغوية، تمثل التراث الأدبي وأحسن استغلاله، تميز شعره بجزالة الألفاظ
وصعوبتها ووضوح المعاني، وقد اعتبره النقاد تلميذاً نجيباً للنابغة الذبياني، فقد طبع هذا
الشاعر، وقال شعره دون تكلف، وله ديوان شعر مطبوع.

وقد تميز الأخطل بأنه شاعر الخليفة عبد الملك بن مروان، وأنه كان أحد الشعراء الثلاثة
الذين شكلوا فن النقائض، توفي غياث بن غوث في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة
(٩٢هـ / ٧١٠م).

هـ- نماذج من شعره:

١- مدح بني أمية:

تعد قصيدة الأخطل في مدح بني أمية درة من درر المديح، وهو يحاول أن يحسن حكمهم في
نظر الناس، ويجعل سلطتهم مستمدة من إرادة الله، بأسلوب عاطفي لا يخلو من مبالغة:

خليفة الله يستسقى به المطر	الخائض الغمرة، الميمون طائره
في حافتيه وفي أوساطه العشر	وما الفرات إذا جاشت حوالبه
ولا بأجهر منه حين يجتهر	يوماً بأجود منه حين تسأله
ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر	في نبعة من قريش يعصبون بها
إذا ألت بهم مكروهة صبروا	حشد على الحق، عيافو الخنا أنف
لا جد إلا صغير بعد محتقر	أعطاهم الله جداً ينصرون به
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا	شُمس العداوة حتى يستقاد لهم

هم الذين يبادرون الريح إذا قل الطعام على العافين أو قتروا
بنبي أمية نعماكم مجللة تمت فلا منة فيها ولا كدر

شرح المفردات:

الحوالب: جمع حالب: الأمواج. العشر: جمع عشرة: نوع من الشجر. الغمرة: الشدة.
الميمون: المبارك، وميمون الطائر: مبارك الطلعة. يستسقي به المطر: إذا دعا الناس الله به، أنزل
المطر ليمنه وبركته. اجتهره: نظر إليه وعظم في عينه وراعه جماله وهيئته. النبع: شجر صلب
تتخذ منه القسي، شبه به فروع قریش لرفعتها وشرفها. حشد على الحق: يعين بعضهم بعضاً في
نصرة الحق. عيافو الخنا: يكرهون الفحش. أنف: جمع أنوف: الأبي. ألت: نزلت. الجد: الحظ،
لا جد إلا صغير: كل حظ غير حظهم في الغلبة صغير محتقر. شمس العداوة: شديدة العداوة،
ومفرد شمس: شمس، يستقاد لهم: يطاع أمرهم، مجللة: عامة.

٢- حشد على الحق:

قال الأخطل يمدح بني أمية ويفضلهم على مناوئهم:

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة كان لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جداً ينصرون به لا جد إلا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذ كانوا موالية ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
لا يستقل ذوو الأضغان حرهم ولا يبين في عياداتهم خور
هم الذين يبارون الرياح إذا قل الطعام على العافين أو قتروا
بنبي أمية نعماكم مجللة تمت فلا منة فيها ولا كدر
بنبي أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
أفحمت عنكم بني النجار قد علمت عليا معد وكانوا طالما هدروا

حتى استكانوا وهم مني على مضض والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

٣- والمسلمون بخير ما بقيت لهم

وقال يمدح عبد الملك وبنو أمية ويفضلهم على منافسيهم ويشيد بالمواقع التي انتصروا

فيها:

وجد قوم سواهم خامل نكد

لما تلاقى نواصي الخيل فاجتلدوا

وليس ينقض مكر الناس ما عقدوا

سبياً من الله لا من ولا حسد

حنت مئاكيل من إيقاعكم نكد

أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا

وأدركوا كل تبل عنده قود

تنعي ابن عفان حتى أفرخ الصيد

فلن يوازنكم شيب ولا مرد

فهم أفاضلها الأعلون والسند

وليس بعدك خير حين تفتقد

تمت جدودهم والله فضلهم

هم الذين أجاب الله دعوتهم

ليست تنال أكف الناس بسطتهم

قوم إذا أنعموا كانت فواضلهم

ويوم شرطة قيس إذ منيت لهم

ويوم صفين والأبصار خاشعة

على الألى قتلوا عثان مظلمة

فثم قرت عيون الثائرين به

فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم

أيديكم فوق أيدي الناس فاضلة

وإن سألت قريشا عن ذوائبها

والمسلمون بخير ما بقيت لهم

٤ . الراعي النميري عبيد بن حصين الراعي

أ . حياته ونشأته:

أبو جندل عبيد بن حصين من نمير وهم بطن من عامر بن صعصعة في أواسط الجزيرة العربية. كان الراعي سيداً في قومه، أقام مراراً في البصرة، الملقب براعي الإبل. لكثرة وصفه الإبل ورعيها.

ينتسب إلى بيت شرف ورياسة في الجاهلية والإسلام، وكان وجهياً في قومه. عرف بتقلبه السياسي، وميله إلى التكسب بالشعر. توفي سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩ م.

ب . شعره:

شاءت المصادفات أن يعترض الراعي النميري بين جرير والفرزدق. فمال إلى الثاني، فهجاه جرير وفضحه بقصيدة لم يستطع الراعي ولا بنو نمير محو عارها.

وللراعي قصيدة استرحامية وجهها إلى عبد الملك بن مروان في إحدى سني القحط يشكو فيها من سعاته وجامعي الزكاة له، وللراعي أيضاً مقطوعة مدح بها سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب، وثمة نادرة تظهر مع الأخطل في البصرة في حضرة بشر بن مروان (المتوفى سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٤ م)، وحفظت باسمه ست مقطوعات قصيرة جداً، وقصيدة ينم مطلعها النسبي المتكلف عن أثر أرباب المختارات الشعرية، في حين أن بقية شعره يعكس مشاغل البدو الجياع الساعين وراء القوت، ولا ريب في أن الانحطاط الذي مُني به النميريون خلال القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي يفسر ضياع شعر كان غزيراً في زمنه غطى عليه شعر الثلاثي الفرزدق وجرير والأخطل.

إن تلك المقطوعات في حالتها الحاضرة والقصيدة المذكورة تميز على نحو جيد جمع آثار الحياة الصحراوية تحت طلاء إسلامي رقيق.

جعلله ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وكان شعره سائراً على الألسنة، برع في الهجاء والمديح ووصف الإبل، وله في الفخر والحماسة والوصف الوجداني، أما غزله فقليل، وهو مولع بالبديع في شعره، بدوي النزعة في الوصف.

ج- نماذج من شعره:

١- رسالة تظلم

- قسا جباة عبد الملك بن مروان على قوم الشاعر في جمع الصدقات، وارتكبوا مظالم منكراً، فكتب إلى الخليفة يشكوهم:

أخليفة الرحمن إنما معشر	حنفاء نسجد بكبرة وأصيلا
عرب نرى الله في أموالنا	حق الزكاة منزلاً تنزيلا
إن الساعة عصوك يوم دعوتهم	وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه	بالأصبحية قائماً مغلولا
يدعو أمير المؤمنين ودونه	خرق تجر به الرياح ذيولا
أخليفة الرحمن إن عشيرتي	أمسى سوامهم عزين فلو لا
قطعوا اليمامة يطردون كأنهم	قوم أصابوا ظالمين قتيلاً
فادفع مظالم عيالت أبناءنا	عنا وأنقذ شلوننا المأكولا
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا	لم يفعلوا مما أمرت فتيلاً
أخذوا العشار من الكرام ظلامه	منا ويكتب للأمير أفيلاً

شرح المضردات:

الساعة: جباة الصدقات، مفرده: ساع. عصوك: لم يتقيدوا بنصحك في الرفق بجمع الصدقات. دعوتهم: اخترتهم. أتوا دواهي: ارتكبوا أموراً عظيمة من الظلم. الغول: الأمر المنكر. العريف: رئيس القوم. الحيزوم: وسط الإنسان. الأصبحية: السوط. يدعو: يستجير. الخرق: الفلاة القفر الواسعة. تجر به الرياح ذيولاً: تعصف به الرياح. السوام: الأنعام السائمة.

عزير: فرقا. فلولا: مهزومة متفرقة. عليك أبناءنا: أثقلتهم وأفقرتهم. الشلو: ما يبقى من أعضاء الإنسان إذا افترسه السبع، جمعه أشلاء. فتيل: قليل. العشار من الكرام: أفضل الأنعام، وزكاة الأنعام عادة تؤخذ من أوساطها لا من فضلها ولا أسوئها، يريد: إن الجبابة كانوا يختارون في الزكاة أفضل الأنعام، ثم يسجلون أنهم أخذوا أفيلة: أي ابن مخاض صغير السن.

٥- مرة بن محكان

أ - حياته ونشأته:

مرة بن محكان، من بني سعد بن زيد مناة بن تميم، شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية، عاصر جريراً والفرزدق فأخلاً ذكره لنباهتها في الشعر.

ب - شخصيته:

كان مروءة سيد قومه من بني ربيع، وكان أبو البكر يوائمه في الشرف، وهما معاً من بني الربيع، فأذهب مرة ماله الناس، فحبسه عبيد الله بن زياد، فلما أطلقه ذبح أبو البكر مئة شاة، فنحر مرة ابن محكان مئة بعير، وقد نهى الإسلام عن الإسراف والتبذير، لكن هذه الوقائع تدل على رسوخ بعض العادات الجاهلية واستحكامها لدى سكان البوادي، ومنها الإسراف في الكرم والتباهي به واتخاذ سبيلاً للظهور الاجتماعي.

ج - شعره:

تداول المغنون شعر (مرة)، ولاسيما قصيدته البائية، ومن الذين غنوا شعره: ابن سريج، ومعبد، والغريص.

وفي شعر (مرة) نزعة بدوية واضحة، ونسج جاهلي محكم.

٦ - الكميت بن زيد الأسدي

أ - حياته ونشأته:

ولد في الكوفة سنة ٦٠ هـ، ونشأ في وسطها الثقافي المتطور، فاجتمع له علم واسع بلغه العرب وأشعرها وأنسابها، نظم الشعر صغيراً ولم يتخذها وسيلة إلى التكسب.

تشيع لأهل البيت متأثراً بجو الكوفة السياسي، فنظم الهاشميات وهي مجموعة قصائد يمدح فيها أهل البيت ويؤيد حقهم في الخلافة، ويندد بالحكم الأموي، وكان يرفض هبات بني هاشم مظهراً عزة نفسه وإخلاصه لمبدئه.

جره الصراع السياسي إلى مهاجمة اليمانية من أنصار بني أمية، فغضب عليه والي العراق لهشام بن عبد الملك، وكان يمانياً، لكنه استطاع أن يفر من السجن، ويلتمس العفو عنه من الخليفة، فأمنه الخليفة بعد أن مدحه وأظهر التوبة عن التشيع، لكنه لم يتورع عن رثاء زيد بن علي حين قتله والي العراق، وإعلان سخطه على بني أمية، فظل والي العراق يتحين الفرصة الملائمة للإيقاع به، حتى إذا وفد عليه مادحاً يريد أن يستل ضغنه دس إليه من قتله غيلة سنة ١٢٦ هـ.

ب- شعره

تمتاز هاشمياته بصدق العاطفة، وبراعة الجدل والحجاج، وتأييد حق الهاشميين بالخلافة، وحججه المنطقي؛ ما جعل النقاد القدامى يعدون شعره أشبه بالنثر ويرون فيه خطيباً لا شاعراً.

ج- نماذج من شعره:

١- خباء المكرمات

مدح خالص لبني هاشم، منزه عن كل غاية، ودفاع عن حقهم في الخلافة يقوم على الحجة والمنطق والبراهين العقلية. وهذه القصيدة من هاشمياته:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

ولم يلهنني دار ولا رسم منزل
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي
إلى النفر البيض الذين بحبهم
بنبي هاشم رهط النبي فإنني
فقل للذي في ظل عمياء جونة
بأي كتاب أم بأية سنة
فمالي إلا آل أحمد شبيعة
إليكم ذوي آل النبي تطلعت
يشيرون بالأيدي إلي وقولهم
فظائفة قد كفرتني بحبكم
فما ساءني تكفير هاتيك منهم
يعييونني من خبهم وضلالهم
وقالوا ترابي هواء ورأيه
بخاتمكم غضباً تجوز أمورهم
وقالوا ورثناها أباناً وأمننا
يرون لهم حقاً على الناس واجبا
يقولون لم يورث ولو لا تراثه
وعك ولخم والسكون وحمير
فإن هي لم تصلح لقوم سواهم
فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها
ألم ترني من حب آل محمد

ولم يتطرّبني بنان مخصب
وخير بني حواء والخير يطلب
إلى الله فيما نابني أتقرب
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
تري الحور عدلاً أين تذهب
تري حبهم عاراً عليّ وتحسب
ومالي إلا مشعب الحق مشعب
نوازع من قلبي ظمأ وألبب
ألا خاب هذا والمشiron أخب
وظائفة قالوا مسيء ومذنب
ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
على حبكم بل يسخرون وأعجب
بذلك أدعى فيهم وألقب
فلم أر غضباً مثله يتغصب
ومما ورثتهم ذلك أم ولا أب
سفاهها وحق الهاشميين أوّجب
لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وكندة والحيان بكر وتغلب
فإن ذوي القربى أحق واقرب
ويا حاطباً في غير حبلك تحطب
أروح وأغدو خائفاً أترقب

على أي جرم أم بأية سيرة
أناس بهم عزت قريش فأصبحت
خفضت لهم مني جناح مروة
أعنف في تقريظهم وأؤنب
وفيهم خباء المكرمات المطنب
إلى كتف عطفاه أمر ومرحب

شرح المفردات:

البيض: ج بيضاء: الحسان، وذو الشيب يلعب: وذو السن قد يهزه العشق، البيض: ج
أبيض: الرجل التقى، الشريف النبيل، بهم وهم أَرْضَى وأغضب: أغضب لغضبهم وأَرْضَى
لرضاهم، خفضت لهم جناح مودة: خضعت في محبتهم خضوعاً كاملاً، الكنف: الستر،
عطفاه: جانباه، جان: مجرم، الخباء: الخيمة، وقد كنى عن مكارم قريش بالخيمة التي حوت
كل المكرمات.

٢- كلام النبيين الهداة كلامنا

ومن هاشمياته أيضاً:

ألا هل عم في رأيه متأمل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم
لقد طال هذا النوم واستخرج الكرى
وعطلت الأحكام حتى كأننا
كلام النبيين الهداة كلامنا
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفه
فتلك ملوك السوء قد طال ملككم
تحل دماء المسلمين لديهم
وليس لنا في الفياء حظ لديهم
وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
فيكشف عنه النعسة المتزمل
مساوئهم لو كان ذا الميل يعدل
على ملة غير التي نتنحل
وأفعال أهل الجاهلية نفعل
ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فريقان شتى تسمنون ونهزل
فحتام حتام العناء المطول
ويحرم طلع النخلة المتهدل
وليس لنا في رحلة عليك المعول

عليهم وهل إلا عليك المعول
لأجوافها تحت العجاجة أزمّل
لأسيافهم ما يختلي المتبقل
غواتهم من كل أوب وهللوا
ولما تصبهم ذات ودقين ضئبل
لخائفنا الراجي ملاذ وموئل
سواهم يؤم الظاعن المترحل
إذا الليل أمسى وهو بالناس أيل
ليدفاً مقرور ويشبع مرمّل
ومن شعري المخزون والمتنخل

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى
ومن عجب لم أقضه أن خيلهم
كأنّ حسيناً والبهاليل حوله
إذا شرعت فيه الأسنة كبرت
ألا يفزع الأقسام مما أظلم
إلى الهاشميين البهاليل إنهم
إلى أي عدل أم لأية سيرة
وفيهم نجوم الناس والمهتدي بهم
فيارب عجل ما يؤمل فيهم
لهم من هواي الصفو ما عشت خالصا

٧ - عبید الله بن قیس الرقیات

أ- حیاته ونشأته:

عبید الله بن قیس الرقیات الملقب بقیس الرقیات؛ لأنه شبب بثلاث نسوة سمین جميعاً رقیة أصله من بطن مغمور من قریش وهم ربیعة بن أهیب من عبد شمس. ولد عبید الله في مكة حوالي سنة ٦٢٥ أو ٦٣٠ م؟ وقضى شبابه في مسقط رأسه في المدينة، وذهب في تاریخ غير معروف ولعله حوالي سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧ م إلى الشام واتصل بالولید بن عقبه، الذي صار فيما بعد والياً على الرقة، ولما شبت الاضطرابات التي رافقت تولي الخلیفة مروان بن عبد الملك تحول عبید الله نهائياً عن الحجاز، ودفعه ذلك إلى البحث عن حماية الكبراء في مكان آخر، فجاء عندئذ إلى الشام، وبعد سنتین وجدناه في حاشية حاكم سجستان طلحة الطلحات (المتوفى سنة ٦٥ / ٦٨٥) ورثاه بقصيدة، وفي السنة التالية انضم صراحة إلى حزب مصعب بن الزبیر أخي عبد الله بن الزبیر.

إن القصائد التي نظمها ابن الرقیات في مدح ابن الزبیر تفيض حماسة، ولكن القضاء على الثورة الزبیریة في العراق سنة ٧٢هـ/ ٦٩١ م، حمل الشاعر على الاختفاء في منطقة الكوفة، إلا أن شفاعة عبد الله بن جعفر جعلت الخلیفة عبد الملك بن مروان يعفو عنه فأصبح منذئذ شاعر الأمویین الأمين، ولكنه فضل ملازمة عبد العزيز بن مروان أخي عبد الملك ووالي مصر العام، ولحق به في مقامه في حلوان مرتبطاً به شخصياً، ويبدو أن قیس الرقیات مات في مصر بعد أن قارب التسعين عاماً من العمر.

ب- موضوعات شعره:

ولابد أن أثر ابن الرقیات الشعري كان ضخماً، إذ لم يبق منه سوى ألف بيت، فقد كان هذا الشاعر في نظر المؤرخین العراقيين، قبل كل شيء شاعراً غزلاً ناعماً ولطيفاً، ويجدر في الواقع عده أيضاً من المداحین، إن القضايا التي يثيرها هذا المظهر المزدوج في أثره، ذات صعوبة غير متعادلة حسبما يكون المقصود قصائد غنائية أم مدحية، فالأولى عادة ذات طول محدود، وكثير

منها لحن مما سهل انتقالها، وساعد على تقليدها، ويبدو أن القصائد المدحية لم تكن معرضة لمثل تلك الأخطار، ولكن المهداة إليه تدل حسب مشيئة الحوادث، وفي الإمكان في هذا الأثر الشعري أن نضع جانباً قصائد (المناسبات) شأن القصائد التي أوحاها إليه فراره إلى الشام والعزاء الذي وجده بالقرب من امرأة كوفية، والأمل الذي أثارته فيه نساء يمنيات - حمينه - ويسترسل الشاعر في تلك القصائد مع أفكار دون إدراجها في أطر ضيقة، ويمكننا تكوين فكرة عن أهمية المديح في شعر ابن قيس الرقيات إذا تذكرنا أن الديوان يضم قصيدتين في طلحة الطلحات، وخمس قصائد في مديح مصعب بن الزبير بالإضافة إلى مرثية، وقصيدتين في مديح عبد الله بن جعفر وخمس قصائد في مديح الخليفة عبد الملك بن مروان وأسرته المروانيين وقصيدتين في مديح عبد العزيز بن مروان وأهله.

وجاءت هذه المدائح في شكل قصائد تقليدية وكان بعضها حرفياً، قصائد فخفة مخصصة للإلقاء الاحتفالي، فإن الشاعر ينتقل طبعاً من مديح كبير الدولة أو الملك إلى مديح قبيلته أو أسرته، وقد وجه ابن قيس الرقيات مديحه إلى قريش جميعاً؛ ما أتاح له تعظيم نفسه، وهذا ما دعا الزبير بن بكار فيما بعد أن يقول: ((إن قيس الرقيات كان شاعر قبيلة قريش)) وكان قيس في شعر النسيب تقليدياً أعمى تارة ومحمولاً على إدخال تلميحات بالواقع تارة أخرى، ثم يعود ابن قيس الرقيات هنا وهناك إلى طريقة أسلافه في شبه الجزيرة، وثمة قصائد يظهر فيها الفخر البدوي ساذجاً سواء في الصيغة أو الموضوعات الوصفية أو المدحية.

ويصادف هذا التنوع في قصائده الغزلية مستعيداً حيناً الرواسم القديمة عن رحيل العشيرة ورحيل الحسنات في الهوادج والحزن الذي يثيره في نفسه الفراق، وعندئذ فهو لا يجد شيئاً فهو تارة يلتفت للدعابة، كما فعل مع أختين متساويتين في الجمال ويستحضر الشاعر مذكراً أو واصفاً حوادث من حياته العاطفية ومصادفاته وتبادل الرسائل وخيانات زوجية، بل وملاحظات عن الخلق النسائي، وتعتبر هذه القصائد والمقطوعات من نوع شعر المدرسة الحجازية ولا عجب من وجود فخر فيها؛ لأن المآثر هي المقصودة هنا أيضاً.

وتبدو الأداة الشعرية عند ابن قيس الرقيات زائغة، فليست البحور التي استعملها وهي ذاتها التي عرفت برجحائها عند شعراء زمنه ففي الديوان قصائد من المنسرح والخفيف أو

بحور طويلة، ولكنها موجزة كالكامل، ولعله ينبغي اعتبار هذه الظاهرة تأثيراً حجازياً؛ إذ للغة هذا الشاعر خصائصها، فهي بسيطة ومجردة من كل تكلف لفظي، تسبغ على العبارة بالرغم من الرواسم المحتومة واقعية هي عدوة التشدق، إن مكان ابن قيس الرقيات بين معاصريه لأهم مما كان يشيعة أرباب المختارات الشعرية، ولا جرم في أن شعره المدحي لا يستحق انتباهاً خاصاً، ولكن مقطوعاته وقصائده الغزلية تحدد، بالمقابل انفصاماً، فإن هذا الشاعر بتحرره من القسم الأكبر من الشعر الإبلي يبدو كممثل أصيل للاتجاهات المدنية فترى من خلاله أنها لم تكن محصورة في إطار الحجاز، بل أخذت تلامس مراكز عراقية وترسم ملامح صورة بشار خلف نصيب.

لقد برز في المديح، وكان يستهل قصائده بالغزل التقليدي، وهو يعد في الطليعة من شعراء الغزل المكين.

يمتاز شعره بالنقاء والعدوبة والصفاء بسبب ملازمته للمغنين، وهو أكثر شعراء الحجاز ملازمة للأوزان المجزوءة والقصيرة، وفي شعره حلاوة النغم وخفه الإيقاع.

أما شعره السياسي، ففيه افتخار بقريش ورجالاتها وأعمالها في الجاهلية والإسلام، وفيه تنديد ببني أمية وأعمالهم، ودعوة إلى حصر الخلافة في قريش، وتأييد الحق عبد الله بن الزبير بها.

ج- نماذج من شعره:

١- حبذا العيش

يأسى الشاعر من الفرقة والانقسام اللذين حلَّ بقومه قريش، ويمدح مصعب بن الزبير، ويمجد حكم الزبيرين في الحجاز، ويهجو بني أمية من قصيدة:

لم تفرق أمورها الأهواء	حبذا العيش حين قومي جميع
قريش وتشمتم الأعداء	قبل إن تطمع القبائل في ملك
بيد الله عمرها والنفناء	أيها المشتهي فناء قريش
لا يكن بعدهم لحي بقاء	إن تودع من البلاد قريش
س تـمـيتن غـيرك الأدواء	لم نزل آمنين يحسدنا النـا

م كرام بكت هذه السماء على قو
نحن منا النبي الأمي والصديق
وقتيل الأحزاب حمزة منا
وعلي وجعفر ذو الجناحين
والزبير الذي أجاب رسول الله
والذي نغض ابن دومة ماتو
فأباح العراق يضرهم بالسيف
إنما مصعب شهاب من الله
ملكه ملك رحمة ليس فيه
يتقي الله في الأمور وقد أفلح
عين فابكي على قریش وهل يرجع
معشر حتفهم سيوف بني العلاء
ترك الرأس كالثغامة مني
ليس لله حرمة مثل بيت
خصه الله بالكرامة فالبا
حرقته رجال لخم وعك
فبنيناه بعدما حرقوه
كيف نومي على الفراش ولما
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي
أننا عنكم بني أمية مزور
إن قتلي بالطف قد أوجعتني

م كرام بكت علينا السماء
منا المتقي والخلفاء
أسد الله والسناء سناء
هناك الوصي والشهداء
في الكرب والبلاء بلاء
حي الشياطين والسيوف ظماء
صلتاً وفي الضراب غلاء
تجلت عن وجهه الظلماء
جبروت ولا به كبرياء
من كان هممه الاتقاء
مافات إن بكيت البكاء
ت يخشون أن يضيع اللواء
نكبات تسري بها الأنبياء
نحن حجابيه عليه الملاء
دون والمعافون فيه سواء
وجذام وحمير وصداء
فاستوى السمك واستقل البناء
يشمل الشأم غارة شعواء
عن براها العقيلة العذراء
وأنتم في نفسي الأعداء
كان منكم لئن قتلتهم شفاء

شرح المفردات:

الأهواء: مفرده: هوى: الميل من نوازع النفس، تودع: تذهب ويفنى ملكها، مصعب: هو مصعب بن الزبير: أخو عبد الله، الشهاب: الكوكب، تجلت: تكشف - الجبروت: الكبر والتجبر.

٢- رجال هم الأقتال من يوم راهط

وقال ابن الرقيات يذكر موقعه الحرة ويمدح مصعباً:

تذكرني قتلى بحرة راقم	أصبيت وأرحاماً قطعن شوابكا
وقد كان قومي قبل ذاك وقومها	قد أوروها عوداً من المجد تامكا
هم يرتقون الفتق بعد انخراقه	بحلم ويهدون الحجيج المناسكا
فقطع أرحام وفضت جماعة	وعادت روايا الحلم بعد ركائكا
فهل من طيب بالعراق لعله	يداوي كريماً هالكاً متهاككا
فلولا جيوش الشام كان شفاؤه	قريباً ولكني أخاف النيازكا
أخاف الردى من دونها أن أرومها	وأرهب كلباً دونها والسكاسكا
رجال هم الأقتال من يوم راهط	أجاز والغوار بيننا والتسافكا
فلا سلم إلا أن نقود إليهم	عناجيج يتبعن القلاص الرواتكا
إذا حثها الفرسان ركضاً رأيتها	مصاليت بالذحل القديم مداركا
تدارك أحرانا ونمضي أماننا	وتتبع ميمون النقيبة ناسكا
إذا فرعت أظفاره من قبيلة	أمال على أخرى السيوف البواتكا
على بيعة الإسلام بايعن مصعبا	كراديس من خيل وجمعاً ضباركا
نفيت بنصر الله عنهم عدوهم	فأصبحت تحمي حوضهم برماحكا
تداركت منهم عشرة نهكت بهم	عدوهم والله أولاك ذالككا

٨- قطري بن الفجاءة

أ - حياته ونشأته:

أبو نعام، قطري بن الفجاءة المازني التميمي، رئيس من رؤساء الأزارقة وهم فرقة من الخوارج، وشاعرهم وخطيبهم.

خرج في زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق عن أخيه عبد الله بن الزبير وظل قطري عشرين سنة يقاتل في سبيل معتقده، إلى أن عثرت به فرسه فاندقت فخذته فمات سنة (٦٩ م) كان قطري ثائراً يؤمن بالثورة المسلحة، ويرى أن الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد لانتصار المبدأ، وكان يلوم القعدة من الخوارج، الذين كانوا يؤثرون نشر دعوتهم بالأساليب السلمية دون القتال في سبيلها.

ب- شعره:

شعر قطري يصدر عن التزام بعقيدته السياسية، يتسم بالحرارة والصدق والصرامة، ويعتمد على معاني القرآن الكريم وأسلوبه، فيكثر فيه من التضمين والاقْتباس، وتشيع فيه الحكمة.

ج- نماذج من شعره:

١- أقول لها

نفس قوية جبارة تستهين بالموت في سبيل المعتقد، يرفدها إيمان لا يتزعزع وشجاعة وتصميم لا نجدها إلا عنه أصحاب المبادئ الذين نذروا حياتهم للأعمال الجليلة.

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبرا	فما نيل الخلود بمستطاع
وماطول الحياة بثوب مجد	فيطوى عن أخي الخنع اليراع

وسبيل الموت غاية كل حي
وداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم
وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة
إذا ما عد من سقط المتاع

شرح المضردات:

أقول لها: أقول لنفسي. طارت شعاعاً: تمزقت خوفاً وهلعاً. لن تراعي: لن يصيبك.

٢- يوم دولاب

قال في يوم دولاب:

لعمرك إني في الحياة لزاهد
وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
لعمرك إني يوم أطمم وجهها
على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت
طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طففت علماء بكر بن وائل
وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أريوماً كان أكثر مقعصا
يمج دماً من فائض وكليم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
بجنات عدن عنده ونعيم

٣- ولا بد من بعث الألى في المقابر

وقال قطري سبرة بن الجعد الخارجي على اللحاق بأصحابه ومفارقة الحجاج

أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى
وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل
ولا بد من بعث الألى في المقابر
فراجع أبا جعد ولا تك مُغضيا
على ظلمة أعشت جميع النواظر

٩- عمر بن أبي ربيعة

الغزل الصريح

أ - حياته ونشأته: في أجواء مكة المكرمة وفي بيئة كثر فيها الجواري الفارسيات والروميات وانتشر فيها الغناء وتدفقت أموال الفتوحات، ولد الشاعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي سنة (٢٣هـ) من أسرة ثرية وتوفي أبوه قبل أن يتجاوز عمره (١٢ عاماً) فترى في كنف أمه تربية دلال ونعيم في المأكل والملبس شاباً أنيقاً جميلاً تدفق ينبوع الشعر على لسانه، ابتعد عن الأحزاب السياسية في عصره، وتجول في الحجاز واليمن والعراق والشام، وأصبح هذا الشاعر شخصية خيالية واضطربت أخباره كاضطراب شخصية عنتره. وقد انقطع في أواخر حياته عن اللهو والطيش وحلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة.

توفي عمر بن أبي ربيعة سنة (٩٣هـ) له ديوان شعر يشتمل على بضعة آلاف بيت أغلبها في الغزل.

ب - الأغراض الشعرية عنده: على اعتبار أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة قد انصرف عن السياسة واتجه إلى حياة اللهو والترف، فإن شعره قد انصب على المرأة وما يتعلق بها من محاسن ومجالس وأنس ووقوف على الأطلال.

١- الوقوف على الأطلال: لم يحاول الشاعر في معظم قصائده أن يلتزم نهج القصيدة الجاهلية، وإن حرص أحياناً في أن يكون مقلداً في وقوفه على الأطلال، فهو في بعض قصائده يطيل الوقوف على هذه الأطلال، وفي بعضها الآخر يهمل تلك الوقفة، وقد يقف على الأطلال في نهاية القصيدة:

أعرفت يوم لوى سويقة دارا هاجت عليك رسوماها استبارا
وذكرت هنداً فاشتكت صباية لولا تكفكف دمع عينيك مارا
ويقول أيضاً منهيماً بعض قصائده بالوقوف على الأطلال:

يا ليتني مت ومات الهوى ومات قبل الملتقى واصل
يا دار أمست دارساً رسمها وحشاً قفاراً ما بها أهل
قد جرّت الريح بها ذيلها واستنّ في أطلالها وإبل
وأطلال الشاعر عمر بن أبي ربيعة تذكّره بحكاياته مع صاحباته فتتسم هذه الأطلال
بالفرح والسرور على عكس أطلال الشاعر الذي تظهر رائحة الحزن من وقوفه على الأطلال،
كما أن أطلال الشاعر من رموز دارسة إلى أماكن حية تتحول مرتبطة بمشاعر ومناسك الحج
في مكة المكرمة والمدينة المنورة، يقول عمر بن أبي ربيعة:

فوالله ما أدري وإن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثان
ألم ترّبع على الطلل المريب عفا بين المحصّب فالطلب
حيّ المنازل قد تركز خرائبها بين الجريير وبين ركن كساب
فالمحصّب والطلب وجريير وكساب أمكنة واقعية زارها عمر بين مكة والمدينة.

٢. وصف المحاسن: أكثر الشاعر عمر بن ربيعة من وصف محاسن النساء، قل أن تمرّ
قصيدة دون أن يتعرض فيها الشاعر إلى وصف محاسن النساء:

تنكلّ عن واضح الأنياب متسق عذب المقبّل، مصقول له أشر
كالمسك شيب بذوب النحل يخالطه بلج بصهباء مما عتقت جدر
ويقول أيضاً في وصف العيون:

سحرتني الزرقاء من مارون إنما السحر عند زرق العيون
ويقول أيضاً في وصف مجموعة نساء:

وحساناً جواريّاً خفّرات حافظات عند الهوى الأحسابا
ويقول أيضاً في وصف عطور بعض النساء:

وتضوع المسك الذكي وعنبر من جيها قد شابه كافور
يفوح القرنفل من جيها وريح الينججج والعنبر

والشياء المميز أنه أجرى على لسان النسوة وصف حسنه وجماله وشبابه، وهذا ما يسمى بالترجسية:

وأنها حلفت بالله جاهدة وما أهلّ به الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس في شيء تسربه وأعجب العين إلا فوقه عمر
ولا ندري مبلغ الصدق الذي يكتنف قصائد عمر، والأوصاف التي وصفها في شعره.

٣. وصف حكاياته: اتخذ الشاعر عمر بن أبي ربيعة لشعره موضوعات اعتمدت على القص والحكاية، وما يظهر خلال ذلك من مفاجآت ومغامرات مرتبطة بالزمان والمكان، والمتصفح لديوان عمر بن أبي ربيعة يجد أن هناك قصصاً وحكايات بعضها استمدتها الشاعر من الواقع، والبعض الآخر نسجه من بنات خياله، وأضفى عليه عنصر التشويق، يقول عمر في وصف بعض حكاياته:

فبتّ رقيباً للرفاق على شفا أحاذر منهم من يطوف وأنظر
إليهم متى يستمكن النوم منهم ولي مجلس لولا اللبانة أوعر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور
فحين إذ ما فاجأها فتولت وكادت لمخصوص التحية تجهر

٤. الفخر: لم يكن عمر بن أبي ربيعة في موضوع الفخر قصائد كثيرة، ولكنه تعرض لوصف قومه إذ إنه ينتسب إلى قبيلة مخزوم، وهي قبيلة تتزعم الكثير من القبائل، ولها مكائنها المرموقة في مكة المكرمة، وعند قبائل العرب ذلك أنها ذات عز ومنعة ونفوذ وفعال كريمة وخصال حميدة نشرت الأمن والطمأنينة والنعم والفضل والأعطيات:

فهلا تسألني أفناء سعاد وقد تبدو التجارب لليب
سبقنا بالمكارم واستبحنا قرى ما بين مأرب فالدراب
نقيم على الحفاظ فلن ترانا نشل نخاف عاقبة الخطوب
ويمنع سربنا في الحرب شمّ مصاليت مساعر للحروب

لغة عمر بن أبي ربيعة الشعرية:

على اعتبار أن عمر يكتب لعامة الناس فإنه يستخدم لغة الحياة اليومية المعتمدة على السهولة والرقّة واللين والألفاظ التي يتبادلها المحبون مبتعداً عن النفور والغلظة والثقّل، ساعده على ذلك انتشار الغناء في حواضر الحجاز، وسعي المغنين لغناء أبياته التي كان يقولها في صواحيبه، كقوله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفنت أنفسنا مما تجتد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
وأيضاً:

ثم قالوا: تحبها؟ قلت: بهرا عدد الرمل والحصى والتراب
ومن ذلك نجد أن لغة عمر هي اللغة التي ما زالت تعيش إلى يومنا هذا، وكأن القصائد قد قيلت في عصرنا الحاضر.

ج- أهم الطوايع الشعرية في الغزل العمري:

١ - الأنية والتجدد: إذ إن كلّ قصيدة من قصائد الشاعر هي حبّ جديد يغطي الحبّ السابق وينزل منزلته، فهو في قصيدة يتعرف وجهاً جديداً يفتن بجماله، عاطفته، ثم لا تلبث أن تهدأ وهكذا. وهذه الصفة تعاكس صفة الديمومة والعمق التي يتصف بها الشعراء العذريون:

ثم قالت للتي معها لا تديمي نحوه النظر
إنه يا أخت يصر منا إن قضى من حاجة وطرا
٢ - الاستعلاء والفخر: وقد جاءت هذه الصفة للشاعر من كونه ينتسب إلى بيت سيادة وتجمع فيه الثروة والترّف والشباب والجمال والفراغ، وكل ذلك قد يؤدي بالإنسان أن ينحو به نحو النرجسية فيبدو مستعلياً على الآخرين مفتخراً بما لديه من صفات:

قالت لها أختها تعابثها لنفسدن الطواف في عمر
 قومي تصدي له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
 قالت لها: قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثري
 ٣ - إيثار الليل: نظر عمر إلى الليل على أنه مصدر السعادة والسرور بعكس المحبين الذين
 كانوا يرون فيه مصدر الهموم والآلام والأحزان، فليله كما يقول مرح وعبث ولقاء يتمنى أن
 يطول:

سمون يقلن ألا ليتنا نرى ليلنا دائماً أشهرا
 ٤ - الحضرية: وتبدو هذه الصفة، صفة التحضر والمدنية والابتعاد عن البداوة من
 خلال وصف الشاعر للباس وحديث وعطور وزينة صواحبه، يقول عمر في وصف
 رسالة كتبها إليه إحدى صواحبه:

أتاني كتاب لم ير الناس مثله أحد بكافور ومسكٍ وعنبر
 ٥ - التفاؤل: يبدو عمر بعكس الشعراء الذين كانوا يكونون ويتألمون بسبب البعد
 والحرمات فهو محب متفاءل؛ إذ إنه قد يترك واحدة لينتقل إلى أخرى، والنساء وافرة في
 المجتمع الحضري.

د- نماذج من شعره

١- وهل يخفي القمر؟

عم الرخاء والترف الحجاز في عصر بني أمية، فانصرف الشباب إلى اللهو والغزل بالنساء
 الجميلات:

هيج القلب مغان وصير دارسات قد علاهن الشجر
 ظلت فيه ذات يوم واقفا أسأل المنزل هل فيه خبر
 قلت قالت لأترب لها قطف، فيهن أنس وخفر
 إذ تمشين بجو مؤنق نير النبات تغشاه الزهر:

قد خلونا فتمنين بنا
قلن يسترضينها: منيتنا
بينما ينعتنني أبصرني
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى
قالت الصغرى، وقد تيمتها:
ذا حبيب لم يعرج دوننا
فأتانا حين ألقى بركة
قد أتانا ما تمنينا وقد

إذ خلونا اليوم نبدي ما نسر
لو أتانا اليوم في سر عمر
دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قد عرفناه، وهل يخفى القمر
ساقه الحين إلينا والقدر
جمل الليل عليه واسبطر
غيب الأبرام عنا والقدر

شرح المفردات:

المغاني: مساكن البشر المعمورة. الصير: مفردها صير، وهي الحظيرة للغنم والبقر.
دارسات: ذهبت معالمها. الأتراب: المتقاربات في السن. قطف: مفردها قطوف، وهي المرأة
التي تسير بخطى قصيرة. الأنس: التسلية والمتعة. الجو: الأرض المنخفضة. مؤنق: جميل
معجب. تغشاه الزهر: غطاه الزهر. ينعتنني: يذكرن صفاتي. القيد: المقدار. الميل: مسافة.
يعدو بي الأغر: أركب حصاناً له غرة بيضاء وأنا مسرع. لم يعرج دوننا: لم ينزل في مكان آخر
من قبل. ساقه الحين إلينا والقدر: جاء اتفاقاً (من غير موعد) وفي هذا الحين. البرك: الصدر،
وألقى جمل الليل بركة، أي: بدا الليل ينزل. اسبطر: امتد، غيب عنا، الأبرام: الملل والسام
القدر: التضييق وحجز الحرية.

١٠- النابغة الجعدي

أ- **حياته ونشأته:** اسمه حيان بن قيس أو عبد الله بن قيس أو قيس بن عدس من بني ربيعة بن جعدة، عمّر النابغة طويلاً، وكان لطول أجله أثر في ظهور توافقات زمنية مستبعدة الحدوث أدت إلى القول أنه عاش مئتي سنة، وقد حدد أحد المؤرخين ولادة النابغة في زمن النعمان بن المنذر الثاني مستنداً إلى قصيدة ذكرت فيها مفاخر قبيلة جعدة، ويقول ابن سلام: إن النابغة الجعدي أكبر من النابغة الذبياني، ومن اللغو الوقوف عند هذه الأوهام، ويمكننا تحديد ولادة الشاعر، على وجه التقريب في السنين الأولى من القرن السابع الميلادي، وكان الجعدي في بداية أمره شاعر قبائل، وتعكس أهاجيه لأفراد قبيلته بني قشير أصدقاء وقائع حقيقية.

وفد الجعدي وجماعة من قومه، على الرسول عليه الصلاة والسلام، في المدينة سنة (٩ هـ/ ٦٣٠ م)، فكان اسمه يومئذ معقولاً، ولكن النوادر المروية في البصرة عن هذا الحدث، والتي تعاورها المحذون فيما بعد مدعاة للريبة وملوثة بالخاصية القبليّة، والظاهر أن مكث النابغة في البصرة زمن أبي موسى الأشعري وحضوره معركة صفين مع علي بن أبي طالب يؤكّدان مواقف سياسية ليست بعيدة التوافق مع مبادهة نصرّة الأمويين التي ظهرت زمن معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة (٤١ هـ/ ٦٦١ م)، في الكوفة، وأن مجيء الجعدي إلى مكة معروف، وكان ذلك قبل القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز قبل سنة (٧٣ هـ/ ٦٩٢ م)، وإن مهاجاة الجعدي للشعراء وخاصة الأخطل والشاعرة ذات الشخصية الملغزة ليلي الأخيلية، لأشياء حقيقية، بالرغم من أن التفصيلات والتوابع تنم عن حوادث مجردة عن التاريخيّة.

وثمة بعض الدلائل الحاملة على الاعتقاد بأنه - الجعدي - استقر في مدينة أصبهان وفيها مات، وكان الفرزدق يتكلم عن الجعدي وكأنه يعني رجلاً من السلف الماضي.

ب- **شخصيته:** كان النابغة الجعدي في نظر علماء العراق، من ألمع الشخصيات التي صادفوها، وكان يعجبهم في النابغة وصفه الفرس، ثم ورود أبياته في المعاجم بوصفها شواهد

على الكلم النادر، كما أن مديح الرسول عليه الصلاة والسلام يتفجر بأسلوبه على مجموع الديوان مبرزاً إضافات ملموسة في حين أن الفخر يدور حول أقوال مكرورة.

ج- شعره: يبدو أن الشاعر كثير الاستعمال للقصيدة في إطارها التقليدي، فإن التأثيرات الإسلامية في شعر النابغة الجعدي، واضحة للعيان أما الاستيحاء اللفظي فنشعر به في وصف الصحراء أو المشاهد الحيوانية، أما الفخر فتقليدي شكلاً، وموضوعاً؛ ويؤلف الفخر كما هي الحال دائماً تضاداً في قصائد الهجاء المصوبة، أحياناً إلى اليمنيين، أو إلى القشيريين في أغلب الأحيان.

وتتميز شاعرية النابغة الجعدي في ذكر المثالب التي لم يشعر الناس بأبعادها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلا بذكر الوقائع التي تتناقلها الأوساط البدوية، وثمة مثال على ذلك في قصيدة مشهورة للجعدي عنوانها (الفاضحة).

١١ - الطرماح بن حكيم

أ- حياته ونشأته: ينتمي إلى أسرة مشهورة في ثعل وهي من قبيلة طييء. إن اسمه الغريب (الطرماح) ومعناه الطويل القامة أطلق على شخص آخر من طييء. لم يعرف تاريخ ولادة الطرماح ولعله حوالي سنة (٤٥ هـ / ٦٦٠ م) في الشام، وليس في السواد العراقي كما ذهب بعضهم، ولا ريب في أنه وفد، وهو شاب، على الكوفة مع من وردها من جيوش أهل الشام فتأثر بدعوة الخوارج، ثم اعتقد على الأرجح بعد سنة (٦٥ هـ / ٦٨٤ م)، مذهب الشراة الأزارقة المتطرف.

عبر الطرماح عن اشتياقه لزوجته وولده اللذين بقيا في العراق حين كان يعاني شظف العيش في كرمان، ويقول الجاحظ: إن الطرماح كان مؤدباً في الري شمالي فارس وأنه تميز بسلطته على الصبيان، ومن المؤكد أن الطرماح تعقل مع تقدم السن، وجحد مذهب الأزارقة الذين يأبون التقية، وقد حلا للمؤرخين التركيز على محبته الكاملة للشاعر الشيعي الكمي الذي كان، إجمالاً، خصماً له، وغدا الطرماح بعد سنة (٨١ هـ / ٧٠٠ م) قاهر الخوارج.

ويمكن تعليل ذلك التراجع بعامل عنصري، فقد أبدى الطرماح في وقت مبكر عداءً حاداً عرف عهدئذ بين اليمنيين والقيسيين مما حمل الطرماح بحكم أصله الطائي وبالتالي اليمني، على التقرب من المهلبين الذين تجمعهم به أرومة واحدة، وفي هذا العهد صار الطرماح الناطق بلسان اليمنيين؛ ما قاده إلى مخاصمة القبائل القيسية بعنف، وخاصة بني تميم وفي سنة (٩٦ هـ / ٧١٤ م) ندد الطرماح عند مصرع القائد قتيبة بن مسلم الباهلي على يد القواد القيسيين في شرقي فارس، بمدبري المؤامرة، بخلاف اليمنيين الذين ظلوا أمناء وبقي الطرماح سنين طوالاً مقتفياً أثر المهلبين وخاصة يزيد، ثم ولده مخلد وبعد فقدان أسرة المهلب الخطوة لدى الخلافة سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) بحث الطرماح، بطبيعة الحال عن حام يماني آخر فوجده في شخص حاكم العراق خالد القسري بين سنة (١٠٥ هـ / ٧٢٤ و ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م).

إن امتداحه خالداً هذا عدو الخوارج اللدود يدل جيداً على موقف الشاعر النهائي وما بعده، ومن المرجح أن يكون الطرماح قد عقد، أثناء القسم الأخير من سيرته الشعرية، علاقات مع شعراء معاصرين كرؤبة بن العجاج على وجه الخصوص، ويقول رؤبة: إن الطرماح نهج نهج الأعراب مما أسبغ على شعره طابع التكلف الذي عرف به.

ب موهبته: إن موهبة الطرماح الخطابية ومواهبه الشعرية التي امتدحها الجاحظ جعلت منه فيما بعد داعية مسموع الكلمة، ومن الجائز أن يكون الطرماح اشترك في وقت من أوقات حماسته ببعض الحركات الثورية في جنوبي فارس.

كان الطرماح في نظر العلماء العراقيين وجميع النقاد الذين تبعوهم، شاعراً تميزت طريقتة فقط بالموضوعات البدوية الملبسة بالغريب، وكان لغويو البصرة كالأصمعي يضعون ألفاظ الطرماح الفريدة المستعملة أول مرة، موضع ريبة كما يقول المرزباني. أما مدرسة الكوفة فكانت أحسن استقبالاً له، فقد عمد الطوسي ومن بعده ثعلب في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلى جمع شعر الطرماح، أما ابن قتيبة- والحق يقال- فقد اعتبر الطرماح مقلداً لشعراء سابقين، ولكن الطبري كان يشرح في الفسطاط بمصر أشعار الطرماح المحفوفة بالصعاب.

ج- موضوعات شعره: إن الأنواع الشعرية في الديوان من موضوعات العصر وهي: الرثاء والمديح والهجاء في شكل قبلي، بالإضافة امتداح اليمنيين مع الهزء من القيسيين، أما الفخر طبعاً فكثير التواتر فهو تارة ذو طابع بدوي أو مشذب عليه سمة السمو الأخلاقي واحتقار العامة، ثم إن الوصف وافر جداً يعالج موضوعات تقليدية كالديار المهجورة والنساء الراحلات، وحيوانات الصحراء إن الاستيحاء السياسي في هذه الأشعار يختلط بالمديح والثلب القبلي، وليس لموضوع نضال الخوارج ضد الملوك أي أثر، ولا ريب في أنه حذف، وعلى هذا فإن البيت القائل:

بهم نصر الله النبي وأثبتت عرى الحق في الإسلام حتى استمرت
ليستحضر الجراً التي أجازها الشاعر لنفسه، ونكاد لا نسمع أحياناً صرخة تمرد تعبر عن
تمني الشاعر الموت في سبيل قضيته، أو تنبئ عن التشبث القاطع:

والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشاري
إن بقايا شعر الطرماح، كما نرى لأبعد من أن تثبت التشاكل المحزن الذي أراد علماء
العراق وجوده في الشعر المذكور، وكذلك نجد عدم التجانس في الأسلوب واللغة، فإن ألفاظ
الطرماح أبعد من أن تحمل دوما طابع الاستيحاء اللفظي، فإن اللغة في غزلية ليلي وقصائد
الثلب القبليّة مصحوبة بالنسب أو غير مصحوبة به التقليديّة، ولكن دون تكلف الغريب.

د- رأي النقاد فيه: إن وضع الطرماح في مكانه الحقيقي بين شعراء زمانه لأمر محفوف
بالمخاطر، ولعل معاصريه كانوا على حق عندما اعتبروه ممثلاً للجاهلية المتبدية مع كل ما
تحتمله هذه من تصنع ومهارة خرقاء، فإذا وقع هذا الشاعر الحضري في شرك لعبته، فهو لا
يبدو اليوم في نظر النقد، إلا في ملامح مقلد مجتهد وليس بوصفه شاعراً حقيقياً.

١٢- ذو الرمة

أ- حياته ونشأته:

اسمه غيلان بن عقبة وهو من بني عدي بن عبد مناة في أواسط شبه الجزيرة العربية، يقال: إنه ولد حوالي (سنة ٧٧ هـ / ٦٩٦ م) وكان لذي الرمة إخوة ثلاثة كلهم شعراء، وكان راوية للراعي النميري، وجاء في خبر بصري أن ذا الرمة كان يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان يكتف بذلك، وظل ذو الرمة طوال سيرته الشعرية على صلة وثيقة مع قبيلته إلا أنه وفد في تلك الأثناء سواء على الكوفة أو البصرة، واتصل بالمهاجر بن عبد الله الكلبي والي اليمامة وبلال بن أبي بردة قاضي البصرة وواليتها المتوفى (سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م).

ولقي ذو الرمة في البصرة قراء ونحويين أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر النحوي؛ وإن خلافت ذي الرمة مع شعراء أمثال رؤبة وهشام المرثي التميمي غطت على أخبار الناس، وكذلك السهام النقدية التي كان يوجهها إليه جرير الذي فضل عليه الفرزدق، ويبدو أن حبه الفاشل لمية بنت طلحة بن قيس، وللمدعوة الخرقاء يتناسب ووقائع حقيقية حولها فيما بعد نزوع العراقيين إلى الخيال، والظاهر أن ذا الرمة مات شاباً حوالي (١١٧ هـ / ٧٣٦ م) وظلت ذكراه عالقة بعض الوقت في أذهان البدو في شرقي شبه الجزيرة العربية.

ب- شخصيته الشعرية:

وقد وجد علماء العراق في ذي الرمة خبيراً أريباً في الشعر الجاهلي، فإن شهرة ذي الرمة بصرف النظر عن بعض التحفظات كانت واسعة، وخاصة عند نحويي البصرة الذين كانوا يحلو لهم الاستشهاد بوصفه للحيوان، وكانوا في أواسط المغنين وهواة الفن يعجبون بقصائده لمية التي أصبحت بطلنة روائية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وإن كمية الكلمات النادرة التي نجدها في شعره أهاجت فضول المعجبين به.

إن بعضاً من القصائد ذات الشكل التقليدي الثلاثي الأجزاء مدائح قيلت في حماسة الشعراء، وإن أكثرها على كل حال قصائد غزل تغزل فيها الشاعر بميِّة وهي مستهله بوصف الديار البلاقع يتبع ذلك وصف المحبوبة على أن تنتهي بوصف ناقة الشاعر وتنقلاته في الصحراء، وإن الأثر الشعري الموضوع باسم ذي الرمة قصائد مؤلفة أحياناً من عناصر متجاورة، وإن كثيراً من تلك القصائد ذات استيحاء لفظي لبي كما يظهر التماسات بعض العلماء البصريين والكوفيين، وثمة العديد من القصائد التي تغزل بها بميِّة.

١٣ - نصيب بن رباح

أ- حياته ونشأته:

ولد نصيب في واحة - ودان - ولم يعرف تاريخ مولده في هذه الواحة الصغيرة بين مكة والمدينة، وكان على الأرجح عبداً أسوداً قضى طفولته في هذا الوسط المشرب بالتأثيرات البدوية والحضرية، وما يعرف من سيرته الشعرية مستخلص من معطيات التي اختلطت فيها عناصر ذات قيمة تاريخية محتملة، وحكايات مصبوغة بالخيال المروي، وكان - نصيب - في صباه يرعى الإبل، ثم لم يلبث أن شعر في سن مبكرة بالنفحة الشعرية، ففاتح بذلك أشياخه أثناء مكثه في المدينة المنورة، ولعله سلك مسلك مدرسة - جميل العذري - مفضلاً إياه على - كثير عزة - وكان نصيب مجيداً للقراءة والكتابة، يفرض نفسه على الناس (بفصاحته وتخلصه إلى جيد الكلام) وافتخر نصيب مرات عديدة في شعره بأصله ولونه، وفي حياة نصيب حادثة حاسمة، وهي أنه كان لبعض العرب من بني كنانة بـ(ودان)، فاشتراه عبد العزيز بن مروان فأعتقه، والظاهر أنه مكث عنده، بصورة متقطعة تقريباً في بلاط حلوان بمصر، فمدحه.

وفي سنة (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) رثاه بقصيدة عبّر فيها عن تعلقه واعترافه بالجميل، وكان نصيب بالرغم من مكثه عادة في المدينة المنورة يقصد دمشق أحياناً حيث غدا من مداحي الخليفة عبد الملك بن مروان ومن بعده سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز وهو الذي مدحه من قبل في المدينة عندما كان واليها، ولقي نصيب أيضاً حظوة عند يزيد بن عبد الملك وحسن مقامه بفضل إبراهيم بن هشام والي المدينة من قبل هشام بن عبد الملك ومدحه في مصيفه الشامي بالرصافة، وعقد نصيب صلوات مع ممثلي الحكومة المركزية، كما أنه عاش في الوقت ذاته بعض أروستقراطيي المدينة أمثال ابن أبي العتيق، وعبد الله بن جعفر.

وتظهر أخبار ذات طابع نوادري، نصيباً عاشقاً في صباه وكهولته، فإن أشعاره في زينب وفي امرأة من خزاعة شاهد مريب على حوادثه الغرامية واستولى المؤرخون فيما بعد على هذه الأخبار وبالغوا في نواحيها الخيالية.

وجاء في بعض الأخبار المبعثرة أن الشاعر كان على صلوات وقتية أو طارئة مع نظرائه من الشعراء، ومن المستغرب أن نرى نصيباً يتبادل والفرزدق وجريراً والكثيرين من الشعراء الآخرين في وسط شبه الجزيرة العربية، أحاديث خطيرة، إن لقاءه مع عمر بن أبي ربيعة معقولة، ومضت السنون الأخيرة من حياته في مزيج من النور والعممة، ثم إن تاريخ وفاته غير مؤكد، مات على الأرجح في المدينة المنورة حوالي سنة (١١١هـ/ ٧٢٩ أو ١١٣هـ/ ٧٣١م)، تاركاً نصيباً وبتناً.

ب- شخصيته:

الظاهر أن نصيباً في زمنه أقام دعائم شهرته على موهبته في المديح، ومن الجائز أن يكون مع ذلك، قد تمتع ببعض السيورة في مجتمع المغنين والشعراء الغزليين والجمالين، اهتم جامعو المختارات الشعرية عرضياً وقتئذ بهذا الشاعر الذي اكتشف فيه العلماء على الأخص، شخصية غريبة صالحة جداً للإشادة بصفات الملونين، ولحن المغنون العراقيون بدورهم كإسحاق الموصلي أبيات نصيب من أجل جمهور رأى فيه أكثر فأكثر.

إن نصيباً قبل كل شيء مداح للخلفاء والأمراء الأمويين، يؤيد ذلك النوادر التي تشهر حياة الشخص، فإن كل شيء في هذا الجزء من شعره، أما باقي القصائد والمراثي في عبد العزيز بن مروان فهي مثال إيجابي وينبغي إلى جانب هذا النتاج الذي يقرن نصيباً - بكثير عزة-، فسح مجالاً لشعر غنائي يصعب تقييمه، وما تبقى منه لأبعد من أن يستحضر شعراً غزلياً من طبقة رفيعة، ولا نرى مثلاً نغمة جديدة تضيفها مقطوعة مثل هذه:

قفا أخوي إن الدار ليست كما كانت بعهد كما تكون
ليالي تعلقان وآل ليل قطين الدار فاحتمل القطين
فعوجا فانظرا أتبين عما سألناها به أم لا تبين؟
إن نصيباً مدين إجمالاً بشهرته الغزلية إلى جامعي المختارات الشعرية بالإضافة إلى تحول خيالي مروى طراً على شخصيته، أكثر منه إلى فحص موضوعي للوقائع والنصوص.

١٤- كثير بن عبد الرحمن

أ- حياته ونشأته:

هو كثير بن عبد الرحمن (ويكنى أبا صخر) من قبيلة خزاعة فهو يمني نسباً، ويظهر أن الانتهازية السياسية في لحظة من لحظات سيرته الشعرية حملته على التبرؤ من أصله اليمني والانضمام إلى فرع من كنانة، فربط بهذا الانحراف نسبه من بعيد بقريش في مكة أي بالأمويين. ولم يعرف تاريخ ولادته ولعله عام (٤٣هـ أو ٤٥ هـ / ٦٦٣ / ٦٦٥ م)، في ضواحي بيسان بين المدينة وخيبر.

ب- صورته الجسدية:

وثمة شهادات عدة تصفه بأنه كان قصيراً هزيلاً، ضخم الرأس، أحمر الوجه، وقد حرمت عليه بشاعة خلقته الظهور بمظهر الفتان، ولكنها أثارت فيه آلاماً عدة، فإن مزاجه الشكس وحساسيته كوّنا كما يقال أرضية خلقه.

ج- كثير وجميل بن معمر:

وبما أن كثيراً كان يقطن قريباً من منازل عذرة فمن المرجح كثيراً أنه صادف جميل بن معمر العذري وانضم إلى مدرسته الشعرية، فكان روايته، وثمة أخبار رواها الزبير بن بكار تدفعنا إلى الظن بأن المرید سطا دون حياء على شعر أستاذه.

د- التدرج الشعري عنده:

كان كثير رواية جميل، وجميل رواية هدبة بن خشرم، وهدبة رواية الخطيئة، والخطيئة رواية زهير بن أبي سلمى وزهير رواية أوس بن حجر وهكذا (المدرسة الأوسية).

هـ- اعتناقه مذهب الكيسانية:

والمعتقد فرضياً أن كثيراً ترك قبيلته الأصلية ليستقر في المدينة، وظل في معزل عن ثورة الزبيرين سنة (٦٢هـ / ٦٨٢ م)؛ لأنه كان يومئذ قد انضم إلى العلويين؛ ذلك أن سلطان محمد بن الحنفية (المتوفى سنة ٨١ / ٧٠١ م) الروحي فرض عليه بعد معركة كربلاء بإيجاء أحد

المتحمسين الذين اعتنقوا مذهب الكيسانية في الكوفة، والظاهر أن كثيراً لم يلبث أن أعلن معتقده شعراً، وفي الواقع فإن الشاعر لم يشعر سواء بدافع من انتهازية أو طموح أو حذر، وذلك أسوة بموقف محمد بن الحنفية المتحفظ، أقول: لم يشعر بأي وازع يحول دون لجوئه إلى (التقية).

و- ولاؤه لبني أمية:

دخل - كثير - بعد القضاء على عبد الله بن الزبير سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) في خدمة خلفاء بني أمية في دمشق، وشارك بحياة المجتمعات التي عمّت الحجاز كله، وكرست وضعه بوصفه شاعراً شبه رسمي، ويبدو أن كثيراً سافر كثيراً في الوقت ذاته إلى مصر ملتحقاً بالأمير الحاكم عبد العزيز بن مروان، ولم يعرف عن نشاطه بصفته شاعراً في زمن الوليد بن يزيد وسليمان بن عبد الملك شيئاً، إلا أننا نشهد في زمن عمر بن عبد العزيز محاولة غير موفقة لاستعادة مكانته عند الخليفة وحاول - كثير - بعد أن شاخ وأصبح هزأة، في زمن يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) أن يحمل نفسه على مدح الخليفة المذكور.

ز- علاقة كثير بالأدباء في عصره:

وليس لكثير في النواذر التي تستحضر مكانته في أوساط العبث في المدينة، إلا القليل من اللمحات التاريخية الجديرة بالحفظ، وأن علاقات الشاعر مع ابن أبي عتيق راعي الأدباء والفنانين، مؤكدة كما أن هجاء - الحزین الدلی - كثيراً وإذلاله، معقول، أما دوره بالقرب من أستاذه جميل حسب رواية ابن سلام فيبدو خيالياً جداً، ومما لا ريب فيه أن - كثيراً - تهاجى مع - الأحوص - ولقي - كثير - نصيباً، وعمر بن عبد العزيز - والأحوص -، تحول الشاعر إلى بطل غرامي لعزة، وهي امرأة من بيوتات دمشق النازلة في الجنوب الشرقي من آيلة، نقطة الانطلاق، وكان أبوها أحد رواة الحديث، وقد عبر كثير في العديد من مطالع قصائده الغزلية عن حبه لتلك المرأة، وشك ابن سلام وأبو عبيدة بإخلاص - كثير - في هواه، ولكن اسم - كثير - بالرغم من ذلك قرن باسم - عزة الضمرية - لتصريحه بحبه وتشبيبه بها وطعم هذا الموضوع ببعض التضحيات الخيالية عن لقاء الشاعر بها.

ومات - كثير- في المدينة حوالي سنة (٤٠٥هـ / ٧٢٣م) تاركاً ولداً ماهراً في قرض الشعر
مات سنة (١٤١هـ / ٧٥٨م) وحفيداً شاعراً عمل على جمع آثار جده، وكان لكثير راو يدعى -
السائب الكناني- روى العديد من مغامرات سيده.

ذاق كثير طعم المجد في حياته، وكان مجده في نظر الجمهور مرتبطاً سواء بشخصيه المداح
أو الشاعر الغزلي، ويظهر أن بعض الأدباء في العراق قدروا فيه شاعر خلفاء بني أمية، حتى
أنهم ذهبوا أحياناً إلى تفضيله على جرير والفرزدق؛ أما في المدينة فقد أعجب القوم على
العكس بالشاعر الغزلي.

قال كثير:

فبخفض الشجون من أجام	بياض الدماث من بطن ريم
وبنيه من سوقة وإمام	لعن الله من يسب علياً
والكرام الأخوال والأعمام	أيسب المطهرون أصولا
من آل الرسول عند المقام	يأمن الطير والحمام ولا يأمن
كلما قام قائم الإسلام	رحمة الله والسلام عليهم

نماذج من شعره:

١- ربيع عزّة:

منذ وجد الإنسان على الأرض وجد الحب، ونهل الناس من مورده العذب واكتسوا بناره
القاسية، وتناقل الناس قصص العشق وأشعار العشاق.

قال كثير عزّة يشبب بعزّة:

قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت	خليلي، هذا ربيع عزّة فاعقلا
وبيتاً وظلاً حيث باتت وظلت	ومسا تراباً كان قد مس جلدها
ولا موجعات القلب حتى توت	وما كنت أدري قبل عزّة ما البكا
لعزّة من أعراضنا ما استحلّت	هنيئاً مريئاً غير داء مخامر

فما أنا بالداعي لعزة بالجوى
فلا يحسب الواشون أن صبابتي
فوالله ثم الله، ما حل قبلها
وإني وتهيامي بعزة بعدما
لكالمرتبجي ظل الغمامة كلما
ولا شامت إن نعل عزة زلت
بعزة كانت غمرة فتجلت
ولا بعدها من خلة حيث حلت
تخلت مما بيننا وتخلت
تبوأ منها للمقيل استقلت

شرح المفردات:

أعقلا: اربط، القلوص: الناقة الفتية. حلت: نزلت وسكنت. بات: قضى الليل. ظل:
قضى النهار. تولت: أصبحت واليه على قلبي، أي: ملكته بحبي لها. مخامر: مخالط. غمرة: شدة
عارضة. تجلت انكشفت وزال أثرها. الخلة: الحبيبة. التهيام: شدة الهيام. تخلت: عزمت على
ترك حبها. تبوأ منزلاً: نزل به وأقام. استقلت: مضت وارتحلت.

مفردات للشرح: استحلت، الجوى، زلت، المقيل.

١٥- إسماعيل بن يسار

أ- حياته ونشأته:

ولد إسماعيل بن يسار على الأرجح في مكة المكرمة حوالي منتصف القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي من أسرة أذربيجانية الأصل، ثم نفى بكونه من سبي فارس، ويبدو أنه لم يكابد حالاً وضيعة، بل عاش بوصفه مولى بني تميم بن مرة تميم قريش، واستطاع كالعديد من الأطفال ذوي المنشأ البسيط أن يكتسب في هذا الوسط قدرة عجيبة على امتلاك ناصية اللغة العربية، وكان أخواه محمد وإبراهيم شاعرين أيضاً، ويبدو أن بدايته في المدينة حيث أمضى طفولته ويفاعته كانت صعبة، ولعله كان مجرباً على مزاولة التهريج والشعوذة بسبب الحرمان، وينسب إلى الإحساس المذكور موقف التمرد الدائم الذي تعكسه أشعاره، وعبر عن الموقف المذكور أيضاً ارتباطه بالزبيرين الذين رأى فيهم أعداء الأمر الواقع، فإن إخلاصه لعروة بن الزبير المتوفى في المدينة حوالي (٩١هـ أو ٩٩هـ/ ٧٠٩-٧١٧) كان عميقاً.

وظل إسماعيل بعد مضي سنين من القضاء على ثورة الحجاز يجل هشام بن عروة (المتوفى سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) وكانت هذه العاطفة في أثناء ذلك أصلاً لشعوبيته وتعصبه للعجم اللذين نجد آثارهما، أحياناً كثيرة في شعره، بيد أن عدة مقطوعات من قصائد موجهة إلى الأمويين، سواء إلى السفيناني أو إلى المرواني، تثبت أن إسماعيل قام في آن واحد بعملية ارتدادية ضرورية فأنام بذلك موقفه المعادي للعروبة، فثمة مدائح في الخليفة عبد الملك بن مروان، وزيارات قام بها الشاعر خلفه الوليد بن يزيد بصحبة عروة بن الزبير، وعلاقاته الوثيقة مع الأمير الغمر بن يزيد وأخيه، والأمير الوليد بن يزيد تشهد على ذلك.

وتعلل النقطة الأخيرة إخفاق الشاعر لدى الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان يحترس من ولدي عمه، هشام والوليد، وفي خلافة الوليد بن يزيد التي لم تدم طويلاً، ثار إسماعيل لنفسه بعد أن كبر وشاخ فأشخصه الوليد إليه وسرحه إلى المدينة مثقلاً بالعطايا وفقدنا منذئذ

كل أثر لإسماعيل الذي حدد تاريخ وفاته فرضياً، حوالي سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م) تاركاً ولداً مُلئت أشعاره أيضاً بشعوبية عنيفة.

ب- شعره:

وينبغي اعتبار نتاج إسماعيل الشعري شبيهاً بنتاج نوع من الندوات الأدبية تلاقى فيها الموالي الأذربيجانيين، مع النظر بعين الاعتبار أيضاً إلى التحريفات والتضخيمات التي طرأت عليه، وذلك بحكم وجود أعضاء آخرين في الأسرة بدءاً من ولده، ومن الجائز أن يكون إسماعيل لقي في حياته رواجاً حقيقياً في المدينة. إن هذا الرواج مدين ببقائه إلى افتتاح المغنين الملحنين، وهم ذواتهم غير عرب والظاهر أن الرواج المشار إليه تأصل عن هذا الطريق، في العراق حيث كان يروي إسماعيل الموصلي عن إسماعيل نواذر معجبة، وحيث أعلن ابن سلام أستاذية إسماعيل في الشعر، وجدير بالملاحظة، أن ما من ديوان شعر يتضمن قصائد إسماعيل إلا كان معروفاً، ثم إن أصحاب المختارات الشعرية من جهتهم جهلوا هذا الشاعر الذي حفل به المؤرخون فحسب.

١٦- الأحوص

أ- اسمه ونشأته:

واسمه عبد الله بن محمد بن بني ضبيعة من قبيلة الأوس في المدينة، وكان لأسرته المقام الأعلى بين بيوتات الحجاز ولد حوالي سنة (٣٥هـ / ٦٥٥م).

إننا لا نعلم شيئاً عن طفولته ويفاعته، تلقى في مسقط رأسه تربية تأتلف وذلك المحيط وحياة المجتمعات فيه، وأدى تعصب الأحوص للمدينة، في كثير من الأحيان إلى معارضة القرشيين في مكة، وعلى الخصوص، أسرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وثمة نوادر نقلت عنه تظاهاه في شخصية رجل أرستقراطي منحل الأخلاق، مولع بالدسائس، حريص على امتيازاته، وقد سببت له فضائحه الأخلاقية، في كثير من الأحيان معاقبة من أولي الأمر، ومن المرجح أنه نظم الشعر في سن مبكرة سواء للتغزل، أو طلباً لرفد الخلفاء، وشغل الموقف الثاني مكاناً في خطط الشاعر أكثر مما كنا نظن عادة، وافتخر نفسه في أحد أبياته بأنه مدين بالقسم الأكبر من ثروته إلى موهبته المدحية، ومع ذلك فإن كل شيء غامض في هذا الجانب من سيرته الشعرية.

لقي الأحوص حظوة عند الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولعل الشاعر خرج إلى دمشق بدعوة من الملك الذي ما لبث أن نفاه إلى المدينة على أثر فضيحة أخلاقية، وللأحوص أيضاً قصيدة فخفخة لحت جزئياً، وهي مهداة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ولقيت محاولات الأحوص للجلوس بين جوقة مداحي الملوك نجاحات متنوعة، ويفسر إخفاقه عادة في إصراره على التماس التعويض عن فشله، في حياة المجتمعات المدنية.

ب- علاقته بأدباء عصره:

والظاهر أنه كان على صلة بالسيدة - سكينه - حفيده علي بن أبي طالب، وكذلك بالأرستقراطيين مثل ابن أبي عتيق وأبي بكر بن عبد العزيز بن مروان، وكان يحلو للأحوص على الأخص معايشرة المغنين الملحنين كابن سريج، وثمة أخبار تظهره عاشقاً للمغنية -

سلامة- وصادق الأحوص، أو كان على صلة كما هو متوقع، بنظرائه الحجازيين، وهناك نوادر تشهر هذا الجانب من حياته، أما علاقته- بكثير عزة- و- نصيب- فلم تكن ودية جداً. أما علاقته بعمر بن أبي ربيعة فكانت أكثر دماثة، وفضل الأحوص الفرزدق على جرير أثناء مرورهما بالمدينة.

إن الجانب الذي شغله الموسيقيون والمغنيات في حياة هذا الشاعر السئم حاسم جداً، فإن كثيراً من أشعار الأحوص مدينة في حفظها إلى رواجها في عالم عرف بانحلال الأخلاق، ولا يقل أهمية عن ذلك في سيرة الأحوص حبه المتتابع العنيف كما يبدو لسلامة المغنية، والأميرة أم جعفر وعبدية التي أحبها حباً عنيفاً متبادلاً، وخالط قصص غرامه فيما بعد، عبير مروى ولعله ينبغي التفكير بفسح مجال لغرام لم يبيح به.

ج- سجن الخليفة له:

وختمت السنون الأخيرة من حياة الأحوص بمأساة ففي خلافة سليمان بن عبد الملك حملت حسب الظاهر فضائح الأحوص ومهاجمته للسلطة، فعزم الخليفة على إنزال العقاب به، فسجنه وجلده وأوقفه على البلس، في سوق المدينة، ثم نفاه إلى دهلك وهي جزيرة في البحر الأحمر، فبقي في المنفى طوال خمس سنين بالرغم من الشفاعات في دمشق، ولم يطرأ في خلافة عمر بن عبد العزيز أي تعديل على سلوكه، وكانت خلافة يزيد بن عبد الملك سنة (١٠١هـ/ ٧١٧م)، بالعكس، سبباً في عودة حظوة الشاعر، وفي رحلة إلى دمشق لقي حفاوة كبرى عند الخليفة. وظهر الأحوص، في قصيدة هجاها المهلبين في موقف المدافع عن السياسة الحكومية، وفي هذا الجومات الشاعر الكلف بالحياة، في المدينة على الأرجح سنة (١١٠هـ/ ٧٢٨م). وقد عرف شعر الأحوص بالتأكيد، رواجاً مرموقاً لدى معاصريه، وخاصة المغنين في المدينة.

إني إذا خفي اللئام رأيتني كالشمس لا تخفى بكل مكان

١٧- العرجي

أ- حياته ونشأته:

هو عبد الله بن عمر بن عمرو حفيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، لقب بالعرجي؛ لأنه كان له عرج الطائف، ولد حوالي سنة (٧٥ هـ/ ٦٩٤ م) واشترك سنة (٩٨ هـ/ ٧١٦ م) بغزوة الروم بقيادة مسلمة بن عبد الملك، وكان له فيها بلاء حسن.

عكف كغيره من شبان الطبقة الأرسقراطية الحجازية على حياة الترف معيناً بذلك شهواته العنيفة وحب للنساء والصيد والظاهر أن العرجي المرتبط بحكم وضعه وأذواقه بشعراء أرسقراطيين آخرين قد أجبر بعد أن أقصته الحكومة على استعداد الجزء الأوفى من شعره من المغامرات الغرامية، حيث ترك فيها مزقاً من قلبه، وكان العرجي من المشاكسة والكبرياء ما لم يحل دون وضع مواهبه في خدمة أحقاده وضغائنه، وكان منشأ خلافه مع والي مكة المكرمة محمد بن هشام بضع قصائد هجائية وقصائد أخرى لمَّح فيها العرجي بسوء سلوك جيداء المخزومية أم محمد بن هشام، فاتخذ هذا من حادثة قتل كان سبباً للقبض عليه وجلده وشهر به، ثم حبسه ويقال: إن العرجي مات بعد أن مكث في السجن طويلاً قبل (١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م).

ب- الاهتمام بشعره:

ويبدو أن المؤرخين في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي اهتموا بالناحية النوادية من حياة العرجي أكثر من اهتمامهم بأثره الشعري ذاته، فلم يكن حينئذ ما يشعر بوجود أي جمع للديوان فقد استشهد الجاحظ بالعرجي قليلاً، ولم يستشهد به أكثر من البحري في حماسته وألف ابن المرزبان المتوفى سنة (٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م) مجموعة من أخبار العرجي ومنتخبات من أشعاره ضاعت، وأخذ الناس في زمن مبكر يؤلفون أبياتاً على طريقة الحجازيين عامة، وينسبونها إلى العرجي أو إلى عمر بن أبي ربيعة فنجم عن ذلك مصادفات لا تمكن مراقبتها.

١٨- الوليد الثاني

أ- حياته ونشأته:

هو ابن الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولد في الشام سنة (٩٠هـ / ٧٠٩م)، وتربى تربية تليق في مثل مقامه ونسبه، وورث عن أبيه (حب الاستماع، وخفة في الطباع تحولتا إلى ميل عنيف للتمتع بملذات الدنيا).

ب- شخصيته:

لما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة سنة (١٠٥هـ / كانون الثاني ٧٢٤م) ظل ابن عمه الوليد وكان عمره يومئذ ست عشرة سنة، طوال عشرين سنة بعيداً عن الملك فتولد فيه مركب الحرمان من الحق، مثيراً فيه في آن واحد تمرداً على الأمر الواقع، وحاجة إلى اللهو، ولم يلبث هذا الهوى المعاكس أن أخل بتوازن هذا المزاج الجموح القهار، فطلب الأمير ملجأ فوجده في الملذات والحب الرخيص والخمرة ووجده أيضاً في الرياضة العنيفة.

ج- تنحيه في الصحراء:

أعدت وراثته متأصلة في الأسرة الأموية للوليد النزعة البدوية إلى الصحراء فهجر المدن حوالي سنة (١١٦هـ / ٧٣٤م)، وذهب إلى بلاط الرصافة ليستقر في السهوب الصحراوية في الشام حيث أخذ ينتقل من مقام ملوكي إلى آخر، يعيش حياة سيد بدوي كبير، فتشكل حوله بلاط فيه شعراء مثل ابن ميادة ومغنين وملحنين، مثل عمر الوادي ومهرجين، وكان الخليفة العجوز هشام بن عبد الملك قد ساءت أعمال ابن أخيه الجنونية، فما كان من الوليد إلا أن رد بقصيدة هجاء حتى أخذ التوتر بين الرجلين شكل نزاع.

د- توليه الخلافة:

كان الوليد في ماء الأعدف عندما بلغه موت هشام (ربيع الثاني ١٢٥هـ / ٧٤٣م) فركب بسرعة إلى دمشق حيث بويع بالخلافة، وعندما بدأ عهد الشطط المفرط، ولما عاد الخليفة المسافر إلى الصحراء استدعى جميع الذين لم يرههم من قبل من مغنين وشعراء الحجاز أو

العراق، فزاره حماد مرات عديدة في الشام، وأبدى الوليد إعجابه بالشاعرين بشار بن برد والمطيع بن إياس ممثلي الجيل الجديد، وهكذا تتابع طوال سنين تحدى الوليد للرأي العام والفضائح، وقتل الوليد على أثر هجوم عسكري مفاجئ في مصيفه في البخراء في صحراء الشام في أواخر جمادى الثانية سنة (١٢٦هـ / ٧٤٤م). كان أيضاً شاعراً ذا موهبة ممتازة سلكت به نهجاً جديداً.

هـ- نماذج من شعره:

قال الوليد:

خرجت يوم المصلى	خبروني أن سلمى
فوق غصن يتفلى	فإذا طير ملىح
قال ها: ثم تعلى	قلت من يعرف سلمى
قال ها: ثم تدلى	قلت يا طير ادن مني
قال لا: ثم تولى	قلت هل أبصرت سلمى
باطناً ثم تعلى	فنكا في القلب كلىما

١٩ - قيس بن الملوح

أ- حياته ونشأته:

أصله من قبيلة ليث من كنانة، في ضواحي المدينة، وإذا صح أنه كان رضيع الحسين بن علي رضي الله عنهما تكون ولادته حوالي السنة الرابعة أو الخامسة الهجرية أي ٦٢٦ - ٦٢٧ ميلادية، وكانت وفاته حوالي سنة (٦٨ هـ / ٦٨٧ م).

كان ظهوره على أقرب زمن في أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، عاش حياة مجون في ظل السلطة الحاكمة، وقد يكون عشق المدعوة - لبني - حادثاً واقعياً، وثمة لمع نوادرية تظهره على قيد الحياة زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وهو من شعراء الغزل العفيف المشهورين في العصر الأموي.

ب- شخصيته العاشقة:

أصبح قيس بطلاً مروياً (ذا شكل روائي)، وقد ذاق قيس الذي تزوج لبني طعم حب سعيد يفوق الوصف، ولكن الزوجين لم يرزقا ولداً مما حمل أبا قيس على إرغام ولده على طلاق من أحبها وأحبته، فبدأت منذئذ حياة الألم انتهت بموت الحبيين (حسب إحدى الروايات) أو بزواجهما ثانية (حسب رواية أخرى) وكانت رواية قيس ولبني قد ألقت في خطوطها الكبرى في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، انطلاقاً من عناصر شفوية كانت رائجة في المدينة والكوفة والبصرة، ولعلها أيضاً في بغداد.

ج- اهتمام الأدباء به:

جمع كتاب الأغاني هذه الأخبار في ترجمة معدة لجمهور مثقف، فظهرت، بعد ربع قرن تجاوباً مع أصداء حكايات أكثر روائية، مؤلفات ذات استيحاء عذري تضمنت أخباراً تؤمل قيساً ولبني. وظل قيس ابن ذريح، في نظر المؤرخين العرب المسلمين شاعراً غزلاً على غاية من الامتياز، فالجاحظ مثلاً لم يذكر قيساً في البيان والتبيين، ويكاد ابن قتيبة يهمل ذكره فإن الشكوك التي تثيرها هذه الوقائع تكبر وتنتشر.

ويحملنا العدد الأكبر من الأبيات أو المقطوعات الملحنة في الحجاز أو العراق فيما بعد، على الاعتقاد بأنه قد نسب لقيس بن ذريح، أو نظم باسمه في بعض أوساط الحياة الغزلية طائفة من القطع الخفيفة اللطيفة تضمنت تأوهات قيس ونداءاته للبنى، ويتكشف هذا النتاج كله، بنغمته ولطافة لمحاته الفتانة، وبساطة اللغة، عن تأثيرات وملامح عذرية تحدد ظهوره على أقرب زمن في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

وتعد القصيدة الغنائية التي ذكرها القالي في أماليه عن الفراق نموذجاً كاملاً لهذا الاتجاه وتتناقض تناقضاً غربياً مع مقطوعة، منعزلة، نظمت على الطريقة البدوية الصرف.

د- حبه لليلي:

أحب ليلي بنت مهدي من بني عامر بن صعصعة، واشتهر بمجنون ليلي أو مجنون بني عامر.

كان قيس وليلي في صغرهما يريان الغنم لأهلها عند جبل يقال له ((التوباد)) فنشأت بينهما ناشئة حب استحكمت مع الأيام. ولما اشتهر حب قيس وليلي كره أبوها أن يزوجه لها وحملها على القبول بالزواج من رجل آخر فتزوجته كارهة، واشتد هيام قيس بليلي حتى خولط في عقله، ثم زال عقله جملة، ولكنه ظل يذكر ليلي في شعره وهذيانه، ويحاول زيارتها فأهدر الوالي دمه إن هو حاول الاتصال بليلي.

لليلي العامرية أشعار قليلة في المجنون، منها:

باح مجنون عامر بهـواه وكتمت الهوى فمت بوجدي

فإذا كان في القيامة نودي من قتيل الهوى؟ تقدمت وحدي

تركت قصة قيس وليلي أثراً عظيماً في الأدبين الفارسي والتركي.

قيس بن الملوح شاعر وراقيق، حلو الألفاظ، رائق الأسلوب، متأجج العاطفة، وقد نحلته الرواة شعراً كثيراً من جنس شعره. جُمعت أشعاره في ديوان مطبوع.

هـ- نماذج من شعره:

تذكرت ليلى

عرفت بوادي العرب عدداً من العشاق الذي تيمهم الحب العذري العفيف، واستولى على قلوبهم وعقولهم، حتى خرج بهم إلى الجنون، ومجنون ليلى أشهر هؤلاء العشاق. وهذه الأبيات من قصيدته المشهورة ((المؤنسة)):

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضا وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن: أن لا تلاقيا
لحا الله أقواماً يقولون: إننا وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
خليلي: لا والله لا أملك الذي قضى الله في ليلى، ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
فيارب، سوّ الحب بيني وبينها يكون كفافاً، لا عليّ ولا ليا
فأشهد عند الله أني أحبها فهذاها عندي، فما عندها ليا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها أو أشبهه أو كان منه مدانيا
واني لأستغشي ومابي نعسة لعل خيالاً منك يلقي خياليا
(ديوان قيس بن الملوح))

شرح المفردات:

الغضا: نوع من الشجر، وهو من نبات البادية، وسكان نجد هم أهل الغضا. لحا الله: قبح ولعن وأهلك. الكفاف: ما كان مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان. أستغشي: أتغطى، والغشاء: الغطاء.

مفردات للشرح: الشتيتان، قضى الله، الجوى، المداني.

٢٠- جميل بن معمر

أ- حياته ونشأته:

ولد جميل بن معمر العذري سنة (٤٠هـ - ٦٦٠م) في منطقة وادي القرى شمال الحجاز، بالقرب من المدينة المنورة في منطقة تسمى اليوم العلى - وهي مدائن صالح - وتوفي عام (٨٢هـ / ٧٠١م) في مصر بعد أن ترك الحجاز بسبب فشله في الوصول إلى ما أراد من الزواج من ابنة عمه بثينة، وعادة قبيلة عذرة أنه إذا اشتهر الحب بين رجل وامرأة رفض أهلها تلك المرأة لذلك الرجل، وهذا ما حدث مع جميل، حيث تزوجت بثينة، وعاد إلى ذكرها في شعره مشكاة أهلها إلى الوالي الذي أهدر دمه فرحل إلى الشام، ثم إلى مصر.

ب- شخصيته:

يحمل جميل بن معمر نفسية صريحة تتسم بالبساطة والسذاجة والوضوح اهتمامه بالجانب الروحي من العشق وكرّس حياته دون أن يصل إلى الهدف، وقد وصفه مؤرخو الأدب بأنه عاشق متميم عصف الحب بقلبه، وعبر عن ذلك بأشعار تدل على توحده في القضية التي يبحث عنها.

وقد حلل النقاد المهتمون بالجانب النفسي من الأدب شخصيات الشعراء العذريين فذهب بعضهم إلى أن هذا النوع من العشق والغرام ما هو إلا عقدة نفسية لم يستطع هؤلاء الشعراء التخلص منها، وهي من وجهة نظرهم ظاهرة نقص، لا ظاهرة كمال. وذهب آخرون إلى أن العذريين أكثر الناس صدقاً فهم قد بلغوا بذلك بعض الكمال الإنساني من حيث الوفاء للقضية التي يدافعون عنها.

ج- شعره:

صوّر جميل بن معمر في معظم أشعاره صورة معشوقته بثينة بأجمل تصوير، وعبر عن عواطفه الصادقة تجاهها وبكى واشتكى مما كان يلاقيه من العنت والعذاب والمرارة أثناء ابتعاده عنها فهو شاعر يحمل الفتى الغزل الذي يقنع من دنياه بالقليل من الحب، ولو كان ذلك بكلمة (لا) أو كلمة (أن)، أو بالمنى وبالأمل أو بالنظرة الواحدة:

وإنني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبال نظرة العجلى وبالحول تنقضي وأخبره لا نلتقي وأوائله
وجميل مح يملك قلبه الحب على الرغم من مطالبته بالقليل:

لها في سواد القلب بالحب ميتة هي الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وكثيراً ما كان شاعرنا يتمنى بعد غيابه عن وادي القرى أن يبات ليلة واحدة في مسقط
رأسه، وأن يلتقي ولو مرة واحدة بثينة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين فرداً بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمو حبها ويزيد
وقد كان الشاعر يتمنى أن يزداد عمر بثينة ولو كان ذلك نقصاً من عمره، ويعتبر أن شفاءه
وسعادته معلقة بيدها حتى أن الناس إذا رأوه هزياً نسبوا ذلك إلى بثينة:

وددت على حب الحياة لو أنها يزداد لها من عمرها من حياتيا
وأنت التي إن شئت كدرت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عدى يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
وفي الوقت الذي كان فيه بنو أمية مشغولين بالجهاد والفتوح كان جميل ينشد بعض أشعاره
لائماً إياهم على دعوته للجهاد:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
ولم يتغنَّ جميل بحب بثينة إلا بعاطفة صادقة ولسان عفيف وصباية مشوبة بنغمة حزن تملأ
نفس الشاعر وتأخذ قلبه كله.

٢١- مالك بن الريب

أ- **حياته ونشأته:** هو مالك بن الريب بن حوط من بني مازن بعض بني تميم. ولد في أول دولة بني أمية، ونشأ في بادية بني تميم بالبصرة.

كان مالك شاعراً جميلاً حين الهيئة شجاعاً فاتكاً، لا ينام إلا متوشحاً سيفه، وكان يقطع الطريق مع ثلاثة نفر، فطلبهم عامل المدينة مروان بن الحكم فهربوا إلى فارس، فلما ولي سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان سنة (٥٦هـ) لقي مالكا في طريقه فاستصلحه واستتابه، ثم اصطحبه معه، وأجرى عليه في كل شهر خمسمئة درهم.

ب- **ذهابه للجهاد:** ترك مالك أهله ورائه وسار مع سعيد بن عثمان إلى خراسان، ويروى أنه لما خرج تعلقت ابنته بثوبه وبكت، وقالت له: أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقي، فبكى وقال:

ولقد قلت لابتتي وهي تبكي بدخيل المهموم قلبا كئيبا
اسكتي قد حززت بالدمع قلبي طالما حزز دمعكن القلوبا
وعند فقول سعيد بن عثمان من خراسان مرض مالك في الطريق، فلما أشرف على الموت، سار سعيد وخلف عنده رجلين، ومات مالك في ذلك الموضع فدفناه. وقال قبل موته قصيدة يرثي بها نفسه، وكانت وفاته سنة (٥٦هـ) وهو في إبان شبابه.

ج- **شعره:** شعر مالك فصيح الألفاظ، سهل التراكيب، عذب، تغلب عليه وحدة الموضوع، إذ إن فيه وصفاً سائراً وقصصاً متعانقاً، وهو شعر وجداني يغلب عليه الوصف والحماسة.

د- **نماذج من شعره:**

شاعر يرثي نفسه

ضرب الفارس العربي في أرجاء الأرض ينشر لواء العدل والحق، فلما أحس بدنو أجله في بلاد الغربية تذكر دياره وأهله ورثى نفسه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد
وأشقر محبوبك يحمر عنانه
صريع على أيدي الرجال بقفرة
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا
وقوما إذا ما استل روعي فهيئا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي
يقولون: لا تبعد وهم يدفنوني
فيا راكباً إما عرضت فبلغن
وبالرمل منا نسوة لو شهدني
وقد كنت عطافاً إذا الخيل أدبرت

((المنتخب من أدب العرب))

شرح المفردات:

الغضا: شجر، واحده غضاة، ويكثر في نجد. أزجي: أسوق. القلاص: مفردها قلوص، وهي الفتية من الإبل. النواحي: مفردها ناجية، وهي الناقة السريعة. الرديني: منسوب إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح. أشقر، أي: فرس أشقر. محبوبك: قوي شديد. حم: نزل. الرحل: ما يوضع على ظهر البعير أو الناقة لركوب الرحال. وصاحباً رحله: الرجلان اللذان كانا معه. السدر: نبات معقم يغسل به الميت لئلا تفسد الجثة بسرعة. خطأ: احتفرا. المضجع هنا: القبر. فضل الرداء: طرفه. لا تبعد: جملة تقال في ندب الميت، أي: لا تبعد عنا. عرضت: أتيت العارض، وهي جهة البيامة من شرقي شبه جزيرة العرب. العطاف: الذي يكر ويحمل في الحرب. أدبرت: انهزمت. الهيجا: الحرب.

٢٢- أبو النشاش النهشلي

ثورة على البؤس

حياة تشرد ومغامرة، وثورة على المجتمع الذي لا يحقق العدالة بين أبنائه، ولكنها ثورة فردية لا تبذل من الواقع المؤلم شيئاً:

إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يرح
فللموت خير للفتى من حياته
ولم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى
فعش معذراً أو مت كريماً فإنني
ولو كان شيء ناجياً من منية
وسائلة: أين الرحيل؟ وسائل
مذاهبه أن الفجاج عريضة
وداوية بهاء يخشى بها الردى
ليدرك ثأراً أو ليدرك مغنماً

سواماً ولم تعطف عليه أقاربه
فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
ولا كسواد الليل أخفق طالبه
أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
لكان أثير يوم جاءت كتائبه
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
إذا ضنّ عنه بالنوال أقاربه
سرت بأبي النشاش فيها ركائبه
جزياً وهذا الدهر جم عجائبه

((من أشعار اللصوص ج١)) للملوحى

شرح المفردات:

يسرح: يرسل ماشيته إلى المرعى. السوام: المواشي. لم يرح: لم يعد مواشيه إلى مراحتها.
المولى: ابن العم والصديق. تدب عقاربه: يلقاك بالأذى والسوء. فعش معذراً: اطلب الرزق
فإن لم تنجح فقد قدمت عذرك. هاربه: هارب من الموت. أثير: طبيب من الكوفة دعي لعلاج
علي بن أبي طالب يوم طعنه ابن ملجم، وإليه تنسب صحراء أثير بالكوفة. يوم جاءت كتائبه:
شبه علم الطبيب ودواءه بالكتائب تحمي من الموت. الداوية: المفازة البعيدة الأطراف لا
يهتدي لطرفها، وقد تحفف ياؤها. البهاء: الفلاة لا ماء فيها. وهذا الدهر جم عجائبه: ما أكثر
عجائب هذا الدهر إذ يقذفني من مكان إلى آخر.

مفردات للشرح: الفجاج، ركائب.

٢٣- الأحيمر السعدي

من صعاليك العرب في عصر مروان بن الحكم، كان يعترض القوافل بين الحجاز والشام فيسلبها، ظفر به عمال الخليفة فحبسوه وقيدوه، لكنه تمكن من الفرار، يكاد مذهبه في التشرد وشعره يشبهان إلى حد بعيد مذهب الصعاليك في الجاهلية وشعرهم.

قال الأحيمر السعدي وهو من الشعراء الصعاليك في عهد بني أمية:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى	وصوت إنسان فكادت أطيّر
يرى الله أني للأناس لكاره	وتبغضهم لي مقلّة وضمير
فلليل إن وارانى الليل حكمه	وللشمس إن غابت علي نذور
واني لأستحيي من الله أن أرى	أجرر حبلاً ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره	وبعيران ربي في البلاد كثير
لئن طال ليلى بالعراق لربما	أتى لي ليل بالشام قصير

شرح المفردات:

صوت: نطق. الأنيس: هنا: الإنسان المؤمنس. لليل حكمه: لليل قضاؤه الذي لا اعترض عليه؛ لأنه يوجب عني رؤية الناس. للشمس نذور: حين تغيب الشمس أفرح لغيابها كأنه يفي لها نذراً قطعة على نفسه، ويريد في البيت: إنه يفرح لقدوم الليل وغياب الشمس؛ لأنه يحتجب في بيته فلا يرى الناس. أجرر حبلاً ليس فيه بعير: كناية عن فقره.

٢٤- النابغة الشيباني

أ- حياته ونشأته:

اسمه عبد الله بن مخارق من قبيلة ذهل وهي رهط من شيبان من قيس ربيعة ولد حوالي سنة (٦٠ هـ / ٦٨٠ م)، وعاش بين قومه في سهوب الفرات، ولم يفتد إلى الشام إلا بصورة متقطعة، وظل شأن العديد من رجال قبيلته على دين النصرانية، فترة من حياته، وفي قصيدة مدح بها الخليفة عبد الملك بن مروان يخلف النابغة برب الإنجيل، وعلى كل حال فإن الديوان الذي يحمل اسم النابغة يدل في مواضع عديدة على اعتناق النابغة الإسلام وتحمسه له.

ولما وفد النابغة مع قومه إلى دمشق مدح الخليفة عبد الملك بن مروان بقصيدة في سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) أي بعد القضاء في العراق على تمرد يزيد بن المهلب، هنا النابغة الخليفة الوليد بن عبد الملك بقصائد عديدة ضاع أكثرها اليوم، وإذا لم يكتب للنابغة الفوز بحظوة الخليفة هشام بن عبد الملك، فقد كان من المقربين لدى الأمير الوليد بن يزيد قبل توليه السلطة وبعده، وقد فقد بعد سنة (١٢٧ هـ / ٧٤٤ م) كل أثر الشاعر.

ب- شعره: ونجد في المختارات الشعرية قليلاً من الاستشهادات بشعر النابغة، وطبع باسمه ديوان على شيء من الاتساع، ففيه مدائح في قالب القصيدة التقليدية موجهة إلى الخلفاء الأمويين بدمشق، وقصائد غزلية، ويبدو التأثير الإسلامي واضحاً جداً في الديوان، دالاً على حماسة دينية جديرة بالملاحظة.

ويتصف أسلوب القصائد ببساطة المفردات تارة وبالتكلف تارة أخرى.

٢٥- البعيث

أ- حياته ونشأته:

هو خداش بن بشير ينتسب كالفردق إلى بني مجاشع من تميم، وكانت حياته مقسمة بين الصحراء والبصرة، وتقتصر المعلومات الضئيلة التي وصلتنا عنه على أخبار تذكر صلته بجماعته والشاعر جرير، ويظهر أن البعيث لم يكن شخصاً مغموراً في زمنه، وكان في أول أمره اللسان الناطق باسم قبيلته، وكانت شهرته الخطابية في البصرة لا تزال حية حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، إلا أن مهاجراته غير الموفقة لجرير حملت بني مجاشع قومه على التنصل من هذا الهجاء.

ومن الغريب أن يهجو الفردق البعيث. لا يعرف مكان وتاريخ وفاة البعيث.

ب- شعره: ولم يُعر أرباب المختارات الشعرية هذا الشاعر سوى التفاتة بسيطة، إن بعض المقطوعات التي حفظت باسمه تصنفه في مدرسة تميم الشعرية، ولا يسعنا مع ذلك إغفال ذكره، فلعل خمول ذكره مرده إلى مصادفات سياسية أكثر منها إلى نقص في المهوبة الشعرية.

٢٦- يزيد بن الطثرية

اسمه يزيد بن المنتصر من بني سلامة رهط قشير في أواسط شبه الجزيرة العربية. كان يزيد شاعر قبائل، قتل في غزوة بني حنيفة سنة (١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م)، وليست شخصية يزيد على كل حال، شخصية الشاعر الذي ارتسمت صورته في الأذهان، بل كان (صاحب غزل ومحادثة للنساء) صبغت مغامراته الغرامية مع نساء القبائل المتحالفة بصباغ العاطفة العذرية، ولا يعرف الآن باسم يزيد بن الطثرية سوى مقطوعات نادرة وموجزة لا تعطي فكرة عما كان عليه أثر شعري معروف في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ويجوز الظن بأن الأثر المذكور اختلطت فيه حينئذ بكثرة، قصائد رثائية.

٢٧- القحيف بن حمير

أصله من خفاجة (بطن من قبيلة عقيل) في أواسط الجزيرة العربية، والظاهر أنه ولد حوالي أواخر القرن الأول الهجري/ السادس الميلادي، كان القحيف شاعر قبائل اشترك مع يزيد بن الطثرية بمعركة فليح اليمامة، وعاش في بلاط الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ورثاه بقصيدة سنة (١٢٧ هـ / ٧٤٣ م)، ويحدد موت القحيف بعد التاريخ المذكور.

إن شعره ذو استلهام بدوي مصحوب بانفجار قبلي متواتر، وخاصة في القصائد التي هجا بها حنيفة في اليمامة، ويظل الطابع الغنائي الغالب على قصائد عديدة. وتدل بقايا هذه القصائد على استمرار التقاليد الجاهلية في أواسط شبه الجزيرة العربية في الربع الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

٢٨- ابن مفرغ

اسمه يزيد بن ربيعة من بني يحصب اليمانيين ومنه لقب البياني الذي غلب عليه، ولعل ابن مفرغ من أصل وضيع كما يقول ابن قتيبة، والظاهر أنه ولد في البصرة وفيها أقام مندجماً في عشيرة قرشية الأصل، وثمة نادرة توحى بأنه كان يعرف الفارسية، وليس لدينا من أخباره سوى نزاعه مع أمير سجستان عبيد الله بن زياد وأخيه، وقد لوحق ابن مفرغ وحبس بنذالة وهو مدين بسلامته إلى رافة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وسبب متاعبه نزاعته المؤيدة للشيعة، وكان ابن مفرغ حوالي سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م).

وقد رأى فيه المؤرخون شاعراً هجّاءً، غرضاً لتأليف النوادر، أما اليوم فمن المستحيل تقريباً تصور ما كان عليه أثره الذاتي، وثمة علامات تتيح الاعتقاد بأن الهجاء لم يكن الفن الوحيد الذي عني به، ولم يحجم على الأخص عن لفت أنظار بعض الكبراء كسعيد بن عثمان بقصائد مدحية.

٢٩- شبيل بن عذرا

أ- حياته ونشأته:

من أسرة من ضبع من قبيلة ربيعة أقامت في البصرة، كان في أول أمره شيعياً، ثم أصبح خارجياً، واختلف إلى حلقات النحاة في مسقط رأسه حيث مات بعد سنة (١٣٣ هـ / ٧٥٠ م).

ب- سمته العلمية:

رأى الناس في شبيل فقيهاً من فقهاء الخوارج وخطيباً وعالمًا بالأنساب، وبوصفه عالمًا ذكر له الجاحظ قصيدة عن الغريب في اللغة العربية، وليس لدينا شيء من آثار شبيل بصفته مدافعاً عن عقيدة الخوارج وداعية لها.

٣٠- العدليل بن الفرخ

أ- حياته ونشأته:

من بني عجل (بطن من قبيلة بني بكر في الفرات الأسفل) والظاهر أنه شارك في غزو ثار، ولا يخلو الشيء القليل الذي يعرف عنه من الخيال، ويبدو أنه كان مدحاً، فبعد أن مدح يزيد بن المهلب استطاع أن يفوز بحظوة الحجاج حاكم العراق فمدحه بقصائد عديدة، وخلد الفرزدق ذكرى العدليل بمرثية، وهناك من شعر العدليل بضع مقطوعات، بعضها بقايا قصائد، وتنسب إليه أيضاً قصيدة مدح بها بني بكر وبني تغلب، ويميز شعر العدليل تميزاً جيداً الفخر الذي ما تزال تقدره الأوساط البدوية. أما بقية القطع فتمثل تمثيلاً غاية في الجودة، في الحد الذي تحمل طابع العصر، شعر المديح الحكومي في عصر الأمويين.

ب- شعره: إن شعر العدليل لا يخلو من قوة، ومن العسير علينا معرفة السبب الذي حدا بأرباب المختارات الشعرية عدم قبوله في مختاراتهم قبولاً أحسن.

٣١- كعب بن معدان الأشقري

أ- حياته ونشأته:

أصله من عشيرة الأزدي الضاربة في العراق، اتصل بالقائد المهلب بن أبي صفرة وتبعه في غزواته في فارس ومدحه، وهناك قصائد وافرة من شعر كعب، باستثناء بعض المقطوعات المبعثرة قصيدة طويلة ذات مظهر ملحمي مجدّ فيها مآثر المهلبين.

ب- شعره:

إن كعباً يستحضر جيداً ما كانت عليه مجموعة المداحين المنضوين تحت لواء حماة الأدب العربي خارج بلادهم الأصلية.

٣٢- المغيرة بن حبناء

أ- حياته ونشأته:

ولد (المغيرة بن حبناء) في أسفل العراق من أسرة منحدره من حنظلة من تميم، كان أبوه وأخواه شعراء أيضاً، وصحب في شبابه أهله إلى نجران، ولكنه اضطر إلى العودة بعد ذلك إلى العراق وفارس، حيث تبدأ سيرته الشعرية بوصفه مداحاً، فكان أولاً في خدمة الحاكم طلحة الطلحات (المتوفى سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م) ثم انتهى به الحال إلى الاتصال بالمهلب بن أبي صفرة فصحبه في حملاته على الخوارج وفي شرقي فارس، ودب الخلاف في بلاط المهلب حامي الأدباء، بين المغيرة ومنافسه زياد الأعجم، وبعد موت المهلب سنة (٨٢ أو ٨٣ هـ / ٧٠١-٧٠٢ م) ظل يمدح ابنه يزيد المتوفى (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) ملازماً إياه طوال سيرته اللامعة المضطربة.

ب- شعره:

لم يهتم علماء العراق، باستثناء أبي عمرو الشيباني، إلا قليلاً بهذا الشاعر، وقد حفظت لنا باسم المغيرة بعض قصائد هجاها أحد إخوته، وبعض مقطوعات مطولة مدح بها حماته من الحكام، وتتصف تلك القطع المدحية ببساطة أسلوبها، إن المغيرة وما تبقى من شعره لذو أهمية؛ لأنها يحددان بدقة دور المهلبين بوصفهم حماة الأدب.

٣٣- زياد بن سلمى

أ- حياته ونشأته:

سليمان الملقب بالأعجم، ولد في فارس بأصبهان على وجه الترجيح، ولعله سيق في جملة السبايا إلى ضواحي البصرة وبقي في ولاء بني عبد القيس، ووقف الأعجم شعره على الدفاع عن القبيلة المذكورة. وفي سنة (٢٣ هـ / ٦٤٣ م)، اشترك في الاستيلاء على إصطخر وأقام فيها، ولما استلحقه المهلب وبنوه شارك في غزوات شرقي إيران، وفي مرثية نظمها مدح بها المغيرة أحد أولاد المهلب، أقام في البصرة وصادف هناك جرير والفرزدق، ولئن امتنع عن الدخول في نزاع معها فهو بالمقابل هجأهما، مات الأعجم سنة (١٠٠ هـ / ٧١٨ م).

ب- شعره:

حفظت باسم الأعجم مقطوعات هجائية ذات صياغة جميلة، وبعض القطع المدحية، وللأعجم مرثية مشهورة جداً، ويظل شعره بالنسبة إلينا، صعب المنال، إن بعض المعطيات الباقية عن حياته تجعل منه على العكس، إحدى الشخصيات الأكثر إثارة للاهتمام، وفي الحق فإن زياداً من أوائل الشعراء الذين أوجدوا، بقليل من الوضوح في الشعر، الصلة بين العالمين العربي والفارسي في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي.

٣٤- عمران بن حطان

أ- حياته ونشأته:

أصله من سدوس وهي بطن من شيبان في الفرات الأوسط، قيل: إنه ولد في البصرة مع الجيل الإسلامي الثاني وعاش في الكوفة أو في منطقتها، كان عمران فقيهاً شديداً التمسك بشعائر الدين، ولما اعتنق المذهب الخارجي أصبح مناضلاً حماسياً، من فرقة الصفرية (بعد سنة ٧٦ هـ / ٦٩٦ م) واختفى عمران بعد موت زعيم الخوارج شبيب سنة ٧٧ هـ / ٦٩٧ م وثمة نوادر تظهره في الشام وعمان والجزيرة، ومات بالقرب من الكوفة حوالي سنة (٨٩ هـ / ٧٠٧ م).

ب- شعره:

ذكر بوصفه رجلاً متعمقاً في علم الكلام، وخطيباً بقدر ما هو شاعر مجيد، بيد أن عمران لا يشغل في كتب المختارات الشعرية سوى مكان ضيق، ولم يرد باسمه سوى أبيات حكمية وبعض مقطوعات من شعر المناسبة موجهة إلى مضيفيه في الخفاء، وملخص من قصيدة مدح بها عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله قاتل الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبئس ما فعل، ويجدر بنا القول: إنه يستحيل علينا اليوم إطلاقاً أن نعيد لشاعر من شعراء الخوارج الأكثر تمثيلاً لزمانه مكانه الحقيقي.

٣٥- الأعشى الشيباني

أ- حياته ونشأته:

اسمه عبد الله بن خارجة ولد في الكوفة وتاريخ ولادته مجهول، وهو من أسرة أبي ربيعة (وليس من بني ربيعة كما ورد أحياناً) وهي بطن من شيبان بن بكر، ولعل الأعشى انساق في بادئ الأمر شأنه شأن الكثيرين من مواطنيه مع التيار الذي حرض العراقيين على الشام والخلفاء الأمويين، وفي الحق فإن الأعشى أشاد في مرثية مفقودة بالمطالب بالعرش عبد الله بن الجارود الذي قضى عليه الحجاج سنة (٧٥ هـ / ٦٩٤ م)، وقد أخلص الأعشى عندما انحاز إلى الأمويين إخلاصاً عميقاً لعبد الملك بن مروان جاعلاً من نفسه منوئاً لعبد الله بن الزبير والعلويين، ولزم الموقف ذاته زمن سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ / ٧١٤ م) ولا يعلم بعد هذا التاريخ عنه شيئاً.

ب- شعره:

إن ما تبقى من شعر الأعشى عديم القيمة، فهو أقل من مئة بيت، وثمة مقطوعة واحدة لقيت رواجاً كبيراً، وقصيدة دينية مطولة إلى حد ما، وقطعة مقلدة غير موفقة على شاكلة تلك التي ينظمها الوعاظ، إننا نستخرج بكل بساطة من هذه البقايا الهزيلة، المشكوك بها انطباعاً هو أن هذا الشاعر كان مداحاً تمتع بشهرة غير مستديمة.

٣٦- سابق البربري

يظل هذا الشاعر في نظرنا محاطاً بالأسرار، والظاهر أنه عين قاضياً على الرقة زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ/ ٧١٧ م - ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م) ويؤكدون أنه نظم أشعاراً في الزهد بقي بعضها، وهي تمثل في الحد الذي تكون فيه هذه البقايا الشعرية مقبولة، تمتأت شعر وعظي مطبوع بطابع إسلامي.

٣٧- عوف بن عبد الله الأحمر

ينتسب إلى أسرة في الأزدي فهو يماني أقام على الأرجح في الكوفة وشهد مع علي بن أبي طالب صفين، وإذا صح أن قصيدته التي رثى بها أحفاد علي الذين سقطوا في كربلاء سنة (٦١ هـ/ ٦٨٠ م) هي من نظمه، فتكون وفاته إذاً بعد هذا التاريخ، وعرفت باسمه قصيدة رثاء مطولة جداً لم يبق منها سوى بضعة أبيات تستحضر في شكلها البسيط جداً القصائد (المخصصة للعامة) التي روجها الدعوة الشيعية سراً في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وأوائل العصر التالي.

٣٨- الأقيشر

أ- حياته ونشأته:

اسمه المغيرة بن عبد الله (أو عبد الله بن الأسود) من رهط بني ناعج من أسد المقيمين في الكوفة، اشترك الأقيشر في ثورة مصعب بن الزبير وراثه بقصيدة سنة ٦٩١ م، ولما انحاز فيما بعد إلى الأمويين صار في عداد جماعة الحلقة الشعرية التي شكلها الأمير بشر بن مروان حاكم الكوفة (من سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م - ٧٤ هـ / ٦٩٤ م) وكان أهل قبيلته بنو أسد يعتبرونه ممثلهم الأصيل وقيل: إنه وفد مراراً إلى دمشق على الخليفة عبد الملك بن مروان. مات الأقيشر بعد أن عمّر طويلاً وتاريخ وفاته مجهول، ولعله في أواخر خلافة الخليفة المذكور (أي بعد سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م).

ب- شعره:

عرف الأقيشر من خلال النوادر التي تصوره ماجناً سكيراً، طفيلياً، وقد بقي من شعره بعض المقطوعات المدحية وأبيات هجائية مرتجلة وخاصة قطع خمربة قصيرة جداً لخت وغنيت، وبقيت أخيراً قصيدة طويلة إلى حد ما، وصف بها الشاعر بتهكم وبساطة، فراره من إحدى الغزوات ونسيان واجباته في سبيل الخمرة ومصاحبة إحدى البغايا.

٣٩- أعشى همدان

أ- حياته ونشأته:

اسمه عبد الرحمن بن عبد الله، أصله من جشم وهي بطن من همدان اليمنية ولد في الكوفة سنة ٣٠ هـ، أولع في بداية أمره بدراسة القرآن وخاصة القراءات، ولم يقف نفسه على الشعر إلا بعد بلوغه سن الرجولة، ولعل هذا التحول مطابق لتشجيعه المدعم بنزعة يمنية سابقة، وقد جعلت مواهبه الخطابية والشعرية منه داعية مسموع الكلمة، ولا يعلم إلا القليل عن حياته العاطفية من خلال بعض القصائد المرتبطة بحكايات نوادرية، فإن طلاقه لزوجته الملحاح، وزواجه ثانياً من شابة ذات قلب خلي أو حيا إليه بقصيدي شكوى مؤثرتين، وتجدر الإشارة إلى صداقته، في الكوفة مع المغني المؤلف أحمد النصبي، الذي كان يلحن له، بانتظام قصائده الغنائية.

ب- مغامراته: من الصعب علينا تتبع مراحل حياته بوصفه جندياً ورجلاً حربياً ومداحاً، ويجدر فسخ مجال واسع، في مواقفه السياسية، لعواطفه المؤيدة لليمنيين، تلك العواطف التي أملت عليه اختيار حماته، إن بعض مواقفه أملت أيضاً الانتهازية، ولم تصل حماسته المؤيدة لأحفاد علي إلى حد مساندة حركة متطرف مثل المختار الثقفي، ولكنه بالمقابل لم يتردد عن متابعة حركتين ثوريتين هدفها قلب حكم الأمويين في دمشق، ففي المرة الأولى سنة (٦٣ هـ/ ٦٨٢ م)، احتضن قضية عبد الله بن الزبير المطالب بعرش الخلافة، وتبع إلى حمص الحاكم النعمان بن بشير الذي انضم أيضاً إلى الزبيريين.

ثم اضطر الأعشى على أثر موت النعمان المفجع في أوائل سنة (٦٥ هـ/ ٦٨٤ م)، إلى العودة إلى الكوفة وخدمة مصعب بن الزبير إلى حين هزيمة الأخير سنة (٧٢ هـ/ ٦٩١ م) ونظم الأعشى في هذا التاريخ قصيدة تنم عن إعجابه بمصعب الذي قضى عليه عدو مجرد من الرأفة، وكان الأعشى نظم قصائد آخر أظهر فيها، ولاءه للزبيريين وعلى كل حال فإن الأعشى تقرب بغية إسدال النسيان على تمسسه للزبيريين من السلطات الأموية، فصار في عداد الزبير

بن خزيمة الخثعمي أثناء حملته على الخرج (بين سنة ٧٢ - ٧٤ هـ / ٦٩١ - ٦٩٢ م) فأوحت إليه هزيمة جيش الحكوميين في جلولاء بقصيدة شعرية.

ولم يلبث الأعشى بعد ذلك أن ارتبط بالقائد الكوفي خالد بن عتاب (المتوفى سنة ٧٧ هـ / ٦٩٦ م) والخروج معه إلى أصبهان، ولما بلغ الأعشى الخمسين من عمره كان في عداد البعث المرسل إلى مكران على حدود فارس الشرقية وفي قصيدة يصف فيها آلامه في هذه المقاطعة العادية.

وفي سنة (٨٠ هـ / ٦٩٩ م) اشترك الشاعر مع ذلك المرة الثانية بحركة هدفها قلب نظام الأمويين، وكان الأعشى يومئذ بصحبة أحمد النصبي في سجستان في جيش اليميني عبد الرحمن بن الأشعث، فمدح هذا بقصائد عديدة ورافق الأعشى مسيرة الجيش في العراق فحضر كارثة دير الجماجم حيث انهزم عبد الرحمن بن الأشعث، وأتى بالأعشى أسيراً أمام القائد الحاكم الحجاج الذي هجاه الأعشى بعنف، وقد حاول هذا عبثاً استرقاق قلب الحجاج، وذلك بإنكار أقواله وآرائه فضربت عنقه سنة (٨٢ هـ / ٧٠١ م).

ج - شعره: وبالرغم من أن الأعشى تمتع بشهرة لا تنكر بين أوساط العلماء العراقيين فإن هؤلاء كما يبدو لنا لم يدرسوا قط شعره الذي لم يصل إلينا. وإن القصائد الأكثر تواتراً هي ذات الموضوعات المديحية والوصفية، كما أن الفخر الذاتي والقبلي كمديح اليمينيين المناقض لقصائد الثلب المعادية للمضربين ممثلان أيضاً تمثيلاً جيداً في شعره.

إن لغة الأعشى ورواسمه لمهي بالبداهة تقليد، فليس ثمة أي أثر للتحذلق اللفظي، بل نحن بالعكس تجاه قصائد أو مقطوعات سهلة التداول للجميع.

٤٠- حمزة بن بيض

كان منقطعاً إلى المهلبين وخاصة المهلب بن أبي صفرة وبلال بن أبي بردة المتوفى (١٢٠هـ/ ٧٣٨ م).

إن أخلاق حمزة ووقاحته ودعابته مصدر أدب نوادري يعكس في ظاهره نوع الحياة التي كان يحياها شعراء مهرجون في ظلال الأرسقراطية العراقية في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي.

٤١- الحزين الكناني

واسمه عمر بن عبيد من بني عجل من قبيلة حجازية في كنانة كان معاصراً لكثير عزة، ويبدو أنه قضى حياته كلها في مكة والمدينة، ولما كان الناس يخشون فلتات لسانه، فقد زاول ابتزاز الأموال من بعض أفراد الطبقة الأرسقراطية كابن أبي العتيق، وكان إدمانه للخمره مثاراً لفضائح حفظت له.

٤٢- أبو صخر الهذلي

هو عبد الله بن سليم السهمي من هذيل ولد في الربع الأول من القرن الهجري السابع الميلادي حبسه عبد الله بن الزبير، ثم أطلقه بعد سنة ويقال: إنه فرَّ إلى البصرة فمدح عاملها أمية من سنة (٧١-٧٣ هـ/ ٦٩٠-٦٩٣ م) عاد إلى الحجاز وحضر هزيمة عبد الله بن الزبير، ولا ريب في أنه اتصل بدمشق بدءاً من هذا العهد بالخليفة عبد الملك وأخيه عبد العزيز إننا نجهل تاريخ وفاة أبي صخر، ولم تجمع أشعاره في ديوان مستقل ويحتوي شعره على مديح في قالب قصيدة تقليدية أو قصائد غزلية.

أما الأولى فعلى الطريقة التقليدية وأما الثانية فتطرح قضية؛ لأننا نتبين فيها شعراً عذرياً؛ ما يجعلها تنسب إلى مجنون ليلي، ولذا ينبغي نتيجة ذلك التردد في اعتبارها نماذج أصلية للقصيدة الغزلية في العصر الذي نحن بصددده.

٤٣- أرطاة بن سهية

هو من بني مرة من ذبيان من أواسط شبه الجزيرة العربية اتصل بصورة متقطعة بالخلفاء الأمويين معاوية ومروان وعبد الملك، فمدحهم وربط أرطاة في وقت ما مصيره بالزبير في الحجاز، ولدينا من شعره بالإضافة إلى مقطوعات من نوع المديح قصائد ساخرة قالها في خصم له يدعى شبيب بن البرصاء ولأرطاة شعر غزلي يلحقه بغزليي الحجاز.

٤٤- أمية بن أبي عائذ

عاش في النصف الثاني من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، واتصل بالخليفة عبد الملك بن مروان وولده عبد العزيز المتوفى سنة (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) وتبعه إلى مصر، ولدينا من شعر أمية مدائح في ممدوحيه في قالب القصيدة التقليدية، ولم نتبين أي أثر عميق للإسلام فيها.

٤٥- جبهها أو جبيها

واسمه يزيد بن عبيد من بني أشجع في أواسط شبه الجزيرة، عاش في أواخر القرن الأول الهجري السابع الميلادي وأوائل القرن التالي ومكث في قبيلته، ولكنه أقام عرضياً في المدينة، ويقال: إنه لقي الفرزدق أثناء مرور هذا بها وإن المقطوعات النادرة التي تحمل اسم جبهها جديرة بالاهتمام في الحدود التي تستحضر ديمومة الشعر القبلي عندما يكون غير مصاب بتأثيرات جديدة.

٤٦- أبو دهبيل

أ- حياته ونشأته:

هو وهب بن زمعة (أبو ربعة) من بني جمع بطن من قريش من ناحية أبيه وهذيل من ناحية أمه ولد في مكة حوالي سنة (٢٠ هـ / ٦٤٠ م) ويبدو أنه قضى الجزء الأوفى من حياته في المدينة المذكورة.

إن حوادث عشقه امرأة مكية تدعى عمرة التي كان لها صالون أدبي والأميرة عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان معروفة من خلال نوادر ومقطوعات شعرية لا تخلو من هوى أصيل، وتعتبر قصته مع السيدة الشامية التي حبسته في قصرها وزواجه منها من الأدب الشعبي الفولكلور، ولها مثيل في كتاب ألف ليلة وليلة وبطل القصة الخليفة المأمون هل كان أبو دهبيل شيعياً؟ كأنه إذا كانت قصيدة رثاء الحسين بن علي من نظمه ولم تمر حياة أبي الأزرق حاكم اليمن الذي عزله عبد الله بن الزبير نقاط استدلال لا جدال فيها، ولما كان أبو دهبيل شهد ثورة الزبير، فقد صار شاعر أحد قادتها، والظاهر أنه انضم إلى صفوف حكومة الشام بعد انتصارها على الزبير بين وهناك خبر يتعذر التحقق منه مفاده أن أبا دهبيل خرج إلى مصر، ويقال: إن الخليفة سليمان بن عبد الملك أقطعه عندما حج قطعة بجازان باليمن. ويُجهل تاريخ وفاة أبي دهبيل.

ب- مكانته: كان أبو دهبيل في زمنه مشهوراً على الأخص بوصفه شاعراً غزلياً ولحن المغنون المدنيون والمكيون أبياتاً له، ولعل هذا الرواج قد غطى على المدح.

٤٧- موسى بن يسار الملقب بموسى شهوات

أ- حياته ونشأته:

كان كأخيه إسماعيل من موالي قريش في مكة، قضى أيامه على الأخص في المدينة ووفد عرضاً إلى دمشق، ولزم موسى جانب الزبيرين فمدح حمزة بن عبد الله بن الزبير حين كان والياً على البصرة من قبل أبيه عبد الله، وكان سبب علاقته الطيبة مع القرشي سعيد بن أبي سفيان، أبياتاً مدحهم بها، ويجسد موسى نموذج المتسول اللجوج وتحدد وفاته حوالي نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، والظاهر أن ليس هناك ديوان يضم نتاج هذا الشاعر.

ب- شعره:

معروف لدينا من خلال مقطعات مدحية وقصائد ساخرة أن نتجاهل شاعراً مثله، ومن البديهي استحالة تكوين فكرة موضوعية عما كانت عليه أفكار هذا الشخص، ولا ريب في أن هذه الإثارات النادرة من شعره مدينة ببقائها إلى تلحينها الذي روجها إلى حد ما بين أوساط الملحنين المغنين في المدينة والعراق.

٤٨- عروة بن الوليد أبو قتيبة

هو عروة بن الوليد بن عقبة المتوفى سنة (٦١ هـ / ٦٨٠ م) المشهور بشراسته ومجونه ينتسب إلى أكبر نفوذاً في مكة والشديدة الولاء للأمويين، وليس ثم ما يدل على ولعه بالحياة السياسية في أنه لم يحمل على ترك الحجاز إلى الشام ودمشق أثناء ثورة عبد الله بن الزبير إلا بفعل مصادفات الظروف، وقد خيب آماله سوء استقبال الخليفة عبد الملك بن مروان له، فشرع بألم الحنين لبعده عن مسقط رأسه، ولما سمح له بالعودة مات في الطريق، وذلك قبل سنة (٧٣ هـ / ٦٩٣ م) ولدينا باسمه مقطوعات غزلية عبر بها في الشام عن حنينه إلى الحجاز، ويبدو أن هذه الأبيات لحنّت في المدينة ذاتها ولا تسمح تلك الإثارات من شعره لتحديد مكان أبي قتيبة في زمنه.

٤٩- محمد بن عبد الله

النميري

واسمه محمد بن عبد الله من قبيلة جشم بن قسي وقسي هو ثقيف ولد في الطائف، ولعله ينتمي إلى مجتمع ترف وقف موهبته على التغني بمغامراته الغرامية، فإن أشعاره في زينب أخت رجل الدولة الرهيب الحجاج بن يوسف أحزنت هذا برهة، مما دعا الشاعر إلى الفرار إلى اليمن والاختباء هناك، بيد أن الأخوة الثقفية التي تجمع بينهما وتدخل أولى الأمر العالي استطاعا على كل حال تهدئة الحجاج حضر النميري نهاية عبد الله بن الزبير سنة (٧٣هـ/ ٦٩٢م).

إننا لا نعلم تاريخ وفاة النميري فإن أصحاب المختارات الشعرية لم يعيروا هذا الشاعر انتباهاً ما عدا صاحب الأغاني، وقد عبر الشاعر في قصيدة مناسبات بطريقة مؤثرة عن فراره المذعور من تهديد الحجاج، واستطاع النميري بأشعار قالها متغزلاً بزینب اللحاق بمدرسة الحجازيين ولحن الكثير من قصائده في المدينة وخاصة تلك التي مطلعها:

تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت به زينب في نسوة عطرات
ونلحظ أيضاً هنا دور الملحنين في حفظ قصائد ومقطوعات، فإن كان لها مكانة زمنه.

٥٠- عبید اللہ المخزومی

وهو عبید اللہ بن عبد اللہ بن عتبة ينتسب إلى بني مخزوم من هديل وهم غير بني مخزوم من فھر في قريش، ويقال: إن هذه العشيرة اتحدت مع بني زهرة في قريش، وكان جد عبید اللہ شقيق الصحابي عبد اللہ بن مسعود وخادمه، وقام عبید اللہ وأحد إخوته إلى حد ما بدور سياسي.

ولد عبید اللہ على الأرجح في المدينة وتاريخ ولادته مجهول ولعله حوالي سنة (٣٠ هـ / ٦٥٠ م) وربّي في وسط المحدثين المدنيين حتى آل به الأمر إلى اكتساب سلطة كبرى بوصفه راوية للحديث، وإن صلة القرابة وتحفظه في سلوكه وإصابته بالعمى كل هذا أوجب الاحترام الذي أحيط به، ومن تلاميذه محمد بن مسلم عبید اللہ بن شهاب الزهري المتوفّي سنة (١٢٤ هـ / ٧٤١ م) ونلاحظ من خلال بعض المؤشرات أن عبید اللہ زهد بالتقشف المفرط الخشن وعقد صلوات مفيدة مع شخصيات محلية وخاصة عمر بن عبد العزيز، فكان معلم ولديه وعشيرته طوال ولايته على المدينة من (٨٧ هـ / ٧٠٦ م إلى ٩٣ هـ / ٧١٢ م).

وثمة خبر منعزل يروي لقاءه مع الخليفة يزيد بن الوليد العقد الفريد ولم يزد عبید اللہ صحبة الشعراء، وكان يزاول قرص الشعر حتى إذا ما عجب الناس لذلك، أجاب جواباً يظهر فيه خضوعه لنداء الموهبة وترنم بخوالج قلبه نحو امرأته المطلقة، ولم تتحول حياة المخزومي غير المجردة من المفارقات إلى مأساة عند من عاشها، بل انتهت بالرضا سنة (٩٧ هـ / ٧١٧ م) في المدينة.

٥١- محمد بن بشير

أصله من بني خارجة وهم بطن من عدوان من قيس كان ينزل الروحاء وهي عين في فرع بين مكة والمدينة، ومكث طويلاً في المدينة وكان يفد إلى البصرة ومدح أعيان الحجاز كالسائب المخزومي وسليمان بن الحصين وزيد بن الحسن ووالي المدينة إبراهيم بن هشام وثمة نوادر تظهره رجلاً غريب الأطوار، يبادر إلى عرض الزواج على كل حسناء يصادفها وتحدد وفاته حوالي سنة (١٠٠ هـ / ٧١٨ م) والظاهر أن هذا الشاعر لم يثر اهتمام أصحاب المختارات الشعرية، وقد وصل إلينا من شعره مقطوعات رثائية ومدحجية ذات أسلوب عفوي، واكتسب محمد بن بشير بفضل قصائد مناسبات وقصائد غزلية شيئاً من الشهرة في زمانه.

إن قصائده المشار إليها ذات شكل حجازي واضح وصيغة بدوية ويحتل محمد بن بشير طبعاً إلى جانب كثير عزة مكاناً وسط لوحة جدارية جامعة.

٥٢- الحارث بن خالد

أصله من بني مغيرة أقوى أسر بني مخزوم في مكة، ويجب أن تكون ولادته قبل سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) وشباب الحارث وافق السنين الأخيرة من حياة عمر بن أبي ربيعة، وكان أحد إخوة الحارث شاعراً أيضاً، وكان بنو مخزوم كلهم زبيريين إلا الحارث فإنه كان مروانياً انحاز إلى خلفاء بني أمية في ثورة الزبيريين في الحجاز، وبعد القضاء عليها سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) ولاه عبد الملك بن مروان مكة، ثم عزله بعد سنة على أثر فضيحة عشقه لعائشة بنت طلحة المشهورة بجهاها المتوفاة حوالي سنة (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) واشتهر الحارث في مكة بوصفه أحد القراء، ولكن هذا لم يجل دون ولعه بالغناء ومنح غريض المغني هباته وثقتة، وانتشار ما بقي من قصائده وحفظها مردهما الملحنون والمغنون في المدينة مثل غريض أو في بغداد.

٥٣- عروة بن أذينة الكناني

وهو شاعر من شعراء الغزل العفيف في حواضر الحجاز. كان يجمع بين صفة الشاعر الغزل وبين صفة الفقيه المحدث وكان أحد فقهاء المدينة في العصر الأموي، وقد روى عنه مالك بن أنس، ولم يكن يجد ضيراً في الجمع بين هاتين الصفتين المتناقضتين؛ إذ كان غزله عفيفاً لا ينجح إلى مجون شعراء الحضر وشعره يمثل الغزل الحضري العفيف لتأثره بالمبادئ الإسلامية والروح الدينية والنقاد يشهدون له بصدق الصبابة، ويتسم غزله بالرقّة والحلاوة وأكثره مما غنى به المغنون، ومن مشهور غزله قوله:

إن التي زعمت فؤادك ملها	جعلت هواك كما جعلت هوى لها
فبك الذي زعمت بها وكلاكما	ييدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها	لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها	يوماً وقد ضحيت إذا لأظلمها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي:	ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال: لعلها معذورة	من أجل رقتها فقلت: لعلها

٥٤- عمر بن لجأ

من قبيلة تيم وينتسب إلى الرباب في اليمامة كان عمر شاعر قبائل أقام بصورة متقطعة في البصرة، ولا شك في أنه لقي الفرزدق فيها فكانت بينهما ألفة على أن عمر احتفظ بشيء من الشهرة لمخاصمته جريراً، وثمة خبر أقرب إلى النادرة منه إلى التاريخ يظهر عمر وجريراً موقوفين للناس بسوق المدينة لما تهاجيا وتقاذفا، وقد أمر بهما عمر بن عبد العزيز والي المدينة فقرنا وأقيما، وكان عمر شاباً كأنه حصان وجرير شيخ قد أسن وضعف، وكان عمر قد هجا الأزد في بعض قصائده بما استتبع موقفاً مناوئاً لليمن والمهلبين.

ويقول ابن قتيبة: إن عمر بن لجأ مات في خوزستان بالأهواز، ولكننا نجهل تاريخ وفاته ولم يعر أرباب المختارات الشعرية هذا الشاعر سوى انتباه سطحي أو معدوم، ولم نعلم أن شعره جمع في ديوان مع أن مقامه بين معاصريه جدير بالتنويه.

الباب الخامس

الرجز في العصر الأموي

أ- تطور الرجز عن السجع:

نتيجة لتطور السجع بشكل عام وسجع الكهان بشكل خاص بدخول الإيقاع الموسيقي البدائي له وموافقة حروف نهاية الجمل إلى مستوى جديد ظهر فن (الرجز) وظهرت أوزان جديدة تتألف من تكرار تفعيلية واحدة، ثم أوزان جديدة تتألف من تكرار تفعيلتين مختلفتين، ثم أوزان أخرى أعقد منها تتألف من ثلاث تفاعيل مختلف، وذلك من خلال لمحات الإنسان الإبداعية في ملاحظاته لتنوع مباني وصيغ اللغة وتشابه أوزان كلماتها، ووفق إيقاعها حيث تنتهي كلمات اللغة في النظام الشعري (الرجز) بحرف مشترك واحد أو حرفين متشابهين أو ثلاثة أحرف مشتركة؛ ما دفعهم إلى توشيح كلامهم بهذه الظاهرة الفنية مستخدمين التشابه الصوتي وخاتمته لكل عبارة؛ ليكون حلية موسيقية ذات إيقاع يشد انتباه السامعين ويمتعهم.

وقد كان اجتماع الإيقاع الموسيقي مع التناغم يشعر السامع بالطرب والارتياح واجتمع (الإيقاع والسجع) ليشكل (الروي أو القافية) ثم حدهم إلى تسميته (الرجز)؛ فهو بحر بسيط قريب من النثر وموسيقى الكلام العادي.

ب- وحدة التفعيلية في هذا البحر:

هذا البحر مبني على تكرار تفعيلية واحدة (مستعلن) ثلاث مرات في كل شطر تكثر فيه الزحافات في الحشو والعروض والضرب، مما جعله يستخدم لسفاسف البحور (فالرجز) يقابل (القصيد) ويكثر فيه الارتجال ويجري على ألسنة الكثير من الناس، وقد كان الرجل في الجاهلية يقول منه البيت أو البيتين والثلاث في الحرب والخصام والمشاعة والمبارزة والمفاخرة، وقد يترنم به الناس في السقاء لحيواناتهم وأعمالهم وأسواقهم وأول من أطال الرجز، وجعله مثل القصيد (العجلي) ثم العجاج وابنه رؤبة.

وقد كان القدماء يصرّحون أن كلامهم كله كان رجزاً وقطعاً وقد قصد على عهد هاشم بن عبد مناف وأول من قصد القصيد (مهلهل وامرؤ القيس) منذ (١٥٠) عاماً قبل مجيء الإسلام، ثم جاءت البحور الشعرية ذات التفعيلية الواحدة (متقارب - متدارك - الرمل - الكامل - الهزج - الوافر) ثم مرحلة تكرار تفعيلتين مختلفتين (الطويل - البسيط) ثم مرحلة

تكرار ثلاثة تفعيلات مرة واحدة، فالرجز طريقة شعرية مختلفة عن طريقة القصيد، اتخذها مجموعة من الشعراء مركباً ذلولاً لنقل عواطفهم ومشاعرهم تجاه الحياة والمجتمع.

ج- مقومات بحر الرجز:

هذا النوع من الشعر يقوم من حيث شكله على ثلاث نقاط:

١- اتخاذ وزن بحر الرجز أساساً له والذي يتكون من ست تفعيلات في البيت الشعري الواحد قائماً على تكرار تفعيلة (مستفعلن).

٢- مراعاة التصريع.

٣- وقد تكون قافية كل بيت مختلفة عن قافية البيت الذي يليه، وقد تكون للأبيات قافية واحدة.

د- أول من حول الرجز من الشعبي إلى الفصيح:

ويعد العجلي والعجاج وابنه روبة أول من حول شعر الرجز من البيئة الشعبية إلى البيئة المثقفة بحيث أصبح رجزهما يحتج به في اللغة والأدب بعد أن كان هذا الرجز فناً شعبياً يتناوله العامة في مجالسهم، ومن ذلك ما قاله العجاج:

أقلى اللوم عاذل والعتابن وقولي إن أصبت لقد أصابن
وقد كان الرجز في أصله ينظم ارتجالاً.

هـ- أول من أطاله:

ويعد الأغلب العجلي أول من أطاله وجعله كالقصيد.

و- أغراض شعر الرجز:

كما أن شعراء الأراجيز تناولوا الأغراض الشعرية كالهجاء، المديح، الفخر. ونهجوا أحياناً نهج القصائد العربية كالوقوف على الأطلال والرحلة إلى الممدوح.

يقول أبو النجم العجلي يصف فهوداً لعبد الملك بن مروان في موقعة صيد:

إننا نزلنا خير من زلات بين الحمير المباركات

في لحم ووحش وحباريات وإن أردنا الصيد واللذات
جاء مطيعاً لمطاوعات عُلِّمَن أو قد كن عالِمات
ومن الأراجيز التي كتبت للتندر والدعابة ما قاله أبو النجم العجلي موصياً ابنته عند
زواجها واصفاً الزوجة والحياة في موقف الحشر طالباً منها أن لا تتوانى في الخصام:

أوصيت من برّة قلباً مرّاً بالكلب خيراً والحياة شراً
لا تسأمي ضرباً لها وجرّاً حتى ترى حلو الحياة مرّاً
وإن كنتك ذهباً ودراً والحبي عميهم بشر طرّاً
وقد امتدح علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه: (الوساطة بين المتنبّي وخصومه) تعريب
الرجاز للكلمات الفارسية والحبشية كاستعمال كلمة (البردجا) واستعمال (تسجا) بمعنى
التفّ. وقد أصبحت الأرجوزة في نهاية المطاف نصّاً أدبياً يعتمد عليه النحاة واللغويون في
شواهدهم.

ويحدثنا تاريخ الأدب أن الرجز سبق الشعر. وأن امرأ القيس أول من قصد القصيد، ثم
ظل الرجز على حاله أو قريباً من حاله الأولى حتى أتى العجاج فصنع به ما صنع امرؤ القيس
بالشعر، قال أبو عبيدة: ((إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك. حتى
كان العجاج أول من أطاله وقصده، ونسب فيه، وذكر الديار واستوقف الركاب عليها
ووصف ما فيها وبكى على الشباب، ووصف الراحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد. فكان في
الرجاز كامرئ القيس في الشعراء)).

وفي هذا العهد وجد من الرجاز عدا العجاج رؤبة بن العجاج والزفيان، وقد بقي من
أراجيزهم ما يمثل اتجاههم تمام التمثيل.

الباب السادس

رموز الشعراء الرجاء

١- رجز العجاج في العصر الأموي:

أ- ولادته ونشأته:

(العجاج) لقب عرف به عبد الله بن رؤبة بن بني مالك بن سعد بن زيد مناة من تميم. يقول بعضهم: إنه ولد قبل سنة (٦١٢ م) أو على وجه التصديق بين سنة (٢٣- ٣٥ هـ/ ٦٤٤ - ٦٥٦ م) وثمة خبر يجعل العجاج في حضرة أبي هريرة (المتوفى سنة ٥٦ هـ/ ٦٥٧ م) في المدينة على الأرجح، وظل العجاج في القبائل بصورة عادية، ولكنه رحل مراراً للإقامة في البصرة وكذلك في الشام.

إن مدائحه في مصعب بن الزبير وبشر بن مروان والحجاج وكذلك في الخليفين يزيد بن معاوية وسليمان بن عبد الملك، تشكل صوى تعيّن مراحل سيرته الشعرية، والظاهر أن العجاج مات بعد أن عمّر طويلاً، ليس في خلافة الوليد، بل بعد خلافة سليمان بن عبد الملك، أي بعد سنة (٥٩٩ هـ/ ٧١٧ م)، تاركاً ولدين أحدهما رؤبة الذي غطى على شهرة أبيه.

ب- شعر العجاج:

إن الآثار الشعرية الموضوعية باسم العجاج مدينة ببقائها مرة أخرى، لحب الاستطلاع عند علماء اللقظة ونحويي البصرة، وينبغي على كل حال التنويه بأن ذلك الاهتمام لا يفصل بين العجاج وابنه رؤبة، فقد حدث بالتالي منذئذ لبس بين الشاعرين، فإن حالة النصوص تؤكد ذلك جزئياً.

ج- أغراضه الشعرية:

إن الأنواع الشعرية التي نظمها العجاج ذات صفات تقليدية ففيها:

١- مدائح:

أدى العجاج مع هذا حاجة الحياة السياسية فمدح بأراجيزه خلفاء بني أمية وولاتهم، وهجا خصومه، كما مدح الشعراء المعاصرين.

وكان الولاية يصطنعون الرجاز كما يصطنعون الشعراء، وقد اعتذر العجاج، في مدح سليمان عبد الملك، عن عدم شهود يوم المرحل، مع سليمان بن عدي والى اليامة في أرجوزته: أما ورب البيت لو لم أشغل شغلاً بحق غير ما تكسل وهذا المطلع هو أيسر ما في القصيدة؛ إذ يعالج معنى سهلاً، أما باقي الأرجوزة فيلين حيناً ويشتد حيناً آخر تبعاً للموضوع، وهو يقص في استرسال حوادث الوالي، ثم يصل إلى الخليفة في النهاية فيمدحه بالصفات البدوية كما مدح الوالي.

٢- فخر.

٣- وصف:

يعد شعر العجاج من الشعر الذي اهتم بالوصف كثيراً، حتى أن هذا الغرض طغى على شعره، ومن أهم أوصافه:

أ- وصف الصحراء: إذ إن أوصاف الصحراء عند العجاج كثيرة وواسعة وذات مظاهر متعددة في شعره فهي امتداداً للتقاليد البدوية. فقد وصف الأطلال في أرجوزته، وصور الحياة الصحراوية بليها وسراها وتهجيرها وسرابها وغيثها وبرقها، وحيوانها بألوانه من الفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والأسد والنسر، كما عرض للجراد والبعوض والذباب؛ ويصطنع العجاج في أرجوزته أسلوب الحوار، فأرجوزته أقرب إلى قصص تتخلله أوصاف لبعض المظاهر الطبيعية في البادية.

ب- وصف الليل:

ومن وصفه ليل قوله، بعد أن وصف المطايا وشبهها أثناء الإشادة بشجاعة الوالي:

إذا الظلام وهو داجي المشمل تغمد الأعلام بالتجلل
وحالت الظلماء بالتهلل دون الجبال وفجاج المنقل
واحتل الوثيق كل محتل من المطايا والرحال الوغل
ويصف شجاعة الوالي في الليل، ثم يقول في انقشاعه:

حتى إذا إعجاز ليل عنطل
 أوفت على الغور ولما تفعل
 وصاح منها في توالي ما تلي
 ضياء فجر كانصرام المشعل
 تجلو قدماه الدجى فتنجلي
 عن صلتان مثل صدر المنصل
 وقد مثل إقبال الليل فجعل له ثوباً يتغمد الأعلام ويكسوها ظلاماً، ثم مثل الظلام تمثيلاً
 رهيباً فيه خفاء منشور. وانتهى إلى وصف طلوع الفجر بأن أعجاز الليل قد أقبلت على الغور
 فصاح بها ضوء النهار كالنار المتأججة، واصطنع التشخيص للمعاني اصطناعاً كاملاً، وهو في
 هذا الوصف قد تأثر بالقدماء، حين جعل الليل ثياباً مظلمة وأعجازاً، ولكننا نرى هذا
 التصوير طريفاً فيه حركة وحياة ثلاثان جو الحديث المقعم بالمواقع والمعارك، ولهذا اختار
 الألفاظ المناسبة مثل التغمد والأعلام والصلتان والمنصل والصدر.

وقد مثل الليل نحو هذا التمثيل في أرجوزته التي مطلعها:

ما هاج أحزاناً وشجواً قد شجا
 من طلل كالأتحمي أنهجا
 واستعمل في الوصف كثيراً من الألفاظ التي استعملها في الوصف السابق، ذكر رداء الليل
 والأهوال وظهور الفجر في أعجاز الليل، ومثل باللهب المؤجج. كما مثل هناك بانصرام
 المشعل، وزاد غناء الجن، وهو من المعاني القديمة، وقام فنه على التشخيص ودار كذلك حول
 هذه المعاني في مواضع أخرى. على أن جملة أوصافه الأخرى لا ترى فيها مثل هذه الطرافة.

ج- وصف الأطلال:

إنه يقف بالأطلال فيقول:

يا دار سلمى اسلمي ثم اسلمي
 بسمسم أو عن يمين سمس
 وقل لها على تنائها عمى
 ظللت فيها لا أبالي لومي
 وما صباي في سؤال الأرسم
 وما سؤال طلل وحمم
 والنؤي بعد عهده الملمثم
 غير ثلاث في المحل صميم
 ولم يأت بجديد غير مسخ الشاعرية عند السابقين والنظم المتكلف.

د- وصف الناقة:

وصف العجاج الناقة، لكن وصفه لها لم يرتق إلى وصف طرفه لها:

كأن برجاً فوقها مبرجاً عنساً نخال خلقها المبرجاً
تشييد بنيان يعالي أزجاً تعدو إذا ما بدنها تفضجاً
إذا حجاجاً مقلتيها هججاً واجتاف إدمان الفلاة التولجاً
إننا لا نرى جديداً في كل هذا الوصف، ولا فيما بعده حين يصف حمار الوحش. وكل ما فيه تلك الاشتقاقات التي يحدثها من الألفاظ أو يبحث عنها لكي تستقيم له القوافي مثل ((مبرجاً)) من ((برج)) والإغراب في مثل: (تفضجاً) وهذا الإغراب مطرد عنده، ويشبهه إلى حد كبير صنيع أعراب البدو في أوصافهم التي أشرنا إليها من قبل.

هـ- وصف ثور الوحش:

ويتحدث عن ثور الوحش مشبهاً إياه بالناقة في مثل قوله:

كأن تحتي ذا شيات أخنسا ألجأه نفخ الصبا وأدمسا
والطل في خيس أراط أحيسا فبات متصاً وما تكردسا
إذا أحس نبأه توجسا حتى إذا الصبح له تنفسا
غدا بأعلى سحر وأجرسا عدا يباري حرصاً واستأنسا
كذلك لا جديد في وصفه لثور الوحش المخطط الأخنس، الذي يبيت في الطل معتصماً بأرطاة، خائفاً من كل حس إلى الصباح فينطلق مسرعاً طرباً.

ويظهر القصد إلى الغريب، وإيراد الألوان من المشتقات والجموع، والمشاكلية في اللفظ أو الجناس، حين يتحدث عن الصحراء والجمل مشبهاً إياه بالسفينة في أرجوزته:

دوية لهولها دوي للريح في إقراها هوي
ويبدو في هذه الأوصاف أنه معلم لغة يتتبع الأجزاء والحركات ليدل على أسمائها، ولعله حاول أن يعلل لتسمية الفلاة دوي دوياً وأن للريح بها هوياً. وذكر بعض الأسماء والصفات للجمل، ثم ذكر جملة وما يتصل به من أجزاء ومتعلقات، وجمع بين (دوية ودوي) و(زل

واستزل) و(حبا وحبى) و(فلا والمفلى) وغير ذلك مما يظهر في جميع أراجيزه، أما المعنى عنده قديم، عاجله الشعراء كثيراً.

وهكذا ركب الضرورة في الاشتقاق والجمع، وأتت أراجيزه غريبة تستمد غرابتها من القصد اللغوي ومن الاعتداد على ألفاظ البدويين الحضريين. ولا ريب أنه كان يتحمل مشقة في هذا، وإن روي أنه لم يكن يبطئ عليه الرجز متى أراد.

وفي هذه الأوصاف نرى تأثيراً كثيراً بامرئ القيس والمهلhel من بعدهما مع تفصيل وطرافة لا تتهيأ له في غير وصف المفازة والليل.

ولا جرم أن للعجاج أثراً كبيراً في الرجز، لكن الحكم الدقيق على مداه يقتضي الإحاطة بما سبقه من الرجز وبالنثر البدوي الذي حفظت كتب الأدب نماذج منه في وصف الليل والغيث والصحراء والحيوان، فهذا النثر كان لا ريب ذا أثر كبير في رؤية البدو في حضرهم ويتزودون منهم.

د- مكانته في الرجز:

يعد عبد الله بن ربيعة العجاج من أهم من كتاب الرجز، وإن جل ما نعرفه عن الأثر الشعري المنسوب إلى العجاج منظوم على بحر الرجز وذو قافية وحيدة، مما يدل على قدرة فائقة، وإذا ما استثنينا القصائد ذات الأسلوب البسيط فإن الانطباع الذي نخرج به انطباع عن حدوث بحث خارق ومثير عن المفردات، فكأن الشاعر يلتهى في تكديس الألفاظ المستعارة من عالم البداوة، وفي جمع كلمات فريدة استعملها، أول مرة، العلماء اللفظيون العراقيون في القرنين الثاني والثالث للهجرة/ الثامن والتاسع للميلاد.

وإن الاشتراك واضح في المادة اللفظية وأسلوب النظم بين الرجز والشعر وبين نثر البدويين في كثير من الأمثلة.

٢- رؤبة بن العجاج

أ- حياته ونشأته:

ولد حوالي سنة (٨٠ هـ / ٦٩٩ م)، وأمضى طفولته ويفاعته في كنف أبيه سواء في بني تميم في الصحراء أو في البصرة. ووفد بصحبة أبيه على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سواء في الشام أو مكة أثناء حج الخليفة المذكور حوالي سنة (٩٧ هـ / ٧١٦ م) ومنذ ذلك التاريخ وضحت سيرته الشعرية بوصفه مداحاً، ومات رؤبة سنة (١٤٥ هـ / ٧٩٢ م)، تاركاً ولداً اسمه عقبة، وهو شاعر أيضاً لم يلق نجاحاً.

وإذا كان المؤرخون اهتموا قليلاً بسيرة رؤبة، وإذا كانوا اتجهوا إلى اعتبار سيرته الشعرية امتداداً لسيرة العجاج فإنهم، بالمقابل، أقاموا وزناً لتناجه الشعري المرفوع من قبلهم فوق نتاج نظراته من الشعراء.

ب- أغراضه الشعرية:

١- المدح:

بدأ رؤبة بامتداح الكبراء أو أعضاء الأسرة المالكة أمثال عنبسة بن سعيد والحكم بن عبد الملك بن بشر والمسير مسلمة بن عبد الملك في قصائد عديدة، وعلى وجه الخصوص عند انتصاره على يزيد بن المهلب سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م)، ومدح رؤبة حامي الأدباء في البصرة بلال بن أبي بردة المتوفى بعد سنة (١٢٠ هـ / ٧٣٨ م) وحاكم العراق خالد القسري المتوفى سنة (١٢٠ هـ / ٧٣٨ م)، وعبد الملك بن قيس الذئبي ونصر بن سيار المتوفى سنة (١٣١ هـ / ٧٤٨ م)، ولدينا أخيراً من شعره قصائد فخفخة مدح بها الخليفين هشاماً والوليد، وكذلك مدح آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، كما أن الشاعر يعالج فن المديح بحددة لا يعدلها فقط إلا نقص الطرافة فيها، ذلك أن امتداح حماة الشاعر يركز على قضايا تقليدية.

٢- النسب البدوي:

وتتخذ الغنائية الذاتية في شعر رؤبة أشكالاً مختلفة، فإن المقدمة أو النسب يستعيد بصورة عامة الموضوعات البدوية عن المنازل المهجورة، ورحيل النساء في الهوادج، والوحشة في الليل.

٣- الابتهالات التقوية:

وقد يلجأ الشاعر أحياناً إلى ابتهالات تقوية أو يستسلم إلى بوح عاطفي ذاتي.

٤- الوصف:

ويحتل النوع الوصفي في الديوان مكاناً فائق الحد، وقلائل هم الشعراء الذين خصصوا لموضوع الصحراء، والقيظ الذي يرهق فيها الأرض والمخلوقات وموضوع الحيوانات التي تجوس خلالها، أو السارحة على غير ذلك.

يقول رؤبة في وصف الفرس:

طِرْنَا إِلَى كُلِّ طُوالٍ أَهوجَا ساطٍ يمدُّ الرَّسْنَ المَحْمَلِجَا
تراه من غبِّ الصِّقالِ مُدَجِجَا بحرَ الأجارِي مَسحاً مَعَجِجَا
بعيد نضح الماء مذكاً مهرجا وطفرة شُدتْ دخالاً مُدَرِجَا

٥- الفخر:

ثم إن الفخر ينضوي على نفس ساذجة على الغالب فمدح أهل قبيلته بني تميم.

ج- رؤبة مخبر اللغة المعجمي:

١- ثمة أدب نوادري موسع جداً يظهر فيه شعره، وليس بعيداً عن التصديق أن يلجأ إليه شعراء حضريون أمثال الكميت والطرماح إلى التقاط كلماته الفريدة ليرصعوا بها أشعارهم.

٢- ولكن الشيء المؤكد على كل حال، أن لغويين ومؤرخين عديدين من أمثال يونس بن حبيب النحوي، والأصمعي وأبي عبيدة، استعملوا رؤبة بوصفه مخبراً أو حكماً على سلامة استعمال الألفاظ. وكان لتأثير رؤبة في أوساط النحويين بعد استقراره في البصرة، أكثر حسماً بعد كل ما يتراءى لنا عن جمع الشعر الجاهلي.

إن تفسير هذه الظاهرة مرده إلى اتساع نتاج الشاعر المذكور وتملكه زمام المفردات المأخوذة عن الأعراب الذين لم تنقطع صلاته بهم، وإذا كان ثمة انتقادات مصوغة فهي تتناول بعض النقاط الثانوية، ويظل رؤبة في نظر المؤرخين حجة، كما تبرهن على ذلك الاستشهادات العديدة بشعره في المعاجم، وقد ركز الباحثون في كل العهود، على لغة الشاعر وغرابتها المثيرة

أحياناً، وبدئ منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بجمع القصائد والمقطوعات الموضوعية باسم رؤبة.

د- انزلاق رجز العجاج لرؤبة:

ويجدر ألا نبعد الفكرة القائلة بإمكانية انزلاق منظومات العجاج إلى منظومات ابنه رؤبة وبالعكس، ومهما تكن أهمية عقبة بن رؤبة في جمع آثار أبيه فإننا لا نستطيع إغفالها.

هـ- شعره:

إن شعر رؤبة كله كشعر أبيه منظوم على بحر الرجز، وهذا ما يعلل طول القصائد وينبغي على كل حال التذكير بأن السهولة التي يوفرها استعمال البحر المذكور يعدلها تكلف في الألفاظ، وتحسن الملاحظة بأن الجهد المبذول أبعد من أن يكون ثابتاً، فإن الشاعر في الواقع، يزهّد أحياناً كثيرة بالكلمات الغريبة، وقد يستعمل رؤبة في بعض الأحيان في قصيدة واحدة مفردة سهلة حيناً ومتكلفة حيناً آخر.

٣- أبو مرقال الزفيان الراجز

أ- حياته ونشأته:

اسمه عطاء بن أسيد من قبيلة سعد بن تميم، قيل: إنه ولد في منتصف القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وبقي الزفيان على صلة مع قبيلته فمدحهم بغية الإساءة إلى اليمنيين، وله قصيدة يصف فيها انتصار الجيش بقيادة عمر بن عبيد الله بن معمر على الخارجي أبي فديك في معركة البحرين سنة (٧٣هـ/ ٦٩٣ م)، ويستنتج من ذلك أن الزفيان مات بعد هذا التاريخ. ولم يعر أرباب المختارات الشعرية والعلماء الزفيان أي التفات وهناك من شعره عشر قصائد نظمت على بحر الرجز.

ب- أغراضه الشعرية:

أما الأنواع التي نظم فيها فهي: المديح والفخر ووصف الإبل، والأطلال، ومن ذلك قوله في الوقوف بالأطلال:

ما بال عين شوقها استبكاها	في رسم دار لبست بلاها
طامسة الأعلام قد محأها	تقادم من عهدا أبلأها
وعاصف يتبعها ذيلأها	يستن بالجولان من حصأها
وكل رجاف إذا سقأها	بديم مع رهـم ولاها

ج- لغته الشعرية:

إن لغة شعر الزفيان ومفرداته بسيطة على الغالب، ولكن الاستيحاء اللفظي هو الصفة الغالبة.

د- شعره:

شعر الزفيان صادر عن قريحة شعرية. وإن ما بقي من أشعاره قليل، وكله مقطوعات صغيرة لا تعدو كبرأها تسعة وثلاثين شطراً، وتختلف طريقته عن طريقة العجاج من ناحية

القصد في استعمال الغريب والمتشاكل من الألفاظ والإيجاز، لكنها تتفق معها في الغرض الأساسي وهو الخدمة اللغوية مع انعدام الطرافة الشعرية.

فهو لا ريب أسهل وأقل إغراباً، لكنه لم يأت بجديد كذلك في معانيه حين استبكي وذكر الرسم البالي ومحو تقادم العهد للأعلام، وكر الرياح والسحب والأمطار.

ومن هذا القبيل أوصافه للفقير والناقة والفرس ورحيل الأحبة.

٤- الراعي النميري

أ- تهويمات بدوية:

سبق الراعي النميري عمه ذا الرمة في الرجز. ولم يكن الراعي بدوياً قحاً، وإن كان بيته بالبادية، وإنما كان يقيم بالبصرة مع كثيرين من أبناء قبيلته بني نمير، ويظعن أحياناً إلى البادية، وقد اتجه إلى ناحية خاصة اشتق منها اسمه هي وصف الإبل والتصوير لحياتها الراعية، وقدر له القدماء طرافة اتجاهه فقالوا عنه: ((كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه)).

ب- إيغال في الوصف:

والحق أن اتجاهه كان جديداً وإن لم يسلم من الخضوع القديم، فقد كان يأخذ في وصف الإبل بأساليب القدماء، لكنه امتاز بخصوصيات زاد فيها وهي التصوير لحياة الرعاة، والإيغال في إحياء الإبل وحياة إنسانية، وبروز بعض عناصر الفنتنة في وصفه بروزاً لم يظفر بمثله معاصروه، وترتب على هذه الخصوصيات السهولة في الأداء وعدم الإغراب. على أنه لم يقصر جهده على هذا اللون، وإنما مدح وهجا وتغزل.

ج- أقسام قصيدته:

قسم قصيدته بين الغزل والطبيعة والمدح والهجاء. ويتمثل فنه في قصيدته:

ما بال دفك بالفراش مذيلاً أقدى بعينك أم أردت رحىلا
فقد بدأها بحديث الحب، ثم انتقل إلى وصف الإبل مصوراً قوتها وضخامتها وملامستها كما صورها القدماء، ومنها قوله:

بنيت مرافقهن فوق مزلة لا يستطيع بها القراد مقيلا
وهو معنى قديم جداً صوره الشعراء بأساليب مختلفة، متقاربة في البيان، عبر الراعي عن ملامسة البشرة حتى لا يثبت القراد عليها.

د- وصف رحلة الإبل:

أما الطريف عنده، فهو تصوير:

- ١- رحلة الإبل مع حاديها.
- ٢- وورودها الماء.
- ٣- ورعيها.
- ٤- ووصف دقائق هذه الرحلة.
- ٥- وتأليف القطيع من ناقة نشيطة تتقدمه.
- ٦- وحاد يغني.
- ٧- وإبل تتدافع.
- ٨- وسرى بالليل.
- ٩- وعين تورد.
- ١٠- وماء يقع في البطون الصوادي وما إلى ذلك.

هـ- وصف الجاهليين:

وكان العهد بشعراء الجاهلية المعروفين ألا يصفوا رحلة الإبل مجتمعة. وإنما يصفون:

- ١- ناقة تسير ويشبهونها بحيوان الوحش.
 - ٢- هذا الوحش الذي يصفون رحلته إلى الماء مع جماعة من رفاقه.
 - ٣- أو مبيته منفرداً إلى جانب أرطأة.
 - ٤- حتى يدهمه الصياد في الصباح.
 - ٥- فتدور بينهما معركة يظفر فيها الحيوان.
 - ٦- كما ينجو حيوان الوحش المجتمع من السهام التي تسدد إليه أثناء وروده إلى الماء.
- أما الراعي النميري، فقد مثل الإبل ترعى مجتمعة، وصور الحياة الراعية، وكثيراً من عادات البدو في إكرام الضيف ونحر الإبل والشجاعة، وما إلى ذلك.

و- من أشعاره في وصفه للإبل:

ومن أشعاره الدالة على الفتنة بالإبل فتنة تبدو كالغزل قوله:

وواضحة خدها للزمام فالخذ منها له أصغر
ولا تعجل المرء قبل الركوب وهي بركبته أبصر
وهي إذا قام في غرزها كمثمل السفينة أو أوقر

ز- وصفه بيضة النعام:

ومن طرائفه البدوية تمثيله لبيضة النعام وجمالها، وترك الظليم لها في الرمال المتلبدة بين الشمس المشرقة وتغريد المكاء.

وقد اتخذ هذه الصورة الجميلة تابعة للغزل غير مستقلة بنفسها كما صنع القدماء من قبل، ولعل هذه التبعية قد حالت بينه وبين الإفاضة في مثل هذه المعاني الدقيقة. على أن الراعي لم يبرأ من العناية اللغوية. فكان بعض شعره موضع المذاكرة من اللغويين، كما كان الشعراء المعاصرون يستفيدون من معانيه.

٥- الأغلّب بن عمود العجالي

أ- حياته ونشأته:

بني عجل بن جشيم من قبيلة بكر بن وائل في اليمامة ولد في الجاهلية وأدرك الإسلام.

ب- علمه وجهاده:

واشترك في فقه العراق واستشهد في وقعة نهاوند سنة (٢١ هـ / ٦٤١ م).

ج- شعره:

ولم يبق شيء من شعره، وقد اعتبر مؤرخو الأدب الأغلّب أول من شبه الرجز بالقصيد، فإذا كان هذا الصنع صحيحاً فهو يدل على وجوب تحديد ظهور بدعة تجديدية في منتصف القرن الأول الهجري السابع الميلادي بعد أن كانوا يتجهون إلى تحديد ظهورها في الجيل التالي.

٦- أبو النجم الراجز

أ- حياته ونشأته:

هو الفضل من بني عجل أيضاً قيل: إنه ولد حوالي سنة (٣٥هـ/ ٦٥٥م) وبقي على صلة وثيقة بقبيلته مع استمرار قدومه أحياناً إلى البصرة وأحياناً أخرى إلى دمشق والرصافة مقام الخليفة هشام الصفي، وبما أن أبا النجم شاعر بني عجل وربيعة فقد دب النزاع بينه وبين العجاج التميمي وولده رؤبة، وجعل أبو النجم من نفسه مداحاً للأمويين مشيداً بذكر عبد الملك بن مروان والحاكم الحجاج.

وأخيراً الخليفة هشام بن عبد الملك. والظاهر أن أبا النجم مات بعد سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٤م) بعد أن عمّر طويلاً، وقيل: إنه يبلغ سبعين عاماً.

ب- شعره:

وقد اعتبر علماء البصرة وبدرجة أقل علماء الكوفة أبا النجم أحد أسياذ الرجز، وإن أشعاره التي تناقلها الرواة حتى أبي عمر الشيباني جمعت في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وبقي جزء قليل منها وثمة مقتطفات من شعره تدل على أن النجم نظم على البحور التقليدية، ولكنه التزم الرجز على وجه التخصيص، ويبدو أنه وفق في الأنواع المدحية والوصفية.

٧- دكين الراجز

أ- حياته ونشأته:

ابن رجاء من بني فقيم وهم بطن من قبيلة تميم، وقد خلط المؤرخون بينه وبين تميمي آخر هو دكين بن سعيد.

ب- مدحه:

وعرف دكين بأرجوزة مدح بها مصعب بن الزبير المتوفى سنة (٧٢/٦٩١ م) وبقصيدة وصف بها فرسه للخليفة الوليد من سنة (٨٦ - ٩٦ هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥ م) كما اشتهر بقصيدة امتدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة أي قبل سنة (٩٣ هـ/ ٧١٢ م).

ج- شعره:

إن جمع قصائد دكين من بحر الرجز وهي طويلة إلى حد ما، فلغتها سهلة وتكاد تكون مأنوسة، وأشعاره تدل في الحدود التي تكون فيها مطبوعة بطابع العصر، على أن الراجز لم يستسلموا جميعاً للاستيحاء اللفظي وأن شعرهم نال حظوة لدى الكبراء.

الباب السابع
نصوص مختارة من الشعر
في عصر بني أمية

أولاً- من الشعر السياسي

أ- حزب الخوارج

١- الطرماح بن حكيم الطائي

قال يصف حياة الخوارج:

لله در الشراة أنهم
يرجعون الحنـين آونة
قوم شحاح على اعتقادهم
إذا الكرى مال بالطلـى أرقوا
فإن علا ساعة بهم شهقوا
بالفوز مما يخاف قد وثقوا

٢- وقال الطرماح أيضاً:

وإني لمقتاد جـوادي وقاذف
فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمي
به وبنفسي العام إحدى المقاذف
على شر جمع يعلى بخضر المطارف
كضغت الخلى بين الرياح العواصف

٣- معاذ بن جوبن:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ
فشدوا على القوم العداة فإنما
فيا ليتني فيكم على ظهر سابع
يعز علي أن يخافوا وتطردوا
فيارب جمع قد فللت وغارة
شرى نفسه لله أن يـترحلا
إقامتكم للذبح رأي مضللا
شديد القصيري دارع غير أعزلا
ولما أجرد في المحلين منصلا
شهدت وقرن قد تركت مجدلا

٤- سبرة بن الجعد

لما بلغت أبيات قطري سبرة أخذ سلاحه ولحق بالشراة وترك للحجاج الأبيات التالية:

فمن مبلغ الحجاج أن سبيرة
قلـى كل دين غير دين الخوارج

فأقبلت نحو الله بالله واثقا
إلى عصابة أما النهار فإنهم
وأما إذا ما الليل جن فإنهم
وما كرتني غير الإله بفارج
هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
قيام بأنواح النساء النواشج

٥- يزيد بن حبناء:

قال يصور حياة الخوارج ويصف قتالهم جيش المهلب بسابور:

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم
يربد ثواب الله يوماً بطعنة
حلفت برب الواقفين عشية
لقد كان في القوم الذين لقيتهم
ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم
غموس كشدق العنبري بن سالم
لدى عرفات حلقة غير آثم
بسابور شغل عن بزور اللطائم

٦- عيسى بن فاتك:

وجه عبيد الله بن زياد أسلم بن زرعة في ألفين لقتال أبي بلال الخارجي، فهزمه أبو بلال وهو في أربعين رجلاً، فقال عيسى بن فاتك الخارجي في ذلك:

فلما أصبوحوا صلوا وقاموا
أألفا مؤمن فيما زعمتم
هم الفئة القليلة غير شك
إلى الجرد العتاق مسومينا
ويهمهم بأسك أربعوننا
على الفئة الكثيرة ينصرونا

٧- عمران بن حطان

لقد زاد الحياة إلي بغضا
أحاذر أن أموت على فراشي
ولو أني علمت بأن حتفي
فمن يك همه الدنيا فإني
وحباً للخروج أبو بلال
وأرجو الموت تحت ذرا العوالي
كحتف أبي بلال لم أبال
لها والله رب البيت قال

٨- وقال عمران أيضاً يرثي أبا بلال:

يا عيني ابكي لمرادس ومصرعه
تركتني هائماً أبكي لمرزئتسي
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه
أما شربت بكأس دار أولها
فكل من لم يذوقها شارب عجلا
يا رب مرداس اجعلني كمرداس
في منزل موحش من بعد إيناس
ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
على القرون فذاقوا جرعة الكاس
منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

٩- مصقلة بن عتبان

قال يفاخر بني أمية بمن كان من الخوارج من قبيلة بكر ويتهددهم:

وأبلغ أمير المؤمنين رسالة
فإنك إلا ترض بكر بن وائل
فإن يك منكم كان مروان وابنه
فمننا سويد والبطين وقعناب
غزالة ذات النذر منا حميدة
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا
وذو النصح إن لم يرع منك قريب
يمن لك يوم بالعراق عصيب
وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
ومنا أمير المؤمنين شبيب
لها في سهام المسلمين نصيب
يقوم عليها من ثقيف خطيب

١٠- عمرو بن الحصين:

قال يذكر وقعة قديد وأمر مكة ودخول الخوارج إياها، ويرثي قتلى الإباضية في تلك
الموقعة ويصف حياة الخوارج:

ما بال همك ليس بعازب
وتبيت تكتلى النجوم بمقلّة
حذر المنية أن تجيء بداهة
فأقود فيهم العدى شبح النسب
يمري سوابق دمعك المتساكب
عبرى تسر بكل نجم دائب
لم أقض من تبع الشراة مآربي
عبل الشوى أسوان ضم الحالب

بوراً إلى جبرية ومعايب
لفّ القداح يد المفيض الضارب
كأس المنون تقول هل من شارب
سمر ومرهفة النصول قواضب
فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب
ناراً تسعرها أكفّ حواطب
أو ساجد متضرع أو ناحب
خصل المكارم أتقياء أطايب
حد الطباب بآنف وحواجب
فرمى بهم قحم الطريق اللاحب
أسد على لحق البطون سلاهب
تنفي عداها جانباً عن جانب
يحكين واردة اليهام القارب
إلا تركنهم كأس الذاهب
فلق وأيد علق بمناكب
تخبرك عن وقعاتها بعجائب

أرمي به من جمع قومي معشرا
في فتية صبر ألفهم به
فذور نحن وهم وفيما بيننا
فنظّل نسقيهم ونشرب من قنا
كم من أولي مقّة صحتهم شروا
متأوهين كأن في أجوافهم
تلقاهم فتراهم من راعع
ومبرئين من المعايب أحرزوا
عدوا صوارم للجلاذ وباشروا
ناطور أمورهم بأمر أخ لهم
متسربلي حلق الحديد كأنهم
قيدت من أعلى حضر موت فلم تزل
حتى وردن حياض مكة قطننا
ما إن أتين على أخي جبرية
في كل معترك لهم من هامهم
سائل بيوم قديد عن وقعاتها

١١ - وقال عمرو بن الحصين أيضاً

يرثي عبد الله بن يحيى وأبا حمزة الخارجي ومن قتل أصحابها ويصف حياة الخوارج:
هند تقول ودمعها يجري
ينهل واكفّها على النحر
سرب الدموع وكنت ذا صبر

هبت قبيل تبلج الفجر
أن أبصرت عيني مدامعها
أنى اعترك وكنت عهدي لا

أم عائر أم مالها تذرني
سلكوا سبيلهم على خبر
لا غيره عبراتها يمري
ذا العرش واشدد بالتقى أزري
للمشرفية والقنا السمر
حتى أكون رهينة القبر
ناهون من لا قوا عن النكر
وزن لبقول خطيبهم وقر
للخوف بين ضلوعهم يسري
لخشوعهم صدروا عن الحشر
أو مسهم طرف من السحر
فيه غواشي النوم بالسكر
حذر العقاب وهم على ذعر
قوام ليلته إلى الفجر
أي القران مفرغ الصدر
تراك لذته على قدر
من طعنة في ثغرة النحر

أقذى بعينك ما يفارقها
أم ذكر إخوان فجعت بهم
فأجبتها بل ذكر مصرعهم
يارب اسلكني سبيلهم
في فتية صبروا نفوسهم
تالله ألقى الدهر مثلهم
متأوهون لك صالحة
صمت إذا احتضروا مجالسهم
متأوهون كأن جمر غضى
تلقاهم إلا كآأنهم
فهم كان بهم جوى مرض
لا ليلهم ليل فيلبسهم
إلا كذا خلصاً وآونة
كم من أخ لك قد فجعت به
متأوه يتلو قوارع من
ظمان وقدة كل هاجرة
لا شيء يلحقه أسر له

ب- حزب الشيعة

١- كثير بن عبد الرحمن

قال لما سجن عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في سجن عارم بمكة:

ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى
سمي النبي المصطفى وابن عمه
أبى فهو لا يشري الضلالة بالهدى
ونحن بحمد الله نتلو كتابه
وحيث الحمام آمن الروع ساكن
فما فرح الدنيا بباق لأهله
تخبر من لا قيت أنك عائذ
من الناس يعلم أنه غير ظالم
وفكّاك أغلال ونفّاع غارم
ولا يتقي في الله لومة لائم
حلولا بهذا الخيف خيف المحارم
وحيث العدو كالصديق المسالم
ولا شدة البلوى بضربة لازم
بل العائذ المظلوم في سجن عارم

٢- سليمان بن قنة:

قال يرثي الحسين بن علي ويتوعد القبائل التي شاركت في قتله:

مررت على أبيات إلا محمد
لم تر أن الشمس أضحت مريضة
ألا إن قتلى الطف من آل هاشم
وكانوا غياباً ثم أضحووا رزية
أتسألنا قيس فنعطي فقيرها
وعند غني قطرة من دمائنا
فلا يبعد الله الديار وأهلها
عوف بن عبد الله بن الأحمر
فلم أرها أمثالها يوم حلت
لفقد حسين والبلاد اقشعرت
أذلت رقاب المسلمين فذلت
لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
سنطلبها يوماً بها حيث حلت
وإن أصبحت منهم برغمي تحلت
وقلت لأصحابي أجيئوا المناديبا

وقبل الدعا: لبيك لبيك داعياً
حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعياً
عديماً وأيتام تشكو المواليا
فلم يريوم البأس منهم محامياً
وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويها
فضاربت عنه الشائئين الأعاديا
بغريبة الطف الغمام الغواديا
أنبيوا فأرضوا الواحد المتعاليا

وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى
ألا وانع خير الناس جداً ووالدا
ليبك حسيناً مرمل ذو خصاصة
لحا الله قوماً أشخصوهم وعردوا
فأضحى حسين للرماح دريئة
فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدته
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقوى
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة

٣- الفضل بن عبد الرحمن بن العباس:

قال يرثي زيد بن علي ويحرض أشياعه على الثأر له:

بدمعك ليس ذا حين الجمود
صليب بالكناسة فوق عود
بنفسي أعظم فوق العمود
فأخرجه من القبر اللحد
خضيباً بينهم بدم جسيد
وما قدروا على الروح الصعيد
وأجداداً هم خير الجدود
من الشهداء أو عم شهيد
وتطمع بعد زيد في الهجود
جواد الخيل تعدو بالأسود
ومن قحطان في حلق الحديد

ألا يا عين لا ترقى وجودي
غداة ابن النبي أبو حسين
يظل على عمودهم ويمسي
تعدى الكافر الجبار فيه
فظلوا ينبشون أبا حسين
فطال به تلعبهم عتوًا
وجاور في الجنان بني أبيه
فكم من والد لأبي حسين
وكيف تضمن بالعبرات عيني
وكيف لها الرقاد ولم تراءى
تجمع للقبائل من معد

تنادت أن إلى الأعداء عودي
صوارم أخلصت من عهد هود
ونقتل كل جبار عنيد
ونجعلهم بها مثل الحصيد

كتائب كلما أردت قتيلًا
بأيديهم صفائح مرهفات
بهانسقي النفوس إذا التقينا
ونحكّم في بني الحكم العوالي

٤- أبو ثميد الأبار:

قال يرثي زيد بن علي ويصور حياة آل البيت:

من يلق ما لقيت منها يكمد
الأقدار حيث رمت به لم يسهد
وكذاك من يلق المنيّة يبعد
ترجى لأمر الأمة الممتأود
بالله في سير كريم المورود
فيهم بسيرة صادق مستنجد
منكم وأحرى بالفعال الأجد
من بين مقتول وبين مشرد
رقد الحمام وليلهم لم يرقد
أسباب موردها وما لم يورد
بالأمس أو ما عذر أهل المسجد

يا أبا الحسين أعار فقدك لوعة
فعر السهاد ولو سواك رمت به
ونقول: لا تبعد وبعيدك داؤنا
كنت المؤمل للعظائم والنهي
فطلبت غاية سابقين فنلتها
وأبى إلهك أن تموت ولم تسر
والقتل في ذات الإله سجية
والناس قد آمنوا وآل محمد
نصب إذا ألقى الظلام ستوره
ياليت شعري والخطوب كثيرة
ما حجة المستبشرين بقتله

٥- أعشى همدان:

قال يذكر إيقاع مصعب بن الزبير بالمختار وأتباعه:

بما لاقت بجيلة بالمذار
وطعن صائب وجه النهار

ألا هل أتاك والأنباء تنمى
أتيح لهم بها ضرب طلخف

فعمتهم هنالك بالدمار
مررت على الكوفة بالصغار
لهم جم يقتل بالصحاري
وإن كانوا وجدك في خبار
أبو إسحاق من خزري وعار

كان سحابة صعقت عليهم
فبشر شيعة المختار إما
أقر العين صرعاهم وقل
وما إن سرنى إهلاك قومي
ولكنني سررت بما يلاقي

٦- أعشى همدان:

قال يمدح عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ويحرضه على قتال الحجاج:

سني قد جنيت عليه حربا
جلد إذا ما الأمر عبا
سدة لا أبالي فيك عتبا
س وأنت أعلى الناس كعبا
سف خر من زلق فتبا
يجلو بك الرحمن كربا
رس خلفهم درباً فدربا
ل يكبهن عليه كعباً

من مبلغ الحجاج أنـ
وصفقت في كف امرئ
يا ابن الأشج قريع كنـ
أنت الرئيس ابن الرئـ
نبئت حجاج بن يو
فانهض فدبت لعله
فإذا جعلت دروب فا
فابعث عطية بالخيو

٧- وقال أيضاً يتوعد الحجاج ويهجوّه ويمدح ابن الأشعث:

كذابها الماضي وكذاب ثان
يوماً إلى الليل يسلى ما كان
حين طغى في الكفر بعد الإيمان
سار بجمع كالدي من قحطان
بجحفل جم شديد الإرنان

إن ثقيفاً منهم الكذابان
أمكن ربي من ثقيف همدان
إناسمونا للكفور الفتان
بالسيد الغطريف عبد الرحمن
ومن معد قد أتى ابن عدنان

يثبت لجمعي مذبح وهمدان
وملقوه بقري ابن مروان

فقل لحجاج ولي الشيطان
فإنهم ساقوه كأس الذيفان

٨- أبو جلدة اليشكري:

قال يحرص أهل الكوفة على قتال الحجاج يوم الزاوية:

وأحمى لما تخشى عليه الفضائح
بنا الأعوجيات الطوال السراح
ولا تبكنا إلا الكلاب النوايح
رماح النصارى والسيوف الجوارح
وتأبى قلوب أضمرتها الجوانح
تغارون أن تبدو البرى والوشائح
إذا انتزعت منها القرون النواطح
ولا عزب عزت عليه المناكح

لعمري لأهل الشام أطعن بالقنا
تركنا لهم صحن العراق وناقلت
فقل للحواريات بيكين غيرنا
بكين إلينا خشية أن تبيحها
بكين لكم ما يمنعوهم منهم
نادينا أين الفرار وكنتم
أسلمتمونا للعدو على القنا
فما غار منكم غائر لخليلة

٩- ثابت قطنة:

قال يرثي بن المهلب ويتوعد بني أمية:

وهاج لك الهم الفؤاد المتيما
وقد راققت عيناى حولاً مجرماً
دعته المنايا فاستجاب وسلمها
كتائبه واستورد الموت معلماً
تسلّيت إن لم يجمع الحي مأتماً
لطالب وتر نظرة إن تلوماً
على ابن أبي ذبان أن يتندما

أبى طول هذا الليل أن يتصرماً
أرقت ولم تأرق معي أم خالد
على هالك هد العشرة فقده
على ملك يا صاح بالعقر جنبت
أصيب ولم أشهد ولو كنت شاهداً
وفي غير الأيام يا هند فاعلمي
لعلني إن مالت بي الريح ميلاً

نذك به اقيء الأساود مسلما
نكافئه باليوم الذي كان قدما
إلينا وإن كان ابن مروان أظلمها
وأظهر أقوام حياء مججما
إذا أحصرت أسباب أمر وأبهما

أمسلم إن يقدر عليك رماحنا
وإن نلق للعباس في الدهر عثرة
قصاصاً ولا نعدو الذي كان قد أتى
ستعلم إن زلت بك النعل زلة
من الظالم الجاني على أهل بيته

ج- الحزب الأموي

١- عبد الله بن همام السلولي:

قال يحض يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية الثاني ويرثي معاوية بن أبي سفيان:

تعزوا يا بني حرب بصبر
لقد وارى قليكم بياننا
وجدناه بغيضاً في الأعادي
فقد أضحى العدو رخي بال
فعاض الله أهل الدين منكم
مجانبة المحاق وكل نحس
خلافه ربكم كونوا عليها
أدير وهما بني حرب عليكم
تلقفها يزيد عن أبيه
فإن ديناكم بكم اطمأنت
وإن ضجرت عليكم فاعصوها

فمن هذا الذي يرجو الخلودا
وحلماً لا كفاء له وجودا
حبیباً في رعيتيه حميـدا
وقد أمسى التقى به عميـدا
ورد لنا خلافتكم جديدا
مقاربة الأيمان والسعودا
كما كنتم عنابسة أسودا
ولا ترموا بها الغرض البعيـدا
وخذها يا معاوي عن يزيدا
فأولوا أهلها خلقاً سديدا
عصاباً تستدر به شديدا

٢- النابغة الشيباني:

قال يمدح عبد الملك بن مروان وبني أمية ويؤيد توليه عبد الملك العهد ابنه الوليد بعده:

أزحت عنا آل الزبير ولو
إن تلق بلوى فأنت مصطر
آل أبي العاص آل مـأثرة
خير قریش وهم أفاضلها

كانوا هم المالکین ما صلحوا
وإن تلاق النعمى فلا فرح
غر عتاق بالخير قد نفخوا
في الجد جد وإن هم مزحوا

أنتم إذا القوم في الوغى كلحوا
تكلف من صعبيهم إذا طمحووا
أوريت إذا صلدوا وقد قدحوا
برب عبد تجنه الكرح
من خشية الله قلبه طفح
ونجم من قد عصاك مطرح
ثم ابن حرب فإنهم نصحوا
واخي بخبر واكدح كما كدحوا

أرحبها أذرعاً وأصبرها
أما قریش فأنت وارثها
حفظت ما ضيعوا وزندهم
آليت جهداً وصادق قسيمي
يظل يتلو الإنجيل يدرسه
لابنك أولى بملك والده
داود عدل فاحكم بسيرته
وهم خيار فاعمل بستتهم

٣- عبد الله بن خارجة الشيباني:

قال يجرى عبد الملك بن مروان على قتال عبد الله بن الزبير:

عجل التاج بحملها فأحالهها
مالا تطيق فضيعة أحمالها
كم للغواة أطلتم إمالها
ما زلتهم أركانها وثمالها
فانهض بيمنك فافتح أقفالها

آل الزبير من الخلافة كالتى
أو الضعاف من الحمولة حملت
قوموا إليهم لا تناموا عنهم
إن الخلافة فيكم لا فيهم
أمسوا على الخيرات قفلاً مقفلاً

٤- أبو العباس الأعمى:

قال يمدح بني أمية ويحرضهم على قتال عبد الله بن الزبير:

شبهاً إذا ما التفت الشيع
أهل الخلووم فضرها النزع
من ذاك أنف معاشر رتعوا
والناس فييا أطمعوا طمعوا

أبني أمية لا أرى لكم
سعة وأحلاماً إذا نزع
الله أعطاكم وإن رغمت
أبني أمية غير أنكم

فسمأ بهم في ذاكم الطمع
مثل الذي كانوا لكم رجعوا
حذر العقوبة أنها تزع

وما إن أخال بالخفيف أنسي
والبهاليل من بني عبد شمس
عليها وقالتة غير خرس
قالوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
ووجوه مثل الدنانير ملس

أطمعتم فيكم عدوكم
فلو أنكم كنتم لقولكم
عما كرهتم أو لردهم
٥- وقال أيضاً يمدح بني أمية:

ليت شعري أفاح رائحة المسك
حين غابت بنو أمية عنه
خطباء على المنابر فرسان
لا يعابون صامتين وإن
بحلوم إذا الحلوم تقضت

٦- عدي بن الرقاع العاملي

قال يذكر قتال عبد الملك مصعب بن الزبير بمسكن:

بأكناف دجلة للمصعب
ق عوتب ثمت لم يعتب
قليل التفقد للغيب
ة ملتئم النصل والثعلب
ضجيج قطا بلد مخصب
كريم الضرائب والمنصب
ومن ينصر الله لم يغلب

لعمري لقد أصحرت خلينا
إذا ما منافق أهل العرا
دلفنا إليه بنذي تدري
يهزون كل طويل القنا
كأن وعاهم إذا ما غدوا
فقدمنا واضح وجهه
أعين بنا ونصرنا به

٧- البعيث اليشكري:

قال يذكر مقتل مصعب ويؤيد بني أمية:

وهم الهوادي أن تكن تواليا

ولما رأينا الأمر نكساً صدوره

صبرنا لأمر الله حتى يقيمه
ونحن قتلنا مصعباً وابن مصعب
ومرت عقاب الموت منا بمسلم
سقيناً ابن سيدان بكأس روية
ولم نرض إلا من أمية واليا
أخا أسد والنخعي لليانبا
فأهوت له ناباً فأصبح ثاويبا
كفتنا وخير الأمر ما كان كافيا

٨- أبو صخر الهذلي:

قال يذكر مقتل ابن الزبير ويمدح عبد الملك بن مروان وبني أمية:

وفد أمير المؤمنين الذي رمى
من أرض قرى الزيتون مكة بعدما
وإذ عاث فيها الناكثون وأفسدوا
فصبحهم بالخيال تزحف بالقنا
لهم عسكر ضافي الصفوف عمرم
ووجهورة يشني العدو انتقامها
بجأواء جمهور تمور إكامها
غلبنا عليها واستحل حرامها
فخافت فواشيها وطار حمامها
وبيضاء مثل الشمس يبرق لامها
وجمهورية يشني العدو انتقامها

٩- عبد الله بن الزبير الأسدي:

لما قتل عبد الله بن الزبير دخل ابن الزبير الأسدي على عبد الملك، فقال الأبيات التالية

يمدحه فيها ويهجو ابن الزبير:

مشى ابن الزبير القهقري فتقدمت
وجئت المجلي يا ابن مروان سابقا
فلا زلت سابقاً إلى كل غاية
أمية حتى أحرزوا القصبات
أمام قريش تنقض العذرات
من المجد نجاء من الغمرات

١٠- خلف بن خليفة الربيعي:

قال يذكر ولاء قومه ربيعة لبني أمية وامتناع سيدهم يحي بن حزين من مخالفة الحارث بن

سريج حين ثار على بني أمية بخراسان:

حفظنا أمية في ملكها
ونخطر من دونها أن تراعا

ندافع عنها وعن ملكها
ألم نختطف هامة ابن الزبير
جعلنا الخلافة في أهلها
نصرنا أمية بالمشرفي
على ابن سريج نقضنا الأمور
فقل لأمية ترعى لنا
إذا لم نجد بيديها امتناعا
ونزع الملك منه انتزاعا
إذا اضطرع الناس فيها اضطراعا
إذا انخلع الملك عنها انخلاعا
وقد كان أحكمها ما استطاعا
أيادي لم نجزها واصطناعا

ثانياً- الشعر الديني والزهدى

١- الطرماح بن حكيم:

كل حى مستكمل عدة العمر
عجباً ما عجت للجامع الما
ويضيع الذي يصيره الله
يوم لا ينفع المخول ذا الثر
يوم يؤتى به وخصاه وسط
خاشع الصوت ليس ينفعه
قل لباكي الأموات لا يبك لنا
إنما الناس مثل نابتة الزر

ومود إذا انقضى عدده
ل يباهى به ويرتفده
إليه فليس يعتقده
وة خلاننه ولا ولده
الجن والإنس رجله ويده
ثم أمانيه ولا لده
س ولا يستنع به فنده
ع متى يأن يأت مخصده

٢- كثير عزة:

قال فى تقرير مذهب الكيسانية:

ألا إن الأئمة من قرش
علي والثلاثة من بنيه
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط لا تراه العين حتى
تغيّب لا يرى فيهم زمانا

ولاة الحق أربعة سواء
هم الأسباط ليس بهم خفاء
وسبط غيبتة كبرلاء
يقود الخيل يقدمها اللواء
برضوى عنده غسل وماء

٣- ثابت قطنة:

قال فى بيان عقيدة المرجئة:

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا
ولا أرى الأمر إلا مدبراً نكدا

إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا
جاورت قتلى كراماً جاوروا أحدا
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
والمشركون أشوتوا دينهم قددا
من الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا
سفك الدماء طريفاً واحداً جددا
أجر التقى إذا وفي الحساب غدا
رد وما يقض من شيء يكن رشدا
ولو تعبد فيما قال واجتهدا
عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
شق العصا وبعين الله ما شهدا
ولست أدري بحق أبة وردا
وكل عبد سيلقى الله منفردا

إني رهينة يوم لست سابقة
بايعت ربي بيعاً إن وفيت به
يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة
المسلمون على الإسلام كلهم
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا
من يتق الله في الدنيا فإن له
وما قضى الله من أمر فليس له
كل الخوارج مخط في مقالته
أما علي وعثمان فإنهما
وكان بينهما شغب وقد شهدا
يُجزي علي وعثمان بسمهما
الله يعلم ماذا يحضران به

٤- نصر بن سيار:

قال يعظ القوم ويحمل على المرجئة ويحث على مجاهدتهم:

ما خير دنيا وأهل لا يدومونا
فاطلب من الله أهلاً لا يموتونا
إن التقى خيره ما كان مكنونا
فكن لذاك كثير الهمة محزوننا
من كان في هذه الأيام مغبوننا

دع عنك دنيا وأهلاً أنت تاركهم
إلا بقية أيام إلى أجل
وأكثر تقى الله في الإسراء مجتهدا
واعلم بأنك بالأعمال مرتين
إني أرى الغبن المودى بصاحبه

يوماً عثاراً وطوراً تمنح اللينا
دهر فأمسى به عن ذاك مزبونا
حيناً وتمقره طعماً أحايينا
إلا كما قد مضى فيما تقضونا
وكن عدواً لقوم لا يصلونا
حيناً تكفرهم والعنهم حيناً
شر العباد إذا خابرتهم ديننا
لعبد ما نكبوا عما يقولونا
منهم به ودع المرتاب مفتونا
فأنتم أهل إشراك ومرجوننا
إذ كان دينكم بالشرك مقرونا
والله يقضي لنا الحسنى ويعليننا

تكون للمرء أطوار فتمنحه
بيننا الفتى في نعيم العيش حوله
تحلوه مرة حتى يسر بها
هل غابر من بقايا الدهر تنظره
فامنح جهادك من لم يرج آخره
واقتل مواليهم منا وناصرهم
والعائين علينا ديننا وهم
والقائلين سبيل الله بغيتنا
فاقتلهم غضباً لله متنصرا
إرجاؤكم زلكم والشرك في قرن
لا يبعد الله في الأجداد غيركم
ألقى به الله رعباً في نحوركم

ثالثاً- الشعر القبلي

١- زفر بن الحارث:

قال يتوعد قبيلة كلب بعد هزيمة قيس يوم مرج راهط:

لعمري لقد أبقت وقية راهط لمروان صدعاً بيننا متنائيا
أذهب كلب لم تنلها رماحنا وترك قتلى راهط هي ماهيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيين غارتي تنوخاً وحيي طيء من شفائيا

٢- جواس بن القعطل الكلبي:

قال يجيب زفر بن الحارث ويناقضه:

لعمري لقد أبقت وقية راهط على زفر داء من الداء باقيا
مقيماً ثوى بين الضلوع محله وبين الحشى أعياء الطبيب المداويا
تبكي على قتلى سليم و عامر وذبيان معذوراً وتبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة إذا شرعوا نحو الطعان العواليا

٣- الوليد بن يزيد:

قال يظهر استخفافه بالبيانية ويعيرهم نكوصهم عن نصره خالد القسري:

ونحن المالكون الناس قسرا نسومهم الممذلة والنكالا
وطئنا الأشعرين بعز قيس فيالك وطأة لن تستقلا
وهذا خالد فينا أسيرا ألا منعوه إن كانوا رجالا

عظيـمهم وسـيدهم قـديها
فلو كانت قبائل ذات عز
ولا تركوه مسلوباً أسيراً
وكندة والسكون فما استقالوا
ولكن المذلة ضعضعتهم

٤- عمران بن هلباء الكلبي:

قال ينقض قصيدة الوليد بن يزيد:

جعلنا للقبائل من نزار
بنا ملك المملك من قريش
متى تلق السكون وتلق كلبا
سنبكي خالداً بمهنـدات
ستلقى إن بقيت مسومات

٥- الأخطل التغلبي:

قال يهجو قبائل قيس عيلان عقب الوقائع القبلية بين قيس وتغلب بالجزيرة:

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
تنق بلا شيء شيوخ محارب
ونحن رفعنا عن سلول رماحنا
ولو بيني ذبيان بلت رماحنا
شفى النفس قتلى من سليم وعامر
ولا جشم شر القبائل إنها
وما تركت أسيفنا حين جردت

جعلنا المخزونات له ظلالا
لما ذهبـت صنائعه ضلالا
يعاني من سلاسلنا الثقالا
ولا برحت خيولهم الرحالا
فلم يجدوا لذلتهم مقالا

غداة المـرج أياماً طوالا
وأودى جـد من أودى فزالا
بقيس تخش من ملك زوالا
ولا تذهب صنائعه ضلالا
عوابس لا يزايلن الحلالا

على يابس السيساء محدودب الظهر
وما خلتها كانت قريش ولا تـبري
وعمدار غبنا عن دمـاء بني نصر
لقرت بهم عيني وباء بهم وتـرى
ولم تشفها قتلى غني ولا جسر
كبيض القطا ليسوا بسود ولا حمر
لأعدائنا قيس بن عيلان من عذر

لعمري لقد لاقت سليم و عامر على جانب الثرثار راغبة البكر

٦- نضيع بن صفار المحاربي:

قال ينقض قصيدة الأخطل:

أبا مالك لا يدرك الوتر بالخنى
ظللنا نفري بالسيوف رؤوسهم
إلى أن تروحنا نسوق نساءهم
قتلتم عميراً لا تعدون غيره

ولكن بأطراف الردينية السمر
ولا حي يفري بالسيوف كما نفري
وما خمشوا فينا بناب ولا ظفر
وكم قد قتلنا من عمير ومن عمرو

٧- الأخطل:

قال يجيب جريراً ويهجوهم وقومه بني كليب:

ما زال فينا رباط الخيل معلمة
النازلين بدار الذل إن نزلوا
قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
لا يثأرون بقتلاهم إذا قتلوا
ولا يزالون شتى في بيوتهم
فاقعد جرير فقد لاقيت مطلعا
هلا كفيتم معداً يوم معضلة
جاءت كتائب كسرى وهي مغضبة
هلا منعتم شرجبياً وقد حدثت
يوم الكلاب وقد سيقن نساؤكم

وفي كليب رباط الذل والعار
وتستبيح كليب محرم الجار
قالوا لأهمهم بولي على النار
ولا يكرون يوماً عند إجحار
يسعون من بين ملهوف وفرار
صعباً ولا قاك بحر مفعم جار
كما كفيتم معداً يوم ذي قار
فاستأصلوها وأردوا كل جبار
له تميم بجمع غير أخيار
سوق الجلائب من عون وأبكار

٨- الفرزدق:

قال يهجو الطرماح وقومه بني طيء وقحطان ويعيرهم مقتل آل المهلب بقنديل:

لقد هتك العبد الطرماح ستره
ولولا حذار أن تقتل طيئ
نصارى وأنباط يؤدون جزية
أتذكر شأن الأزد ما أنت منهم
قتلناهم حتى أبرنا شريدهم
نسيتم بقنداويل يوماً مذكرا
حملنا على جرد البغال رؤوسهم
ولو أن عصفوراً يمد جناحه
سألت حجيج المسلمين فلم أجد

٩- الطرماح

قال ينقض قصيدة الفرزدق ويهجو بني تميم ويفخر بالقحطانية:

بأي بلاد تطلب العز بعدما
أقرت تميم لابن دحمة حكمة
وكانت تميم وسط قحطان إذ سميت
ونجاك من أسد العراق كتائب
بهم ينصر الله الخليفة كلما
بهم نصر الله النبي وأثبتت
فخرت بيوم العقر شرقي بابل
تميم بطرق اللؤم أهدي من القطا
ولو أن برغوثناً على ظهر قملة
ولو أن العنكبوت بنت لها

بمولدها هانت تميم وذلت
وكانت إذا سميت هواناً أقرت
كمقذوفة في اليم ليلاً فضلت
لقحطان أهل الشام يوم استهلت
رأوا رجلاً صنديد عن الحق زلت
عرى عقد الإسلام حتى استمرت
وقد جنبنت فيه تميم وفلت
ولو سلكت طرق المكارم ضلت
يكر على صفي تميم لو لوت
مظلتها يوم الندى لا كنت

١٠- الفرزدق:

قال يهجو جريراً وقومه بني كليب ويفخر عليهم ببني دارم:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً بناه لنا المليك وما بنى بيتاً زارة محتب بفنائسه يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم من عزهم جحرت كليب بيتها ضربت عليك العنكبوت بنسجها أين الذين بهم تُسامي دارما يمشون في حلق الحديد كما مشت والمانعون إذا النساء ترادفت يحمي إذا اخترط السيوف نساءنا وإذا بذخت ورايتي يمشي بها الأثرون إذا يعد حصاهم حلل الملوك لباسنا في أهلنا أحلامنا تزن الجبال رزانة يا ابن المراغة أين خالك إنني خالي الذي غصب الملوك نفوسهم إننا لنضرب رأس كل قبيلة إن استراقك يا جرير قصائدي بيتاً دعائمه أعز وأطول حكم السماء فإنه لا ينقل ومجاشع وأبو الفوارس نهشل برزوا كأنهم الجمال المثل أبداً إذا عد الفعال الأفضل زرباً كأنهم لديه القمّل وقضى عليك به الكتاب المنزل أم من إلى سلفي طهية تجعل جرب الجمال بها الكحيل المشعل حذر السماء جماها لا ترحل ضرب تحرله السواعد أرعل سفیان أو عدس الفعال وجندل والأكرمون إذا يعد الأول والسابغات إلى الوغى نتسربل وتخالنا جنأ إذا مانجهل خالي حبيش ذو الفعال الأفضل واليه كان حباء جفنة ينقل وأبوك خلف أتانه يتقمّل مثل ادعاء سوى أبيك تنقل

وابن المراغة يدعي من دارم والعبد غير أبيه قد يتنحل

١١- جرير

قال ينقض قصيدة الفرزدق فيهجوهم وقومه ويفخر بقومه بني كليب:

أعددت للشعراء سماً ناقعا
لما وضعت على الفرزدق ميسمي
أخزى الذي سمك السماء مجاشعا
بيتاً يمححم قينكم بفنائمه
ولقد بنيت أخس بيت يتنى
أني بنى لي في المكارم أولي
أعيتك مآثرة القيون مجاشع
إني انصبت من السماء عليكم
ولقد وسمتك يا بعيث بميسي
قتل الزبير وأنت عاقد حبوة
لا تذكروا حلال الملوك فإنكم
ولقد تبين في وجوه مجاشع
إني إلى جبلي تميم معقلي
أحلامنا تزن الجبال رزانة
كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله
وافخر بضبة إن أمك منهم
إن الذي سمك السماء بنى لنا
ألهى أباك عن المكارم والعلا

فسقيت آخرهم بكاس الأول
وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل
وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
دنساً مقاعده خيىث المدخل
فهدمت بيتكم بمثلي يذبل
ونفخت كيرك في الزمان الأول
فانظر لعلك تدعي من نهشل
حتى اختطفتك يا فرزدق من عل
وضغا الفرزدق تحت حد الكلكل
تباً لحبوتك التي لم تحلل
بعد الزبير كحائض لم تغسل
لؤم يثور ضبابه لا ينجلي
ومحل بيتي في اليفاع الأطول
ويفوق جاهلنا فعال الجهل
مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
ليس ابن ضبة بالمعم المخول
عزاً علاك فما له من منقل
لي الكتابائف وارتفاع الرجل

أبلغ هديتي الفرزدق إنها
إننا نقم صفا الرؤوس ونختلي

١٢ - حكم بن معمر الخضري:

قال يهجو ابن ميادة ورهطه من بني مرة:
فيا مر قد أخزأك في كل موطن
فمنهن أن العبد حامي ذماركم
ومنهن أن لم تمسحوا وجه سابق
ومنهن أن الميت يدفن منكم
ومنهن أن الجار يسكن وسطكم
ومنهن أن الشيخ يوجد منكم

١٣ - ابن ميادة:

قال ينقص أبيات حكم الخضري ويهجو رهطه بني محارب:

لقد سبقت بالمخزيات محارب
فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة
ومنهن أن كانت شيوخ محارب
ومنهن أن كانت عجوز محارب
ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم

١٤ - الفرزدق

قال يبكي من قتل من قومه مع ابن الأشعث ومن هلك منهم بالطاعون:

لو أعلم الأيام راجعة لنا
بكيث على القوم الذين هوت بهم
بكيث على أهل القرى من مجاشع
دعائم مجد كان ضخم الدسائع

ثقل يزداد على حسير مثقل
رأس المتوج بالحسام المقصل

من اللؤم خلات يزدن على العشر
وبئس المحامي العبد عن حوزة الثغر
جواد ولم تأتوا حصاناً على طهر
فيفسو على دفانه وهو في القبر
برئياً فيلقى بالخيانة والغدر
يدب إلى الجارات محدوب الظهر

فإن أبك قومي يا نوار فإني
خلاءين بعد الحلم والجهل فيهما
على أن فينا من بقايا كهولنا
وكائن تركنا بالخريبة من فتى
ومن جفنة كان اليتامى عيالها

١٥- عبد الله بن عمر العبلي

قال يرثي بني أمية قومه بعد زوال دولتهم وتقوض ملكهم:

تقول أمامة لما رأته
وقلة نومي على مضجعي
أبي ما عراك فقللت:
عرون أباك فحبسناه
لفقد العشيرة إذ ناهنا
رمتها المنون بلانصل
بأسهمها الخالسات النفوس
فصرعاهم في نواحي البلاد
كريم أصيب وأثوابه
وآخر قد طار خوف الردى
فكم غادروا من بواكي العيون
أولئك قوم تداعت بهم
أذلت قيادي لمن رامني
فما أنسى لا أنسى قتلاهم

أرى مسجديهم منهم كالبلاقع
وبعد عباي الندى المتدافع
أساة الثأى والمفطعات الصوادع
كريم وسيف للضريبة قاطع
وسابغة تغشى بنان الأصابع

نشوزي عن المضجع الأنفس
لدى هجعة الأعين النعس
الهموم أباك فلا تبلسي
من الذل في شر ما محبس
سهام من الحدث المبس
ولا طائشات ولا نكس
متى ما اقتضت مهجة تخلص
تلقي بأرض ولم ترمس
من العار بأرض ولم ترمس
وكان الهمام فلم يحسس
مرضى ومن صبية بوؤس
نوائب من زمن متعس
وألزقت الرغم بالمعطس
ولا عاش بعدهم من نسي

رابعاً- الشعر الغزلي

١- عمر بن أبي ربيعة

قال يتغزل بهند بنت الحارث:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واسبتدت مرة واحدة
ولقد قالت لجات لها
أكما ينعتني تبصرني
فتضحكن وقد قلن لها
حسداً حملنه من أجلها
غادة تفتّر عن أشنبها
ولها عينان في طرفيهما
طفلة باردة القيظ إذا
سخنة المشتى لحاف للفتى
ولقد أذكر إذ قلت لها
قلت: من أنت؟ فقالت:
نحن أهل الخيف من أهل منى
قلت: أهلاً أنتم بعيتنا
إنما ضلل قلبي فاحتوى
حدثوني أنما لي نفثت
كلما قلت: متى ميعادنا

وشفت أنفسنا مما تجرد
إنما العاجز من لا يستبد
وتعمرت ذات يوم تبترد
عمر كمن الله أم لا يقتصد
حسن في كل عين من تود
وقديماً كان في الناس الحسد
حين تجلوه أقحاح أو برد
حور منها وفي الجيد غيد
معمعان الصيف أضحى يتقد
تحت ليل حين يغشاه الصرد
ودموعي تحت خدي تطرد
أنا من شقّه الوجد وأبلاه الكمد
مالمقتول قتلناه قود
فتمسينا فقالت: أنا هند
صعدة في سابري تطرد
عقداً يا حبذا تلك العقد
ضحكت هند وقالت: بعد غد

٢- وقال عمر أيضاً:

يا من لقلب متيم كلف
تمشي الهوينى إذا مشت فضلا
ما زال طرفي يحار إذ نظرت
أبصرتها ليلة ونسوتها
بيضا حسانا خرائداً قظفا
قد فزن بالحسن والجمال معا
قالت لها أختها تعابثها
قومي تصدي له ليصيرنا
قالت لها قد غمزته فأبى

٣- ومن غزله أيضاً:

وناهد الثدين قلت لها اتكي
فقال: على اسم الله أمرك طاعة
فما زلت في ليل طويل ملثما
فلما دنا الإصباح قالت: فضحتني
فما ازددت منها غير مص لثاتها
تزودت منها واتشحت بمرطها
فقامت تعفي بالرداء مكانها

٤- عبد الله بن عمر العرجي:

تطاول أيامي وليلي أطول
يلومون صباً أنحل الحب جسمه
ولام على حبي عثيمة عدل
وما ضرهم لو لم يلوموا وأجلوا

عصى قبلهم فيها العدى فهو مبهل
وأشفقت من خوف الذي كنت أمل
على ما أحبوا فاسداً يتحوّل
وأحزم هذا الناس من يتوكل
بها طبة ميمونة حين ترسل
بكل فعال صالح تتهلل
لها عندما تهوي له يتمثل
وللسر عندي فاعلمن ذاك محمل
كما اهتز عرق من قنا متذلل
من الوحش ما يسطيعها المتحيل
من الشعر ما يرقى به المتمثل
من الدهر حتى جاء لا يتعلل
كما انقاد بالحبلى الجواد المجلل
بها إن رأتها عند ذي الضغن تجمل
وتخشى عيوناً حولها فتميل
تحركه ريح من الماء مخضل
على رقبة والعيس للبين ترحل
ملماً بنا زوراً كما كنت تفعل
مقادير عما تشتهي النفس تعدل
على الأين أطلاح تنص وتذمل
قليلاً لعلي للعدى أتجمل

ألم يعلموا لا بوركوا أن قلبه
فلما براني الهم والحزن حقة
وأبصرت دهرراً لا يقوم لأهله
توكلت واستحدثت رأياً مباركاً
وضمنت حاجاتي إليها رقيقة
من البربريات اللواتي وجوهها
وزير لها إبليس في كل حاجة
فقالت: فلا تعجل كفيتك مرحباً
تغشت ثياب الليل ثم تأطرت
فجاءت نواراً طالما قد تعللت
بدتها بقول لين وتمثلت
فما كان إلا فرط خمس حسبته
فجاءت بها تمشي عشاء وساحت
تحذرهما في مشيها الأعين التي
فنسرع أحياناً إذا هي لم تخف
كما مال غصن من أراك بريرة
فلا أنسى فيا قد لقيت مقالها
تراك لئن عشنا إلى صيف قابل
فقلت لها: إن لم أمت أو تعوفنى
تزورك عيس يعتسفن بي الملا
فراخي وثاقاً عن فؤاد أسرته

وبالله ردي دمع عيني فيمها
فخافي عقاب الله في قتل مسلم

٥- الحارث بن خالد المخزومي

أنعم الله لي بهذا الوجه عينا
حين قالت: لا تفشين حديثي
اتقي الله واقبلي العذر مني
لا تصدي فتقتليني ظلما
ما أكن سؤتكم به فلك العتد
لم أرحب بأن سخطت ولكن
إن شخصاً رأيته ليلة البدر
جعل الله كل أنثى فداء
وجهك البدر لو سألت به

٦- الأحوص:

قال يتغزل بأم جعفر الأنصارية:

وإني ليدعوني هوى أم جعفر
وإني لآتي البيت ما إن أحبه
وأغضي على أشياء منكم تسوءني
وما زلت من ذكراك حتى كأنني
أبشك ما ألقى وفي النفس حاجة
لك الله إني واصل ما وصلتني
وآخذ ما أعطيت عفواً وإنني

إلى أي دهر دمع عيني يهمل
بريء ولم يقتل قليلاً فيقتل

وبه مرحباً وأهلاً وسهلاً
يا ابن عمي أقسمت؟ قلت: أجل لا
وتجاني عن بعض ما كان زلاً
ليس قتل المحب للحب جلاً
سبي لدينا وحق ذاك وقلاً
مرحباً إن رضيت عنا وأهلاً
عليه اثثنى الجمال وحلاً
لك بل خدها لرجلك نعلاً
المزن من الحسن والجمال استهلاً

وجاراتها من ساعة فأجيبُ
وأكثر هجر البيت وهو حبيبُ
وأدعى إلى ما سر كم فأجيبُ
أميم بأفياء الديدان سليبُ
لهابن جلدي والعظام ديب
ومثن بما أوليتني ومثيبُ
لأزور عما تكررهن هيبُ

فلا تتركي نفسي شعاعاً فإنها

٧- يزيد بن الطثرية:

ألا جبذا عيناك يا أم شنبل
فذاك من الخلان كل ممزج
وكنت كأني حين كان كلامها
هنّي بنفس لم تفك كبوله
فقال دعوني سجدتين وأرعدت
ومن هابني في كل شيء وهبته

٨- جميل بن معمر:

قال يتغزل ببشينة:

أبى القلب إلا حب بشنة لم يرد
تعلق روعي روحها قبل خلقها
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
ولكنه باق على كل حالة
وما وجدت وجدي بها أم واحد
ولا وجد العذري عروة إذ قضى
على أن من قدمات صادف راحة
يكاد فضيض الماء يחדش جلدها
وإني لمشتاق إلى ريح جيها
لقد لامني فيها أخ ذو قرابة
وقال: أفق حتى متى أنت هائم

من الحزن قد كادت عليك تذوبُ

إذا الكحل في جفنيها جال جائله
تكون لأدنى من يلاقي وسائله
وداعاً وخلى موثق العهد حامله
عن الساق حتى جرد السيف قاتله
حذار الردى أحشاؤه ومفاصله
فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

سواها وحب القلب بشنة لا يجدي
ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدي
وليس إذا متنا بمنتقض العهد
وزائرنا في ظلمة القبر واللحد
ولا وجد النهدي وجدي على هند
كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي
وما لفؤادي من رواح ولا رشد
إذ اغتسلت بالماء من رقة الجلد
كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد
حبيب إليه في ملامته رشدي
بشنة فيها قد تعيد وقد تبدي

فقلت له: فيها قضى الله ما ترى
فإن كان رشداً جبهها أو غواية
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدا
وما زادها الواشون إلا كرامة
أفي الناس أمثالي أحبوا فحالهم
وهل هكذا يلقي المحبون مثلاً
٩- وقال جميل أيضاً:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلمها
فإنكما إن عجمتالي ساعة
ألمأ بها ثم اشفعالي وسلمها
وبوحا بذكري عند بثنة وانظرا
أعوذ بك اللهم إن تشحط النوى
وجاور إذ مات بيني وبينها
عدمك من حب أمانك راحة
ألا أيها الحب المبرح هل ترى
هي البدر حسناً والنساء كواكب
لقد فضلت حسناً على الناس مثلاً
يقولون مسحور يجن بذكرها
وأقسم لا أنساك ما ذر شارق
ذكرت مقامي ليلة البان قابضا
فكدت ولم أملك إليها صباية

علي وهل فيما قضى الله من ردّ
فقد كان ما قد كان مني على عمد
ولا إلى علم بالذي فعلت بعدي
علي وما زالت مودتها عندي
كحالي أم أحببت من بينهم وحدي
لقيت بها أم لم يجد أحد وجدي

على عذبة الأنياب طيبة النشر
شكرتكما حتى أغيب في قبري
عليها سقاها الله من سائغ القطر
أترتاح يوماً أم تهشّ إلى ذكري
ببثنة في أدنى حياتي ولا حشري
فيا جبذا موتي إذا جاورت قبري
وما بك عني من توان ولا فتر
أخا كلف يغرى بحب كما أغري
وشتان ما بين الكواكب والبدر
على ألف شهر فضلت ليلة القدر
وأقسم ما بي من جنون ولا سحر
وما هب آل في ملمعة قفر
على كف حوراء المدامع كالبدر
أهيم وفاض الدمع مني على نحري

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة
تجود علينا بالحديث وتارة
مضى لي زمان لو أخير بينه
لقلت: ذروني ساعة وبثينة
مفلجة الأنياب لو أن ريقها
إذا ما نظمت الشعر في غير ذكرها

١٠- كثير عزة

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا
وما كنت أدري قبل عزة ما الهوى
كأنني أنادي صخرة حين أعرضت
صفوحاً فما تلقاك إلا بخليّة
أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها
فليت قلو صبي عند عزة قيدت
أريد الثواء عندها وأظنها
فما أنصفت أما النساء فبغضت
فوالله ثم الله ما حل قبلها
وما مر من يوم علي كيومها
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
وإني وتهيامي بعزة بعدما
لكا المرثجي ظل الغمامة كلما
كأنني وإياها سحابة محل

كليتنا حتى نرى ساطع الفجر
تجود علينا بالرضاب من الثغر
وبين حياتي خالداً آخر الدهر
على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمري
يداوى به الموتى لقاموا من القبر
أبى وأبيها أن يطاوعني شعري

قلو صيكم ثم ابكيها حيث حلت
ولا موجعات الحزن حتى تولت
من الصم لو تمشي بها العصم زلت
فمن مل منها ذلك الوصل ملت
وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت
بجبل ضعيف غر منها فضلت
إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
إلي وأما بالنوال فضنت
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وإن عظمت أيام أخرى وجلت
وللنفس لها وطنت كيف ذلت
تخلت مما بيننا وتخلت
تبوأ منها للمقبل اضمحلت
رجاها فلما جاوزته استهلته

فإن سأل الواشون فيم هجرتها

فقل نفس حر سليت فتسلت

١١- قيس بن ذريح

قال يتغزل بلبنى ويصور ندمه لطلاقه إياها:

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها
فطاوعت أعدائي وعاصيت ناصحي
وددت وبيت الله أني عصيتهم
وكلف خوض البحر والبحر زاخر
كأنى أرى الناس المحبين بعدها
فتنكر عيني بعدها كل منظر

بخير فلا تندم عليها وطلق
وأقررت عين الشامت المتخلق
وحملت في رضوانها كل موبق
أبيت على أثجاج موج مغرق
عصارة ماء الخنظل المتفلق
ويكره سمعي بعدها كل منطق

١٢- مجنون ليلى

أعد الليالي ليلة بعد ليلة
أراني إذا صليت يمرت نحوها
قضاها لغيري وابتلاني بحبها
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وأنت التي ما من صديق ولا عدى
أحبّ من الأسماء ما وافق اسمها
هي السحر إلا أن للسحر رقية

وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي
بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
فهلأ بشيء غير ليلى ابتلينا
وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
وأشبهه أو كان منه مدانيا
وإني لا ألفي لها الدهر راقيا

١٣- عروة بن حزام

قال يتغزل بعفراء ويشكو ما يلقاه من حبها:

خليلي من عليا هلال بن عامر
ولا تزهدا في الأجر عندي وأجلا

بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني
فإنكما بي اليوم مبتليان

أخ وصديق صالح فذرائي
بـعـينـين إنساناهما غـرقـان
إلى حاضر الروحاء ثم دعاني
بشـحـط النوى والبين معترفان
تـقـر بها عيناى ثم كلاني
جـدـيد وبردأ يمـنـة زهـيـان
بي الضـر من عـفـراء يـا فـتـيـان
رـقـاقاً وقلباً دائم الخفقان
وعيناى من وجد بها تكفان
من الناس والأنعـام يلتقيان
ويرعاهما ربي فلا يريان
ولا للجبال الراسيات يـدـان
على كبدي من شدة الخفقان
وعراف نجد إن هما شـفـيـان
وقامـا مع العواد يتـدـران
ولا سلوة إلا وقد سـقـيـان
ولا ذخـرـان صحـا ولا ألـوـان
بما ضمنت منك الضلوع يـدـان
وعـفـراء يـوم الحـشـر ملتقيان
ومالي والرحمن غير ثمان
إذا نحن متناضـمنا كـفـان

ألم تعلمـا أن ليس بالمرخ كله
أفي كل يوم أنت رام بلادها
ألا فاحملاني بـارك الله فيكما
ألمـاعـلى عـفـراء إنكما غدا
فيا واهي عـفـراء دعاني ونظرة
أغرـكـما مني قميص لبسته
متى ترفعا عني القميص تبينا
وتعترفـا لـحـماً قليلاً وأعظما
على كبدي من حب عـفـراء قرحة
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى
فيقضي حبيب من حبيب لبانة
تـحـمـلت من عـفـراء ما ليس لي به
كأن قطاة علقـت بجناحها
جعلت لعراف الـيـامـة حـكـمـة
فقـالـا: نعم نشفي من الداء كله
فما تركـا من رقية يعلمانها
وما شـفـيا الداء الذي بي كله
فقـالـا: شـفـاك الله والله مالنا
وإني لأهوى الحـشـر إذ قيل إنني
يـكـلـفـني عمي ثمانين ناقة
فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا

الباب الثامن

دراسات أدبية تطبيقية

الباب الثامن

الفصل الأول

رؤية في نص الشاعر

١- حق وواجب لابن محكان:

إضاءة:

قرى الضيف حق وواجب، والضيوف أبناء لرب البيت وزوجته، يرعياهما كما يرعيان أولادهما، ولا تجمعهما بهم إلا رابطة الإنسانية، هذا ما يقوله الشاعر بأسلوب يذكرنا بالشعر الجاهلي:

أقول، والضيف مخشي ذمامته	على الكريم وحق الضيف قد وجبا
ياربة البيت قومي غير صاغرة	ضمي إليك رحال القوم والقربا
في ليلة من جمادى ذات أنديّة	لا يبصر الكلب من ظلماتها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة	حتى يلف على خيشومه الذنبا
ماذا ترين أنديهم لأرحلنا	في جانب البيت أم نبني لهم قبا
نصبت قدري لهم والأرض قد لبست	من الصقيع ملاء جدة قشبا
وقلت لما غدوا أوصي قعيدتنا	غدي بنيك، فلن تلقىهم حقا
أنا ابن محكان، أخوالي بنو مطر	أنمي إليهم، وكانوا معشراً أنجبا

شرح المفردات:

الذمامة: بكسر الذال وفتحها: الدم، يريد: الكريم يخشى أن يذمه الأضياف لتقصير بدر منه. غير صاغرة: غير ذليلة. القرب: مفردة قراب، ما يغمده به السيف، وكان العرب إذا حل بهم الضيف في الجاهلية ضموا إليهم رحله، وبقي معه سلاحه لا يؤخذ منه خوف الغدر به، يريد: خذي رحال ضيوفي وسلاحهم فإنهم عندي في مأمن من الغارة أو الغدر. الأنديّة:

مفرده ندي: مجلس القوم، وليالي الشتاء تطول مجالسها. الطنب: حبال الخيمة، يريد أن الكلب على شدة بصره لا يرى حبال الخيمة لسواد الظلام. غير واحدة: لا ينبح إلا مرة لشدة البرد. يلف على خيشومه الذنبا: يتقي بردة خيشومه بذنبه. ماذا ترين: يشاور امرأته ويسألها أن تتعرف أحوال ضيوفها فإن كانت إقامتهم طويلة بنى لهم قباباً في جوار بيته، وإن كانوا سيرتحلون سريعاً خلطهم بأهل بيته. القشب: الجديد. الملاء: مفرده ملاءة الثوب والستر.

مفردات للشرح: أنمي إليهم، نُجِب.

الأبيات تصوير لموقف من مواقف الكرم التي ألفنا وصفها في الشعر الجاهلي، وكأنها تقليد حي لمثل هذه المواقف في القصيدة الجاهلية، من حيث البيئة البدوية وعاداتها وقيمها، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على قوة أثر التقليد في الشعر العربي، وتواصل القيم العربية عبر التاريخ واتخاذ البادية مثلاً أعلى يحتذى.

أ- المعاني: يستهل الشاعر قصيدته بتصوير محاورة جرت بينه وبين امرأته إثر قدوم أضياف إليه في ليلة ظلماء باردة، لا يبصر فيها الكلب، على قوة بصره حبال الخيمة، ولا يستطيع أن ينبح من البرد إلا مرة واحدة، ثم يوارى خيشومه بذنبه اتقاء الصقيع، فيقول لها ملتسماً لا أمراً: احلمي رحال أضيافنا، وخذي سلاحهم، فهم عندنا في مأمن من الغارة لها والغدر، والتسمي للضيوف بيتاً مريحاً، فإن تبين لك أنهم راحلون قريباً فاجعلي مبيتهم بيننا، وإن كانت إقامتهم طويلة فانصبي لهم خياماً مجاورة يستريحون بها. وينهض الشاعر إلى أفضل نوقه فيجزرها، وينصب قدره فوق أرض كساها الصقيع ستاراً ناصع البياض، ثم يوصي زوجته أن تكرم أبناءها، والضيف عنده بمنزلته الابن؛ لأنهم ذاهبون وقد لا تراهم بعد سنين، والشاعر يختم أبياته بالفخر بنسبه فقد ورث الكرم عن آبائه، وأخواله بني مطر وهم من بني شيبان ومنهم كرماء ماجدون كعم بن زائدة وحسبه ذلك فخراً.

ب- الأفكار:

يتكئ الشاعر على معاني شعراء الجاهلية فقد شاع في الشعر الجاهلي محاورة الشعراء لنسائهم، وقد مر بك قول عروة:

أقلى عليّ اللوم يا بنّة مالك ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري

على أن الشاعر هنا يحترس من أن يأمر زوجته، فهو يخاطبها بتهذيب ويظهر لنا أنها كريمة مثله، ألفت إكرام الضيف وحسن وفادته، تستقبل ضيوفها بالبشاشة، وتشيعهم بالإكرام، وفي ذلك إعلاء لشان المرأة، وتعبير عن حسن الوفاق والانسجام بينها وبين زوجها.

والجديد في معاني الكرم عند الشاعر أنه يجسد علاقته بالأضياف فيجعلهم أبناء لزوجته ولو لم تكن تعرفهم أو ترتبط بهم بنسب؛ لأن رابطة الإنسانية تعلقو على كل رابطة.

أما حديثه عن برودة الليلة وظلامها، ووصفه القدر، فهو حديث مطروق في الشعر الجاهلي، كذلك اعتزازه بآبائه وأخواله، وفي هذه المعاني لا يتجاوز الشاعر ما قاله القدامى.

ج- العاطفة: وعاطفة الشاعر إنسانية نبيلة تحس من خلالها غنى نفسه، واتساع شعوره الإنساني اتساعاً يوحد فيه بين آبائه والضيوف وكأن الإنسانية كلها أسرته وهو مسؤول عن سعادتها وراحتها.

وصوره مستمدة من بيئته البدوية القائمة على حياة الرعي والتنقل، فالليلة باردة يتقي الكلب فيها برودة خيشومه بذنبه، مظلمة لا يبصر فيها الكلب أطناب البيت.

د- الأسلوب: صوغ الأبيات محكم النسيج، فيها الكثير من خصائص القصيدة الجاهلية، ولا عجب أن يتبع مرة سنن الأقدمين ويحاكيهم في الألفاظ والتراكيب وأساليب التعبير، فقد عاش في عصر تم فيه جمع التراث الأدبي من أفواه الرواة، وهو عصر الصحوة العربية إذ تمكنت اللغة العربية من أن تصبح أداة للثقافة والفكر، وواجهت الثقافات الأخرى للأمم المغلوبة فاحتوتها، وأقبل الناس على بعث الماضي المجيد، والاعتزاز بقيمه وتقاليده.

الباب الثامن

الفصل الثاني

قراءة في نص

ميسون بنت بحدل

الحنين إلى البادية

إضاءة:

تزوجها معاوية، ونقلها من مضارب عشيرتها بالبادية إلى قصره في الشام ولكنها زهدت بالحضارة، وحثت إلى بساطة العيش في الخيام، حيث مسقط رأسها.

أحب إليّ من قصر منيف	ليبت تخفق الأرواح فيه
أحب إليّ من قط ألوف	وكلب ينبج الطراق عني
أحب إليّ من لبس الشفوف	ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إليّ من أكل الرغيف	وأكل كسيرة في كسر بيتي
أحب إليّ من نقر الدفوف	وأصوات الرياح بكل فخ
أحب إليّ من عالج عنيف	وخرق من بني عمي نحيف
فحسبي ذاك من وطن شريف	خشونة عيشتي في البدو أشهى

شرح المفردات

الأرواح: جمع ريح، منيف: مرتفع، شاهق. الطرق: جمع طارق: الآتي ليلاً. الشفوف: جمع شف، وشف الثوب الرقيق. الكسر: الجانب من البيت. الخرق: الكريم السخي. العالج: الرجل الضخم القوي.

قراءة في نص ميسون بنت بحدل

كانت ميسون ابنة زعيم من زعماء بني كلب، وهي من أكبر القبائل القحطانية التي ثبتت حكم بني أمية، فحاربت القبائل القيسية في مرج راهط وانتصرت عليها، وتعزيزاً لهذه الصلة تزوج معاوية ميسون، ونقلها إلى قصره في الشام، غير أنها ظلت تحن إلى موطنها الأصلي في جنوبي تدمر مضارب قبيلتها، ولم تستهوا حياة المدن، وقد ألفت البداوة وفطرتها وصفاءها.

تقول ميسون: إن بيت الشَّعر الذي تلعب الرياح بأطرافه من كل صوب أحب إليّ من قصر الخلافة الشاهق، والكلب الذي ينبح القادمين ليلاً أفضل عندي من قط مدلل في بيوت المدينة، والعباءة التي ترتديها البدوية خير من الحرير الشفاف الذي ترتديه المدنيات، وكسرة الخبز أتناولها في شق البيت بالبادية أشهى إلى نفسي من أطيب الطعام في القصور، وغناء الرياح الصافرة في البادية أشهى إلى قلبي من سماع الألحان ومجالس الطرب في البلاط، والبدوي الكريم من أبناء قبيلتي الذي يطعم ضيوفه ويحرم نفسه القوت أحب عندي من المدني الغريب الذي لا همّ له إلا لذائذ نفسه ولا يحمل من اللطف والوداعة وحسن المعشر ما يحمله ابن البادية، والحياة في موطني على شظفها أطيب عندي من كل جديد في المدن، ولن استبدل بوطني وطناً آخر، وأكرم به من وطن.

تكشف الأبيات عن إحساس هذه المرأة العربية الأصيلة بالاعتراب أو التغرب، وهو شعور نلمحه عند كثير من شعراء بني أمية في هذه الفترة، فقد خرج العرب من جزيرتهم إلى بيئة جديدة لم يألفوها، وانتقل قسم كبير منهم من حياة البداوة بما فيها من قيم وعادات أصلية إلى حياة المدن، بما فيها من قيم مادية ونزعة استهلاكية وميل إلى الترف واللهو والتمتع، وأدى ذلك التحول إلى صراع نفسي بين الفطرة، وعالم المدن المصطنع، والتغرب هو شعور الإنسان بعدم الانسجام مع الوسط الذي يعيش فيه، ورفضه القيم التي تفرضها البيئة الجديدة في مواجهة القيم الموروثة، وقد لاحظت الإحساس بالاعتراب والتغرب واضحاً عند الشعراء الصعاليك، فقد آثروا معايشة الوحوش والعيش في مجاهل الصحراء حين واجهوا محنة الصراع بين قيمهم وقيم المجتمع المادية من حولهم.

وميسون تعلق تفضيلها حياة البادية بالحنين إلى الوطن غير أن موقفها من الحضارة والمدنية يكشف عما هو أبعد من الحنين، فهي تنشد في وطنها الأصلي قيماً وعادات وشيئاً لم تجدها في حياتها المدنية، فلم تتمكن من الانسجام مع واقعها الجديد.

والمرء يعجب حقاً بموقف هذه البدوية الأصيل من الحضارة المادية، وتمسكها بأصولها بالرغم من ميل المرأة عموماً إلى حياة الترف، وما أحوجنا في عصرنا هذا الذي سادت فيه القيم المادية وانحسرت كثير من القيم العربية الأصيلة إلى أن نفتدي بها، لنسترد ذاتنا الطبيعية، ونتخلص من براثن المدنية الغربية، وما جرت من مغريات هدفها استغلالنا، وامتصاص طاقاتنا، وأضعاف صمودنا القومي، وقد أثرتنا الحياة المدنية، والنزوح من الريف إلى المدن.

والشاعرة تعرض مشاعرها ببساطة متناهية في التعبير تقوم على مقابلات بين شطري كل بيت بين جمال العيش في البادية حيث البراءة والبساطة والصفاء والنبيل وحياة المدينة، حيث النزعة المادية والاستهلاك، وتعتمد إلى التصوير الحسي الساذج من خلال الكنايات والبديع غير المتكلف ((كسيرة وكسر)).

وصفوة القول: فإنّ أبيات ميسون تمثل رفض العربي لقيم المدنية الفردية، وحيناً إلى الأصول التي كادت صورتها تبهت بتأثير المدينة الجديدة الوافدة.

الباب التاسع

النشر في عصر بني أمية

الباب التاسع

الفصل الأول

الكتابة والكتاب والأدب في العصر الأموي

أولاً - الكتابة:

تعد الكتابة ضرورة إدارية واجتماعية وإعلامية لإدارة شؤون الدولة والمجتمع ومن أجل ازدهاره، وقد عرف المجتمع جماعة احترفت التعليم مهنة وصناعة طمعاً بالثواب من الله والأجر من الناس، وشهد العصر الأموي إقبالاً على العلم وتعلم الخط والكتابة في المدن والأنصار والقرى والبادية من خلال المعلمين والكتاب والمؤدبين، وأصبح الناس يعرفون قيمة الكتابة في حفظ المعارف من خلال النسخ للمصاحف الشريفة وغيرها من الشعر، وكان الخط والكتابة من أبرز الموضوعات في هذا العصر يليه تعليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والسير والمغازي والأخبار والأيام والأنساب والأشعار.

وقد كان تدوين القرآن الكريم وجمعه وترتيبه، وتوحيد نسخته في زمن الخلفاء الراشدين حجر الأساس للحركة العلمية عند العرب، وقد كانت أبرز ميادين المعرفة عند العرب المسلمين في العصر الأموي المعارف الإسلامية متمثلة بعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث النبوي الشريف يتداولها الصحابة، وقد مرت الحركة العلمية بمراحل عدة:

١ - الرواية الشفوية والحفظ.

٢ - الجمع والاستقصاء والتدوين.

٣ - الفهم والتفسير والاستيعاب.

٤ - التحليل والدرس والاستنباط.

أ- ففي مجال القرآن الكريم نهض علم التفسير أم العلوم القرآنية معتمداً على النقل عن الرسول ﷺ والصحابة الكرام وعلى لسان العرب القائم على معرفة اللغة والبلاغة والإعراب

وعلم أسباب النزول للآيات القرآنية، وعلم المكّي والمدني وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن وعلم الرسم القرآني، وعلم القراءات، وفي مجال الحديث النبوي الشريف أفتى عمر بن عبد العزيز في زمن خلافته بتدوينه بعد خلاف دام تسعين عاماً على تدوينه، وبرزت علوم جديدة تابعة له من قبل علم رجال الحديث وعلم الجرح والتعديل وعلم غريب الحديث وعلم مختلف الحديث وعلم علل الحديث وعلم ناسخ الحديث ومنسوخة، ودون الفقه بأصوله الأربعة (القرآن الكريم، الحديث الشريف، الإجماع، القياس).

ب- وفي مجال المعارف العربية متمثلة بنشأة علم النحو وتطوره والتدوين الأدبي للشعر والرسائل والخطب والأمثال، وغيرها من فنون النشر.

ج- علوم اللغة متمثلة بجمع الألفاظ العربية من مصادرها وتفسير هذه الألفاظ دون ترتيب.

د- علم التاريخ متمثلاً بأيام العرب والأنساب والفضائل والمثالب والسير والمغازي والبحوث والفتوح وتواريخ الأمم القديمة، وتعد السيرة النبوية المشرفة من أقدم أشكال التدوين التاريخي عند العرب المسلمين.

لقد عرف العرب الكتابة منذ العصر الجاهلي لتوافر الحاجة إليها، إذ كانوا يحتاجون إليها في كتابة العهود ومواثيق الأحلاف وصكوك التعامل والتبادل التجاري، وفي كتابة الرسائل، وغير ذلك. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى القلم والكتابة نحو قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١]. وكذلك نجد في الشعر الجاهلي ما يدل على معرفة الجاهليين بالكتابة، إلا أن الكتابة لم تكن شائعة عصرئذ، إذ كان جل العرب على الأمية، وكانت الكتابة منتشرة في البيئات الحضرية أكثر من انتشارها في البيئات البدوية.

وبقيام الدولة الإسلامية ازدادت الحاجة إلى الكتابة لتلبية متطلبات الدين الجديد، وانصرفت طائفة من كتاب الرسول إلى كتابة الوحي، في حين عُنِيَ آخرون بكتابة الرسائل، وقد ذكرنا أن الكتابة في تلك الحقبة كانت بسيطة موجزة بعيدة عن التعقيد والزخرف.

فلما جاء العصر الأموي تعقدت الحياة وتطور المجتمع الإسلامي واتسعت رقعة الدولة فوجدت الحاجة إلى إنشاء الدواوين. وكان إنشاؤها قد بدأ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله

عنه الذي أنشأ ديوان العطاء، فلما جاء الأمويون أوجدوا دواوين أخرى كديوان الرسائل وديوان الجيش وديوان الخاتم.

ورافق إنشاء الدواوين بدء حركة التدوين، فجمعت طائفة من الأخبار والسير والأشعار، وكتبت رسائل من موضوعات شتى.

وقد ظهر في عصر بني أمية كتاب احترفوا صنعة الكتابة، وكان لكل خليفة ولكل وال كتابه. وكان ديوان الخراج يكتب أول الأمر بلغة الدولة التي كانت قائمة قبل الفتح، فكان يكتب بالعراق بالفارسية، وبالشام بالرومية، وكان يتولاه الموالي من الفرس والروم وغيرهم، وفي عهد عبد الملك بن مروان عرب هذا الديوان.

أما ديوان الرسائل فكانت لغته العربية منذ إنشائه، وكان يقوم عليه كتاب من العرب أو من الموالي الذين أجادوا العربية. ومن الكتاب المبرزين في ذلك العصر (عمر بن نافع) كاتب عبيد الله بن زياد، (وجناح) كاتب الوليد بن عبد الملك، و(عبد الحميد الأصغر) كاتب سليمان بن عبد الملك، و(الليث بن رقية) كاتب عمر بن عبد العزيز، و(سالم) مولى هشام بن عبد الملك، و(عبد الحميد الكاتب) كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وهو أشهرهم.

كانت الكتابة تجري أول الأمر على السنن الذي كانت عليه في صدر الإسلام من حيث توخي البساطة والإيجاز ومجانبة التعميق والزخرف، ولكن تطور الحياة الاجتماعية والعقلية من جانب، وتولي الموالي - من الفرس خاصة - مقاليد الكتابة من جانب آخر، كل ذلك أدى إلى تطور فن الترسل وتعدد أدواته، وقد تأثر الكتاب الموالي بمناهج الكتابة وأساليب التعبير في لغاتهم الأصلية، فظهرت في طرائقهم الكتابية سمات لم تعرفها الكتابة العربية من قبل، ومن ذلك إطالة الرسائل والتكرار والترادف والإسراف في التعميق والصنعة.

وأول من عرف بإطالة الرسائل عمر بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد، ولم يكن ابن زياد راضياً عن طريقتة الكتابية التي تغاير ما ألفه العرب. ثم جاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك فنهض بفن الكتابة الديوانية، ويقال: إنه كان ملماً باللغة اليونانية وإن ما أوجده من سمات جديدة في الكتابة العربية مرده إلى تأثره بتلك اللغة، وهو قول يفتقر إلى ما يؤيده، ولم يصلنا من رسائل سالم إلا رسالة كتبها على لسان هشام إلى خالد القسري عامله على العراق.

وعلى يد سالم هذا تخرج عبد الحميد الكاتب، وهو يمت إليه بصلة القربى، وكان عبد الحميد مولى العلاء بن وهب القرشي، وهو فارسي الأصل، وكان في أول أمره ينتقل في البلدان ويعلم الصبيان في الكتاتيب، ثم التحق بديوان الرسائل بدمشق في عهد هشام بن عبد الملك وتخرج على يد زوج أخته سالم في فن الترسل.

وقد اتصل بمروان بن محمد منذ عهد هشام وكتب له، فلما صارت الخلافة إليه اتخذها كاتباً لرسائله، ولازمه عبد الحميد حتى آخر أيامه وأبى أن يتخلى عنه يوم أحيط به فقتل معه، وتذهب رواية أخرى إلى أنه توارى عند صديقه ابن المقفع، ثم عثر عليه فقتل، وعلى يد عبد الحميد تطور فن الترسل وبلغ غاية بعيدة من النضج، وجمهور الباحثين على أن الكتابة الفنية إنما وجدت على يده، ولهذا قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد» وقد انتهت إلينا طائفة من رسائله القصيرة والمطولة وتوقعاته.

وأبرز ما تتسم به كتابة عبد الحميد:

- ١- إطالة التحميدات في صدور الرسائل.
 - ٢- والإكثار من الترادف.
 - ٣- والعناية بالتصوير الفني.
 - ٤- العناية بالجانب الموسيقي.
 - ٥- اختيار الألفاظ والتوازن بين الجمل.
 - ٦- والإتيان بالسجع أحياناً.
 - ٧- الإسراف في استعمال صيغة الحال.
 - ٨- البعد عن البساطة والعفوية اللتين عهدتا في الكتابة العربية من قبل.
 - ٩- الجهد والتكلف.
 - ١٠- الإسراف في تنميق رسائله وزخرفتها بألوان الصنعة.
- وإزداد الاهتمام بالكتابة في هذا العصر بعد تعقد الحياة وتكاثر المشكلات وتحضر العرب واقتباسهم من النظم الموجودة عند الأمم الأخرى.

وقد انقسمت الثقافة في هذا العصر إلى ثلاثة تيارات:

- ١- التيار العربي الجاهلي: كان يتمثل في أشعار العرب وأيامهم.
- ٢- التيار الإسلامي: يتمثل بتسجيل تاريخ الإسلام وسيرة الرسول وغزواته وسير الخلفاء والفتوح والأحزاب السياسية التي سجلت نظرياتها في الحكم.
- ٣- تيار أجنبي: يتمثل ثقافة الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية، فقد اتخذ عمر بن الخطاب ديوان العطاء والجيش، وطلب خالد بن يزيد بن معاوية ترجمة كتب الطب، وألف العرب كتباً في مختلف الموضوعات، واعتمدوا صيغ الجمال الفني في سكب العبارات واختلطت في نهاية هذا العصر الثقافة العربية بالثقافة الدينية والثقافة الأجنبية المترجمة التي سيقطف ثمارها خلفاء العصر العباسي.

ثانياً- الكتاب:

١- دور عبد الحميد الكاتب في تطور فن الكتابة:

يروى أن عبد الحميد من أصل فارسي من الأنبار، انتقل إلى ديوان الرسائل في دمشق بعد أن كان معلماً في الكتاتيب، عمل لدى هشام واتصل بمروان بن محمد الذي ولاه على ديوانه عندما أصبح خليفة، وقد قتل عبد الحميد مع نهاية الخلافة الأموية بعد أن ألقى القبض عليه أبو العباس السفاح، يعد عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين، فقد فتحت الرسائل به وختمت بآب العمد، سهل طرق البلاغة واستخدم التحييدات، فصيح اللسان قوي التعبير والبيان فخم العبارة واسع الثقافة، تأثر بالأدب الفارسي واليوناني وتمثل الثقافة العربية، تتميز فنية نثره بجودة التقسيم ودقة المنطق والطباق والمقابلات والصور والاستعارات والترادف الموسيقي والإيقاع الصوتي.

٢- دور ابن المقفع: يعد عبد الله بن المقفع من الكتاب البارزين الذين ما تزال ثقافتهم يقتبس منها في أدبنا وفي الآداب الأجنبية، فقد كان والده فارسياً مجوسياً (مانوياً) تبعه ابنه، وقد كان هذا الولد فصيحاً بليغاً كتب لعمر بن هبيرة ولابنه يزيد، ثم لعيسى بن علي عم المنصور، وأسلم على يديه وتسمى بـ: عبد الله وبقي في خدمته حتى

قتله سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور. لقب والده بالمقفع لاختلاسه ما لا
فضربه الحجاج حتى تقفعت يده، وترجع أهمية ابن المقفع لترجمته لكتب (مزدك)، وسير
الملوك، وأنظمة الملك، وسيرة أنوشروان، ومقولات أرسطو، وكليلة ودمنة، والأدب
الكبير، والأدب الصغير. تميز بالفصاحة والبلاغة وقوة الحججة ووضوح الأسلوب والبعد عن
التعقيد والنفور من الإغراب والتوعر في الألفاظ.

الباب التاسع

الفصل الثاني

تنوع الفنون النثرية

تطور فن النثر عمّا كان عليه في الجاهلية بفضل نزول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما نتج عنهما من دراسات جاءت لتفسر وتوضح وتبين ما في هذين الكتابين، ونشأ تبعاً لذلك فنون نثرية جديدة وتطورت فنون نثرية أخرى كانت موجودة في الجاهلية، وتابع الأدباء الفنون النثرية والشعرية والرجز فكتبوا في (المناظرات، الأمثال، الحكم، القصص، الحكايات، الوصايا، المواعظ، الرسائل، الوصف، الأدعية، المحاورات، العهود، الأجوبة، التوقيعات، السيرة، الأحاديث الشعبية، القصة، والشعر والرجز).

وللأدب في العصر الأموي ميزات استحدثت وجودها من العوامل السياسية والاجتماعية والحضارية التي طبعت العصر بطابعها، ولئن كان النثر الفني في العصر الأموي قد أدرك مكانة رفيعة، لا تقل شأنًا عن مكانة الشعر، فإن ذلك نتيجة حتمية لارتقاء الأسلوب الأدبي وتشعب مساراته ومداراته، وتنوع سياقاته ودلالاته، ولاسيما في الخطابة والترسل، حيث شهدت الخطابة ارتقاءً نوعياً واهتماماً فنياً، دعت إليها الحاجة إلى الخطابة، بغية تثبيت أركان الملك الأموي، في غالب مناحيه، أو تعبيراً عن صوت المعارضة التي عمدت إلى زعزعة تلك الأركان والردّ عليها.

كذلك، بلغت الرسائل على أنواعها السياسية، والدينية والاجتماعية مرحلة بالغة الأهمية في تنميق العبارة، وتدبيج الأفكار، وصقل الألفاظ، بما يتلاءم مع أهدافها المرسومة لها، ولا غرو أن يتخللها جمالياً وفنياً، فصاحة ناصعة، وبلاغة بينة تنأى بها عن المغالطة والغموض، حتى غدت المنافسة بين الكتاب ميداناً رحباً للتنافس الأدبي في حسن الأداء، وأضحى الكاتب نفسه حاجة ضرورية لأهل الحكم والولاية، ولاسيما بعد تعريب الدواوين وجعلها في أيدي كتاب

عرب، بعد أن تشاركهم في الكتابة أناس من جنسيات غير عربية حملوا خبرتهم إلى الديوان العربي فاستوظفوا فيه استغلالاً لهذه الخبرة واستفادة من معارفهم في هذا المجال.

كل ذلك جعل كتابة الرسائل فناً أدبياً راقياً لا يمكن تجاهله. وبالتالي غدت قراءة الرسائل متعة أدبية، ورحلة في آفاق الإبداع الفني. هذا وإن النشاط الأدبي الذي شهده العصر الأموي يعود في أساسه إلى أسباب متعددة لعل من أبرزها:

١- اهتمام الحاكم وسعيه إلى تقريب العلماء والأدباء ومشاركتهم في مناقشة قضايا الأدب والفكر.

٢- وتكريم البارزين منهم وتقريبهم إليه.

٣- الحرية التعبيرية التي كانوا يتمتعون بها مما شكل مناخاً أدبياً كان للحاكم فيه دور لا يقل شأواً عن دوره السياسي في إدارة البلاد والعباد.

إن العصر الأموي كان عصر ثقافة رفيعة، وذوق أدبي راق اتصف بهما الأمير والوالي والقائد، وغير قليل من أهل العلم والرأي، فاتخذ التعبير لديهم أساليب متنوعة، متألفة في الجودة والبراعة، فبرزت أسماء في رحاب هذا الفن، كان لها أثرها البارز في الارتقاء بالثقافة إلى مستوى النموذج الذي يحتذى به، فكان الخطباء، والشعراء، والكتاب أعلام هذه المرحلة في تاريخنا الأدبي.

الباب العاشر

الخطابة في العصر الأموي

مقدمة

نهضت الخطابة في العصر الأموي لدواع اجتماعية وسياسية، ولكون الإسلام قد أوجب خطبة الجمعة وسنّ خطب الأعياد والخسوف والكسوف، فقد تطور هذا الفن وتفشى فشواً عظيماً، وحفلت به النوادي وحفلت فيها المجالس والقصور وأماكن القضاء؛ إذ كان الخلفاء والقادة يعتمدون عليها اعتماداً كبيراً في إيصال ما يريدون إيصاله، وزاد من أهمية الخطابة انتشار الأحزاب السياسية والفرق والثورات التي تحاول إثبات أحقية الخلافة لفئة دون فئة.

الباب العاشر

الفصل الأول

أنواع الخطابة وخصائصها

في العصر الأموي

أ- مقدمة:

كانت الجماعات التي تناوئ الأمويين ترى أن بني أمية لا يصلحون للخلافة ولا لحكم المسلمين، فنددوا بالحكام وظلمهم وتنكبهم عن الجادة والتقصير في تنفيذ أحكام الشريعة، وهذه النزعة في الواقع متشحة برداء السياسة؛ لأنها تدور وتهدف إلى تغيير الأوضاع وقلب نظام الحكم والخروج على الحكام، والذي جعلنا نميّز هذا اللون عن قسيمه السياسي اصطباغها بالصيغة الدينية ولباسها ثوب الدين وتأثيرها في النفوس وامتلاكها الأفتدة، وصدورها عن أناس لهم نزعات دينية قوية متمكنة من نفوسهم، كما يشيع في هذه الخطب ذم الدنيا والتحذير من غرورها ومفاتها وتوجيه النفوس إلى الآخرة ونعيمها، وغير ذلك من الأفكار الدينية التي تطمئن لها النفوس إلى الآخرة وتروق لها المشاعر وتحبب لها القلوب.

وكان خطباء هذا اللون يلتزمون الحمد في أول الخطبة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والاقْتباس منه، حتى أن بعضها كان كله قرآناً كخطبة

مصعب بن الزبير، وهذا النوع أفاد الخطابة من ناحية التفكير العميق المنظم ومن ناحية التعبير الدقيق الواضح، وخير ما يمثل هذا النوع خطب الخوارج ورجال آل البيت والزبيرين. وعرف العصر الأموي أنواع الخطابة التي كانت شائعة في صدر الإسلام، إضافة إلى أنواع جديدة أوجدها تطور الحياة الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية وظهور الفرق الدينية والكلامية، وللخطابة في هذا العصر أنواع:

١- الخطابة الدينية؛

وهي تلك الخطب التي كانت تلقى في المساجد أيام الجمع وفي الأعياد، وكان الوعظ غالباً على هذه الخطب، إلا أنها لم تكن تخلو أحياناً من التعرض للجوانب السياسية. وثمة خطب كان يلقيها الزهاد بين أيدي الخلفاء والولاة لتزهيدهم في الدنيا، وقد أطلق عليها لفظ المقامات. ومن ألوان الخطابة الدينية الخطب المتصلة بعقائد المتكلمين، وقد شهد العصر الأموي ظهور أوائل الفرق الكلامية المرجئة والقدرية والمعتزلة والجبورية، وكان لكل من هذه الفرق من يروجون لعقائدها ويجادلون خصومها، وكثيراً ما كانت المناظرات تقوم بين هؤلاء، كل يُدلي بحجته وأدلته، فارتقى بذلك فن المناظرة، وهو فن لم يعرفه العرب قبل، وفي حين كانت ضروب الخطابة الأخرى قوامها العناصر العاطفية كان قوام المناظرات العناصر العقلية المنطقية.

وقد بلغ هذا الفن غايته في العصر العباسي، وقد نالت هذه الخطابة حظاً وافراً من الازدهار والنماء في عصر بني أمية وإن لم تضارع الخطابة السياسية، ومرد ازدهارها إلى دواع شتى منها ظهور الفرق الدينية، وقد اكتسى حزبا الخوارج والشيعية مع الزمن ثوباً دينياً بعد أن كانا حزبين سياسيين، وهذه الفرق كانت تستعين بخطبائها في الدعوة إلى مبادئها والرد على خصومها، وكثيراً ما كانت المناظرات تقوم بين الفريقين المتنازعين.

ومما ساعد على نمو الخطابة الدينية كذلك حركة الزهد التي شهدتها العصر الأموي، فقد ظهر في ذلك العصر جماعة من الزهاد وجهوا همهم إلى وعظ الناس وصددهم عن التهالك على ملاء الدنيا، وكان ظهور حركة الزهد رداً على انغماس عامة الناس في الشهوات، ولاسيما أولئك الذين أفاءت عليهم الفتوح أو التجارة المال الكثير، وكان في مقدمة الوعاظ الحسن

البصري الذي نذر نفسه هداية القوم وتزهيدهم في الدنيا الفانية بمواعظ بلغت الغاية في بلاغتها وقوة أثرها.

وإلى جانب القصاص الذين كانوا يرافقون الحملات الغازية لحث الجند على الاستبسال في القتال وجدت جماعة أخرى من القصاص تلازم المساجد، وتقوم بسرد القصص الديني وتفسير القرآن الكريم تفسيراً ممزوجاً بقصص الأنبياء وأخبار الأمم القديمة، وكان بعضهم يجنح إلى المبالغة والتزويد كي يستميلوا الناس إلى قصصهم، ويضاف إلى هذه الأنواع من الخطابة الدينية تلك الخطب التي كانت تلقى في المساجد أيام الجمع وفي الأعياد، وكان الوعظ غالباً على هذه الخطب، إلا أنها لم تكن تخلو أحياناً من التعرض للجوانب السياسية.

- خصائص الخطابة الدينية في هذا العصر:

ومن خصائص الخطابة الدينية في هذا العصر:

١- ترك الحواشي من الكلام.

٢- الجزالة في الألفاظ.

٣- الاقتباس من القرآن والحديث.

٤- الأسلوب القرآني في القصص والجدل والتمثيل.

٢- الخطابة السياسية:

في مقدمة الأنواع الخطابية التي ازدهرت عصرئذ الخطابة السياسية، وقد توافرت جملة من العوامل لازدهارها من ذلك الصراع على الحكم، فإن استئثار بني أمية بالحكم وجعله وراثياً بعد أن كان شورياً أثارا معارضةً عنيفة من قبل فئات سياسية مناوئة للحكم الأموي وأبرزها: الحزب الخارجي، الحزب الشيعي، والحزب الزبيري، فضلاً عن نشوب ثورات تتوخم القضاء على الحكم الأموي كثورة ابن الأشعث وثورة ابن المهلب.

أدت وفرة الأحداث والصراع بين الأحزاب السياسية إلى ازدهار الخطابة السياسية ازدهاراً لم تشهد نظيره في أي من العصور، إذ كان لها الشأن الأول في استمالة الأنصار ومقارعة الخصوم وإرهاب الثائرين وتشجيع المناضلين، وعرض حجج كل من الأحزاب المصطرفة ومناظرة أعدائهم.

وظهر من خطباء الخوارج: قطري بن الفجاءة، أبو حمزة الخارجي، وزيد بن جندب الأزرقى، عمران بن حطان، وظهر من خطباء الشيعة: الحسين بن أبي طالب، زيد بن علي، المختار الثقفي.

وظهر من الخطباء الأمويين: خالد القصري، يوسف بن عمر سعيد بن العاص، وظهر من الخطباء الزبيريين: عبد الله بن الزبير.

٣- الخطب الحربية:

ويتصل بالخطابة السياسية الخطب الحربية، فقد استدعت حركة الفتح الإسلامي التي بلغت مداها الأقصى في عصر بني أمية وجود خطباء يذكّون وقود الحماسة في نفوس المقاتلة، ويحضّونهم على مجاهدة أعدائهم، وكان قادة الجيوش في الغالب ممن يجيدون الخطابة، ومن هذا القبيل وخطب ولاية خراسان في تحريضهم الجند على القتال إبان الفتوح فيما وراء النهر كخطب قتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب وأسد بن عبد الله القسري وغيرهم.

٤- خطب القصص:

وثمة ضرب من هذه الخطب تختلط فيه المعاني السياسية بالمعاني الدينية هو القصص، فكان القصص يرافقون الجيوش الغازية ويثيرون الحمية في النفوس عن طريق التمثل بالآيات القرآنية التي تحث على الجهاد، وتذكير المجاهدين بما ينتظرهم عند الله من الثواب العظيم، وربما استعانوا بأخبار فرسان العرب القدامى لتحقيق هذه الغاية.

٥- الخطابة الحفلية:

والمراد بالخطابة الحفلية الخطب التي كانت تُلقى في المحافل والمجالس والأسواق لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالمفاخرة والتهنئة والتعزية والتكريم والشكوى وعقد النكاح وإصلاح ذات البين ونحو ذلك.

وقد حظيت هذه الخطب بقسط وافر من النماء والارتقاء في العصر الأموي لتوافر دواعيها، فكانت الوفود تقدم على الولاة والخلفاء، ويقوم خطباءؤها فيلقون الخطب بين يدي الوالي والخليفة في الغرض الذي قدموا من أجله، وقد ترعرعت هذه الخطبة بسبب انتشار الوفود التي تأتي إلى الخلفاء أو الأمراء مهنته أو معزية أو لحاجة من الحاجات، وكان معاوية وعبد

الملك يستقبلان الوفود، فقد قدم على معاوية النجاد وعمرو بن سعيد الأشدق، وممن وفدوا على عبد الملك سعيد بن عمرو والهيثم بن الأسود بن العريان، ولم يكن خليفة من الخلفاء يتولى الخلافة إلا قدمت عليه الوفود.

٦- خطب التفاضر:

وربما اجتمع في مجلس واحد خطباء من قبائل شتى فيجري بينهم التفاضر بقبائلهم والإشادة بمآثرها، وقد شهد العصر الأموي استعمار نار العصبية القبلية على نحو لم تعرفه العصور السابقة، وأدى استعارها إلى نمو الشعر القبلي واتساع نطاقه من جانب وإلى كثرة المفاخرات القبلية من جانب آخر، ولاسيما بين خطباء العدنانية والقحطانية، ومما يلفت النظر في ذلك انتقال مراكز النشاط الأدبي من البوادي إلى الحواضر والأمصار المحدثّة التي ازدحمت بأفواج المهاجرين إليها من شتى قبائل العرب، فأدى ذلك إلى وقوع المفاخرات بين خطباء تلك القبائل في تلك الحواضر فضلاً عما قام بين شعرائها من مناقضات.

وقد ظلت الخطابة الحفلية التي كانت معروفة من قبل قائمة في العصر الأموي كخطب الإملاك وخطب إصلاح ذات البين وخطب التعزية وغيرها.

ب- القيمة الفنية للخطابة في العصر الأموي:

اعتمد الخطباء في خطبهم على:

- ١ - استخدام النزعة الدينية.
- ٢ - الاتكاء على معاني القرآن والأحاديث النبوية.
- ٣ - توظيف العاطفة الدينية والحزبية.
- ٤ - الإكثار من أساليب التهديد والتوبيخ والوعيد والإنذار.
- ٥ - اتخاذ الحجة والجدل وسيلة لإقناع الخصم.
- ٦ - الاعتماد على الألفاظ المنعمة والتراكيب الموسقة (السجع).
- ٧ - الإيجاز والإجمال في توصيل الغرض من الخطبة.

الباب العاشر

الفصل الثاني

نماذج من الخطابة الدينية

في العصر الأموي

أ- خطبة مصعب بن الزبير لما قدم العراق:

١- الخطبة: لما قدم مصعب بن الزبير إلى العراق والياً عليها من قبل أخيه عبد الله بن الزبير صعد المنبر، ثم قال:

(بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَدْخُلُ آبْنَاؤُهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص: ١-٤] وأشار بيده نحو الشام، ثم قال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: ٥] وأشار بيده نحو الحجاز، ثم قال: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [سورة القصص: ٦] وأشار بيده نحو العراق، ثم نزل).

٢- تحليل الخطبة:

أولاً: يلاحظ أنه اعتمد على القرآن الكريم وتلا الآيات من مطلع سورة القصص، واعتبر عندما تلا آيات نبي موسى وفرعون وأشار إلى الشام أنه يقصد بذلك حكم الأمويين مع الإشارة إلى مظالمهم.

ثانياً: اعتبر أن أهل الحجاز كانوا مستضعفين مظلومين من قبل الحكم الأموي فنصرهم الله ومنَّ عليهم بالتمكين في الأرض من خلافة عبد الله بن الزبير.

ب- خطبة الحسين بن علي رضي الله عنهما قبل استشهاده:

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أيها الناس: إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً بعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيري قد أتنى كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم لا تسلموني ولا تحذلوني، فإن تمتم علي ببيعتكم تصيبوا رشدكم وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم فلكم في أسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم والمغرور من اغتر بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيُغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

المفردات اللغوية:

الفيء: الخراج. لا تسلموني: لا تمكنوا مني العدو. ينكر: منكر. مسلم: يريد أنهم خذلوا علياً والحسن وأخذوا مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

- تحليل خطبة الحسين رضي الله عنه

في هذه الخطبة يعلّل سيدنا الحسين خروجه إلى العراق وتضمنت الخطبة عدة أفكار:

أولاً: تعليل الخروج على حاكم نكث بعهد الله واستحل محارم الله وخالف سنة رسول الله ﷺ؛ لأنه في هذا الحال لم يبق من الإسلام شيئاً.

ثانياً: إن هذا الفريق من الحكام لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن فأعلن عن أحقيته بالخلافة.

ثالثاً: يقرع من ادّعوا أنهم أتباعه وهم الذين أرسلوا له بالبيعة ودعوا إلى العراق، وأنهم إن خذلوه وأسلموه لعدوه وعدوهم فليس الأمر بمستغرب، فلقد خذلوا أباه وأخاه من قبله وإن هم نقضوا بيعته بخذلانه فعليهم الإثم، والله يغنيه عنهم.

ج- خطب أبي حمزة الشاري:

خطب في مكة المكرمة قائلاً:

(يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً نعم الشباب مكتهلين عمية عن الشر أعينهم بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في آناء الليل منثيةً أصلابهم بمثاني القرآن إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله مستنجزون لوعده الله حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ورماحه قد أشرعت وسيوفه قد انتضيت وبرقت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعده الله، فمضى الشاب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، وقد رملت محاسن وجهه بالدماء وعفروا وجهه بالثرى وأسرع إليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء فكم من مقلّة في منقار طير طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خد عتيق وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها الجنان.

المفردات اللغوية:

عمية: مؤنث العمي وهو الأعمى. أنضاء: جمع نضو المهزول. فوقت السهام: أعدت للرمي. أشرعت الرماح: سددت. انتضيت السيوف: استلتت من أغمادها. عفر بالثرى: مرغ بالتراب. بانت: انفصلت. العتيق: الجميل أو النبيل.

- تحليل الخطبة:

أولاً: الرد على أهل مكة الذين عابوا أصحاب أبي حمزة.

ثانياً: حوت الخطبة شراً لمناقب أتباع أبي حمزة، وأبرز هذه الصفات:

١ - كثرة الصلاة بالوقوف بين يدي الله ليلاً.

٢- شدة مخافتهم من الله وتدبرهم لآيات القرآن.

٣- جهدهم المتواصل في طاعة الله ليل نهار.

٤- الوفاء بعهد الله والثقة بنصره وإنجاز وعده لهم.

د- خطبة عبد الملك بن مروان:

ومن الخطب الدينية في هذا العصر خطبة عبد الملك بن مروان حيث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال:

(أيها الناس إن الحرب صعبة مرة وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهي أمانا.

أيها الناس فاستقيموا على الهدى ودعوا الأهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ولا نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود بعد مثلها فليعد).

هـ- خطبة واصل بن عطاء المخزومي: الشهيرة التي تجنب فيها حرف الرء

- نص الخطبة:

(الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداءً، وعد له اصطناعاً، فأحسن كل شيء خلقه وتم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، إنها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون، وأشهد شهادة حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخاصته

وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق، فبلغ مآلكته، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصد عنه زعم زاعم، ماضياً على سنته، موثقاً على قصده، حتى أتاه اليقين، فصلى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد.

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، فأحضكم على ما يدينكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها، وفوائن لذاتها، وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عايتتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبالها، وأهلكت ممن جرح إليها واعتمد عليها، أذاقتهم حلواً، ومزجت لهم سماً، أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاشفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد، قبضتهم بمخيلها، وطحتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العز ذلاً، ومن الحيلة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تعابن إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحسس منهم أحد ولا تسمع لهم نَساً.

فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لغلکم تفلحون، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظه وسعادته، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواظ المتقين كتاب الله، الزكية آياته، الواضحة بيناته، فإذا تلي عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون.

أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي، إن الله هو السميع العليم، بسم الله الفتاح المنان، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحي المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا جنات النعيم، وأقول ما به أعظكم، وأستعذب الله لي ولكم).

٢- نظرة عامة للخطبة:

وللخطبة قيمة فنية وتاريخية عظيمة، فهي خطبة مرتجلة أمام الوالي ووفد من العلماء، اقتدر صاحبها على الاستغناء فيها عن حرف من أكثر الحروف دوراناً في الكلام، وعلى الرغم من أنها خطبة ذات طابع ديني، فيها من معاني القرآن الكريم وأساليبه ونصوصه، غير أن واصل قد تمكن من الفرار في إبداع وخفة وحذق من ألفاظ معينة إلى مرادفاتهما، وهذا يدل على قدرة فنية لا تتأتى إلا للأفذاذ.

أما قيمتها التاريخية فتنبع من كونها أنموذج من خطب الوعظ الخالص في القرن الثاني للهجرة، تجنب فيها واصل فتن المذاهب والدعوات المذهبية، وفيها شبه كبير بخطبتي عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ما، وقد اجتمع في ثلاثتها التحذير من مفاتن الدنيا، وتصوير نهاية الأحياء، والتنويه بفضل القرآن، والحث على اتباع آياته وهديه.

ج- خصائص الخطابة في العصر الأموي:

كان الخطباء الأمويون يعنون بتجويد خطبهم وتحبيرها وتنميقها حتى تأتي في الصورة التي يرتضونها، ولم يكونوا يرسلون الكلام عفواً على البديهة - صنيع الجاهليين - وقد أثر عن البعيث الخطيب الشاعر قوله: «إني والله ما أرسل الكلام قضيياً خشبياً، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك، وكان من ثمرة هذ التنقيح أن جاءت خطب العصر الأموي منسقة الأفكار، مرتبة الأقسام، محكمة التسلسل، وتظهر هذه السمات على نحو جلي في خطبة زياد التي قالها يوم قدم البصرة.

وكان من خطباء العصر الأموي من تعمّد محاكاة أهل البادية في جزالة أسلوبهم وبداعة ألفاظهم، ويظهر الطابع البدوي في خطب الحجاج خاصة، على أن أسلوب الخطابة الأموية كان يتفاوت بتفاوت أغراضها وموضوعاتها، وقد ظلت خصائص الخطابة التي وجدت في خطب صدر الإسلام قائمة في الخطب الأموية، ومن ذلك استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده وإلا كانت بترأء وتوشيحها بآي من القرآن الكريم، وإلا كانت شوهاء، وقد يتمثل الخطيب بشيء من الشعر أو الرجز، وربما وقع السجع في طائفة من الخطب الأموية ولكن الخطباء ما كانوا يسرفون في الإتيان به كراهية محاكاة سجع الكهان.

وكان النبي وخلفاؤه يوصون الخطباء بتحامي هذا السجع، وحين ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع وتدريبهم على محاجة خصومهم بالبراهين والأدلة العقلية، وظهر صدى ذلك في خطبهم ومناظراتهم من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها واستنادها إلى المنطق وأصول الجدل.

إن فن الخطابة لم يبلغ في أي عصر من العصور ما بلغه في العصر الأموي من النماء والنضج.

الباب العاشر

الفصل الثالث

أبرز أعلام الخطابة في العصر والأموي

- مقدمة:

ظهر في العصر الأموي عدد وافر من الخطباء في شتى ضروب الخطابة.

أولاً - خطباء الأسر:

ومن اللافت للنظر في ذلك العصر ظهور جماعات من الخطباء تنتمي كل منها إلى أسرة واحدة، ومن هؤلاء:

١- آل رقة الذين ينتمون إلى قبيلة عبد القيس الربعية، ومن الخطباء المشهورين في هذه الأسرة كرب بن رقة وابنه مصقلة بن كرب، وهو أشهر خطباء هذه الأسرة، وكان أيام الحجاج، وقد ذكر الطبري أن الحجاج لما دخل الكوفة بعد هزيمة ابن الأشعث أجلس مصقلة بن كرب إلى جانبه وأمره أن يخطب فيستم كل امرئ بما فيه، وكان ابنه كرب بن مصقلة خطيباً مفوهاً كذلك، وكان له خطبة يقال لها «العجوز» كان آل رقة يفاخرون بها.

٢- ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة كذلك آل الأهم من قبيلة تميم، وهي أعرق الأسر العربية في الفن الخطابي، وعرف منها في العصر الجاهلي والإسلامي عمرو بن الأهم وأخوه عبد الله بن الأهم، وكان لعبد الله ولدان اشتهرا بالخطابة في عصر بني أمية هما صفوان بن عبد الله بن الأهم، وعبد الله بن عبد الله بن الأهم، وقد ذكر أن عبد الله هذا دخل على عمر بن عبد العزيز فألقى بين يديه خطبة بليغة عرض فيها بأسلاف عمر من بني أمية.

وفي أواخر العصر الأموي ظهر من هذه الأسرة خطيبان أصابا شهرة بعيدة هما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهم، وشبيب بن شيبه بن عبد الله بن عبد الله بن الأهم، وكان لهذين الخطيبين شأن كبير في العصر العباسي كذلك.

٣- ومن الأسر القرشية التي كان لها حظ وافر من الشهرة الخطابية عصرئذ آل العاص، وهم من بني أمية، ومن مشهوري خطباء هذه الأسرة سعيد بن العاص وهو أشهر خطبائها، ومنها كذلك عمرو بن سعيد بن عمرو بن العاص المعروف بعمرو بن خولة - نسبة إلى أمه - وهو من الخطباء الذين فاخر بهم بنو أمية بني هاشم.

٤- ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة الدينية في ذلك العصر أسرة فارسية الأصل تنتمي بالولاء إلى قبيلة رقاش البكرية، ومن هذه الأسرة يزيد بن أبان الرقاشي، وكان من القصاص المجيدين، وابن أخيه الفضل بن عيسى بن أبان القصاص، وكان عمرو بن عبيد يحضر مجلسه، ثم اشتهر بعدئذ ابنه عبد الصمد بن الفضل الرقاشي.

ظهر عدد جُم من الخطباء المجيدين، وقد تقدم القول أن كل حزب من الأحزاب السياسية كان يستظهر بطائفة من الخطباء للمنافحة عنه، وقد برز:

ثانياً- خطباء الأحزاب:

أ- من الحزب الأموي خطباء من الأسرة الأموية أشهرهم:

- ١- معاوية بن أبي سفيان.
- ٢- وابنه يزيد.
- ٣- وعبد الملك بن مروان.
- ٤- وسليمان بن عبد الملك.
- ٥- وعتبة بن أبي سفيان.
- ٦- وعمرو بن سعيد الأشدق.
- ٧- خالد بن عبد الله القسري.
- ٨- وأخوه أسد بن عبد الله القسري.
- ٩- وروح بن زنباع.
- ١٠- وعبد الله بن عامر.
- ١١- وبلال بن أبي بردة الأشعري.
- ١٢- والمهلب بن أبي صفرة.

١٣- وابنه يزيد بن أبي صفرة.

١٤- وقتيبة بن مسلم.

١٥- ونصر بن سيار.

ب- وظهر من الخوارج كثرة من الخطباء المجيدين منهم:

١- قطري بن الفجاءة.

٢- وعبيدة بن هلال الشكري.

٣- والمستورد بن علفة.

٤- وزيد بن جندب الإيادي، وقد أشاد الجاحظ بفصاحته وبراعته الخطابية.

٥- وعمران بن حطان شاعر الصفرية وخطيبهم.

٦- وصالح بن مسرح، وقد اشتهر بقصصه ووعظه لأصحابه.

٧- والضحاك بن قيس الشيباني.

٨- وأشهر خطباء الخوارج في ذلك العصر هو أبو حمزة الخارجي الإباضي، وقد انتهت

إلينا طائفة من خطبه تُنبئ بمهارته البيانية المتفوقة.

ج- ومن خطباء الشيعة:

١- زيد بن علي، رأس الزيدية.

٢- وعبد الله بن عباس.

٣- وعبد الله بن جعفر.

٤- وحفيده عبد الله بن معاوية بن عبد الله.

٥- ومنهم كذلك صعصعة بن صوحان.

٦- والمختار الثقفي.

٧- وسليمان بن صرد زعيم التوايين.

د- ومن خطباء الحزب الزبيرى المبرزين:

١- عبد الله بن الزبير.

٢- وأخوه مصعب.

٣- وعثمان بن عروة بن الزبير.

٤- وأخوه عبد الله بن عروة، وكان هذا أبرع الزبيرية، وكانوا يشبهونه في بلاغته بخالد بن صفوان.

ثالثاً- وأشهر الخطباء الدينيين في ذلك العصر:

١- الحسن البصري:

ولم يحظ أحد من رجال الدين بمثل المنزلة التي حظي بها الحسن في ذلك العصر، وعلى أنه كان من أصل غير عربي فقد أجاد الخطابة إجادة العرب الخالص؛ ذلك لأنه نشأ نشأة عربية بين مواليه الأنصار، حتى كانوا يشبهونه برؤبة بن العجاج، وشهد له أبو عمرو بن العلاء بالفصاحة فقال: «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج»، وكان الحسن يعظ فيأسر القلوب ويسيل الدموع، وكانت حلقة «صاحب العمامة السوداء» أكثر حلقات المسجد ازدحاماً بالوافدين، وكانوا يشبهون كلامه بكلام الأنبياء، ولما توفي (سنة ١١٠هـ)، كانت وفاته حدثاً عظيماً في تاريخ البصرة، وقد مشى أهلها جميعاً في جنازته واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر في الجامع.

رابعاً- ومن فصحاء أهل الكلام وخطبائهم:

١- واصل بن عطاء:

شيخ المعتزلة، هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المخزومي (٧٠٠-٧٤٨م)، الملقب بالغزال الأثغ، كان تلميذاً للحسن البصري، ومؤسس فرقة المعتزلة الإسلامية، حصل الخلاف بينه وبين الحسن في حكم مرتكب الكبيرة، فاعتزل حلقة الحسن، فقال الحسن: "اعتزلنا واصل" فتسمت فرقته بالمعتزلة وانضم إليه عمرو بن عبيد، كانت زوجته هي أخت عمرو بن عبيد، توفي في عام (١٣١ هـ الموافق لـ ٧٤٨ م) في المدينة المنورة، كان واصل بن عطاء على ما وهبه الله من فطانة وفصاحة وحسن تصرف في القول كان صاحب عاهة في نطق حرف الراء، يحسن التأني لهذا العيب المخرج في النطق، فيجانب لفظ الراء إلى سواه من الحروف، فيجعل (البر قمحاً)، و(الفراش مضجعاً)، و(المطر غيثاً)، و(الحفر نبشاً).

وقد سجل لنا العلماء خطبة كاملة لواصل بن عطاء تجنب فيها حرف الرءاء، وانفصل
 واصل بن عطاء عن الحسن البصري وكون الحلقة الأولى للمذهب الاعتزالي، وعلى الرغم من
 أن واصل بن عطاء كان من زعماء العقلايين في الإسلام، إلا أنه كان أحد مؤسسي نظرية
 "المنزلة بين المنزلتين" ومعناها أن مرتكب الكبيرة ليس مسلم ولا كافر، ولكنه في منزلة
 بينهما، وإذا مات ولم يتب عن كبيرته فهو مخلد في النار، وقد بلغ من مقدرته الخطابية أنه خطب
 خطبة كاملة تجنب فيها حرف الرءاء لثلاثا تظهر لثغته.

خامساً- ومن خطباء الوعظ:

- ١- سحبان بن زفر الوائلي الذي ضرب المثل ببلاغته، وقد رووا أنه خطب عند معاوية
 ذات يوم من صلاة الظهر حتى صلاة العصر.
- ٢- عمر بن عبد العزيز الذي كان يكثر من وعظ الرعية.
- ٣- الأوزاعي: الفقيه المعروف.
- ٤- وإياس بن معاوية.
- ٥- وجامع المحاربي.
- ٦- وصالح المري القاص.

سادساً- ومن أشهر خطباء المحافل في ذلك العصر:

- ١- الأحنف بن قيس سيد بني تميم.
- ٢- والبعيث المجاشعي.
- ٣- والنخار بن أوس العذري.
- ٤- وصعصعة بن صوحان.

سابعاً- تراجم بعض الخطباء:

١- الحسن والحسين: سيدي أهل الجنة:

برز من رجال الحزب الشيعي عصرئذ الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهما، وقد ورثا
 عن جدهما رسول الله عليه وسلم، وعن أبيهما علي رضي الله عنه البلاغة والمقدرة الخطابية.

٢- زياد بن أبيه:

ولد على الأغلب في السنة الأولى للهجرة، والدته سمية جارية من الطائف، ويقال: إن والده أبو سفيان، فلما أنكره سمي زياد بن أبيه، ويعد زياد إدارياً حازماً، وسياسياً فريداً، وأديباً بارعاً، وهو أحد دهاة العرب: (معاوية، المغيرة، عمرو بن العاص، زياد بن أبيه)، كان والياً لعلبي في منطقة فارس، حاول معاوية أن يستميله فرفض، ولما استشهد علي أحقه معاوية بنسبه وولاه على البصرة والكوفة والعراق خمس سنوات، وقد كان حليماً كيساً يتسم أسلوبه بالجزالة والأفاظه بالفصاحة، وتراكيبه بالوضوح، توفي عام (٥٣هـ).

٣- الحجاج بن يوسف الثقفي:

وهو سياسي قدير، وإداري حازم ومثقف واسع الخبرة، تميز بالقسوة، كان خطيباً بارعاً، تميزت خطبه بقوة المعاني، وذكر الموت والضرب والقتل، جزل اللفظ متين العبارة، قصير الجمل، ولد عام (٤٢هـ) في الطائف، ونشأ بين والد وأخ كانا معلمين التحق بالجيش الأموي وارتقى في المراتب، كلفه عبد الملك بن مروان بقتال عبد الله بن الزبير، فقتله وحاصر الكعبة بالمنجنيق، ثم ضربها، فكافأه عبد الملك بتوليته الحجاز واليمن، ثم العراق، قضى الحجاج على الخوارج.

وقد كان الحجاج أكثر ميلاً إلى البطش وسفك الدماء، وكان متميزاً في البراعة الخطابية، وشهد له معاصره بذلك فقال مالك بن دينار: (ما رأيت أحداً أبين من الحجاج، وإن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي: لأحسبه صادقاً وإني لأظنهم ظالمين له) وقام بإصلاحات إدارية وعمرانية، وبنى مدينة واسط بالعراق وحفر الأقينية، وأوجد المكاييل والمقاييس والموازين، ونقل الدواوين من الفارسية إلى العربية، وسك عملة عربية، ثم نظم الجيش وجعل الخدمة فيه إجبارية فتح معظم بلاد المشرق ووصل إلى بلخ وطخارستان وفرغانة والسند، ثم إلى حدود الصين.

وبموته بسرطان القرحة توقفت فتوح المسلمين، لم يخلف إلا سيفاً ومصحفاً وعشرة دراهم فضة. وتوفي عام (٩٥هـ).

٤- زياد بن أبي سفيان:

وأشهر خطباء الحزب الأموي زياد بن أبي سفيان من قبيلة ثقيف التي كانت تستوطن الطائف، وقد تجلّى نبوغ زياد الخطابي منذ أيام عمر بن الخطاب، ودعاه عمر بالخطيب المصقع، وقد مهدت له براعته البيانية والحسابية وثقافته الطريق لتولي الإمارة أيام علي ومعاوية، فولاه علي فارس وكرمان، وبعد مقتل علي استماله معاوية إلى صفه واستلحقه بنسبه وولاه البصرة، وهي يومئذ تموج بالفتن والاضطراب، فاستطاع بحنكته السياسية وحزمه القضاء على الفتنة وحمل أهل البصرة على طاعة بني أمية وأشاع الأمن والاستقرار فيها، وما لبث معاوية أن ضم إليه الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة، فكان أول من جمع له العراقان، ولما توفي سنة (٥٣هـ) كان الأمن والهدوء يعمان أرجاء العراق.

الباب الحادي عشر

المناظرة في العصر الأموي

الباب الحادي عشر

الفصل الأول

المنظرة عند الأمويين

استطاع الدارسون للأدب أن يكتشفوا أن القرآن الكريم كان سجلاً حافلاً بالمنظرات المعتمدة على الجدل العقلي والمبادئ العقلية التي إن ذكرت سلم بها (الخصم المناظر)؛ وقد كانت معظم المناظرات تعتمد على بلاغة القول، والتلطف في عرض الحجج حيث يطول الكلام ويقصر في المناظرة على حسب الحال، ومن المناظرات الإسلامية ما دار بين النبي ﷺ، وبين المشركين وما دار بين المهاجرين والأنصار، وبين علي ومعاوية، وما بين الأحزاب السياسية في العصر الأموي.

ونظراً لكثرة المهتمين بأمر الخلافة، وما دار حولها من نقاشات ومحاورات ومناظرات فقد نمت المناظرة واتخذت أسلوباً جديداً يعتمد على البراهين والحجج المستقاة من القرآن الكريم والشرع الإسلامي وأحاديث الرسول ﷺ، فقد جرت المناظرات بين الخلفاء الأمويين وبين منافسيهم حول الخلافة.

وكذلك جرت المناظرات بين العلماء حول مسائل الجبر والاختيار وخلق القرآن الكريم وحول صفات الله تعالى وقدمها وأسائه الحسنى والقضاء والقدر وبين المسلمين وأهل الكتاب حول نبوة السيد المسيح وعدم اعتراف اليهود بها ونبوة سيدنا محمد ﷺ وعدم اعتراف اليهود بمنهاجها، وفتح باب جديد من هذه المناظرات أسهم في إغناء أدبنا بالنصوص الأدبية المتسمة بهذا الفن، وساعد على تطور العقل العربي والمسلم وتمكنه من استيعاب الحضارات السابقة وصنع حضارة جديدة قائمة على عالمية الدين الإسلامي وشموليته في تسيير حياة الناس سياسياً واقتصادياً وفكرياً واجتماعياً وعقدياً، والمتصفح لكتب الأدب في هذا العهد يجد كما كبيراً من هذه المناظرات.

الباب الحادي عشر

الفصل الثاني

نماذج من مناظرات العصر الأموي

١- مناظرة معاوية والأحنف بن قيس

لما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجه إليه بوفد أهل العراق فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة، فتكلمت الخطباء في يزيد والأحنف بن قيس ساكت، فلما فرغوا قال: فإن العيون إليك أشرع منها إلى غيرك فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: (يا أمير المؤمنين إنك أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره وإعلانه وإسراره، فإن كنت تعلمه الله رضاً فلا تشاور فيه أحداً، ولا تقم له الخطباء والشعراء، وإن كنت تعلم ببعده من الله فلا تزوده من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة، فإنك تصير إلى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه فكأنه أفرغ على معاوية ذنوب ماء بارد).

فقال له: اقعد يا أبا بحر فإن خيرة الله تجري وقضاه يمضي وأحكامه تُنفذ لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وإن يزيد فتى بلوناه في قريش، فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه فقال: يا أمير المؤمنين أنت تحكي عن شاهد ونحن نتكلم على غائب، وإذا أراد الله شيئاً كان.

٢- مناظرة معاوية والأعرابية

خرج معاوية متنزهاً فمر بجواء ضخم فقصد قصد بيت منه، فإذا بفنائه امرأة برزة.

- فقال لها: هل من غداء؟

- فقالت: نعم حاضر.

- قال: وما غداؤك؟

- قالت: خبز وماء نمير وحيس فطير ولبن هجير.

- فشنى وركه ونزل فلما تغدى

- قال: هل لك من حاجة؟

- فذكرت حاجة أهل الجواء

- قال: هات حاجتك في خاصة نفسك

- قالت: يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزل وادياً فيرف أوله ويقف آخره.

٣- مناظرة أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أبي حدافة: حبس مروان وهو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فأثته جدة الغلام وهي أم سنان بنت جشمة المذحجية، فكلمته في الغلام فأغلظ مروان لها فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها.

- فقال: مرحباً بابنة جشمة ما أقدمك أرضنا، وقد عهدتك تشمتينا وتحضين علينا عدونا؟

- قالت: إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة وأحلاماً وافرة لا يجهلون بعد علم ولا يسفهنون

بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سن أبأؤه لأنت.

- قال: صدقت نحن كذلك فكيف قولك:

عزب الرقباد فمقلتي لا ترقد والليل يصدر بالهموم ويورد

يا آل مذحج لا مقام فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد

هذا عليّ كالهلال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد

خير الخلائف وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا

ما زال مذشهد الحروب مظفرا والنصر دون لوائه ما يعقد

- قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنا خلفاً:

- فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين؟ وهي القائلة:

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل بالحق تعرف هادياً مهدياً

فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغصون حمامة قمرياً

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيها

واليوم لا خلف يؤمل بعده هيهات نأمل بعده إنسيا

- قالت: يا أمير المؤمنين لسان فطن وقول صدق، ولئن تحقق ما ظننا فحظك الأوفر، والله ما ورتك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء فادحض مقاتلهم، وأبعد منزلتهم فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ومن المؤمنين حباً.

- قال: وإنك لتقولين ذلك.

- قالت: سبحان الله والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا.

٤- مناظرة معاوية وليلى الأخيلية

قال بعض الرواة: بينما معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شرطه: اتئني به وإياك أن تروعه فأتاه فقال:

- أجب أمير المؤمنين.

- فقال: إياه أردت.

- فلما دنا الراكب حذر لثامه فإذا ليل الأخيلية فأنشأت تقول:

معاوي لم أكد آتيتك تهوى برحلي نحو ساحتك الركاب
تجوب الأرض نحوك ماتأني إذا ما الأكم قنعها السراب
وكنت المرتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بخل السحاب
- فقال: ما حاجتك؟

- فقالت: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة فتخير أنت أعلى عيناً فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال:

- أخبريني عن مضر قالت: فاخر بمضر وحارب بقيس وكاثر بتميم وناظر بأسد.

- فقال: ويحك يا ليل كما يقول الناس كان توبة؟

- قالت: يا أمير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقاً شجرة بغية يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت كان يا أمير المؤمنين: سبط البنان حديد اللسان شجي الأقران كريم المخبر عفيف المتزر جميل المنظر، وكان كما قلت ولم أبعده عن الحق فيه:

بعيد المدى لا يبلغ القرم غوره ألد ملد يغلب الحق باطله
- فقال معاوية: ويحك يا ليلي يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً، فقالت من ساعتها
مرتجلة:

معاذ النهى قد كان والله توبة جواداً على العلات جمأ نوافله
أغر خفاجياً يرى البخل سبة تحالف كفاه الندى وأنامله
عفيفاً بعيد الهمة صلباً قناته جميلاً يحياه قليلاً غوائله
وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره لديه أتاه نيله وفواضله
وقد علم الحذب الذي كان ساريا على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنتك رحب الباع يا توب بالقرى إذا ما لئيم القوم ضاقت منازلهم
بيت قريير العين من كان جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازلهم
- فقال لها معاوية: ويحك يا ليلي لقد جزت بتوبة قدره.

- فقالت: يا أمير المؤمنين والله لو رأيتته وخبرته لعلمت إني مقصرة في نعمته لا أبلغ كنه ما
هو له أهل.

- فقال معاوية: في أي سن كان توبة؟

- فقالت: يا أمير المؤمنين

أنته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يناضله
وصار كليث الغاب يحمي عرينه فترضى به أشباله وحلائله
عطوف حلیم حين يطلب حلمه وسم زعاف لا تصاب مقاتله
- فأمر لها بجائزة.

- وقال: أي ما قلت فيه أشعر؟

- قالت: يا أمير المؤمنين ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدت
حيث أقول:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها
فتى من عقيل ساد غير مكلف
عليه فلم ينفك جم التصرف
ينال عليات الأمور بهونه
إذا هي أعيت كل خرق مسوف

٥- مناظرة الحجاج ورسول المهلب

يروى أن المهلب لما فرغ من أمر عبد ربه الحروري دعا بشر بن مالك فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل على الحجاج

- قال: ما اسمك؟

- قال: بشر بن مالك.

- فقال الحجاج: بشارة وملك كيف خلفت المهلب؟

- قال: خلفته، وقد أمن ما خاف وأدرك ما طلب

- قال: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟

- قال: كانت البداءة لهم والعاقبة لنا.

- قال الحجاج: العاقبة للمتقين فما حال الجند؟

- قال: وسعهم الحق وأغناهم النفل وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم

قتال الصعلوك، فلهم منه بر الوالد وله منهم طاعة الولد.

- قال: فما حال ولد المهلب قال: رعاة البيات حتى يأمنوا وحماة السرح حتى يردوه.

- قال: فأيهم أفضل؟

- قال: ذلك إلى أبيهم.

- قال: وأنت أيضاً فإني أرى لك لساناً وعبارة.

- قال: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها.

- قال: ويحك أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟

- قال: لا يعلم الغيب إلا الله.

- فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

٦- مناظرة مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير

روى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير اجتمعا ذات يوم في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها والحجاب بينهما وبينها يحدثانها ويسألانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة وعائشة تسمع فقال مروان:

فمن يشأ الرحمن يخفض بقدره
وليس لمن لم يرفع الله رافع
فقال ابن الزبير:

ففوض إلى الله الأمور إذا اعترت
وبالله لا بالأقربين أذافع
فقال مروان:

وداؤ ضمير القلب بالبر والتقوى
فلا يستوي قلبان قاس وخاشع
فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان هذا مكذب
عتل لأرحام العشيرة قاطع
فقال مروان:

وعبد يجافي جنبه عن فراشه
يبيت يناجي ربه وهو راكع
فقال ابن الزبير:

وللخير أهل يعرفون بهديهم
إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع
فقال مروان:

وللشر أهل يعرفون بشكلهم
تشير إليهم بالفجور الأصابع
فسكت ابن الزبير ولم يجب.

فقال عائشة رضي الله عنها: يا عبد الله مالك لم تجب صاحبك؟

فوالله ما سمعت تجاولاً في نحو ما تجاولتما فيه أعجب إليّ من تجاولكما فقال ابن الزبير: إني خفت عوار القول فكففت.

٧- مناظرة ليلي الأخيلية مع الحجاج

روى بعضهم أنه بينما كان الحجاج في مجلس ومعه عنبسة بن سعيد إذ دخل الحاجب فقال:
- امرأة بالباب.

- فقال له الحجاج: أدخلها فدخلت فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد
أصاب الأرض فجاءت حتى قعدت بين يديه فنظرت فإذا امرأة قد أسنت حسنة الخلق،
ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلي الأخيلية فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له.

- فقال لها: يا ليلي ما أتى بك؟

- فقالت: أخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد وكنت لنا بعد الله الرغد.

- فقال لها: صفي لنا الفجاج.

- فقالت: الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة والمبرك معتل وذو العيال مختل والهالك للقل،
والناس مستنون رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً، ولا
عافطة أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال، ثم قالت:

- إني قلت في الأمير قولاً.

- قال: هات فأنشأت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما المـ	سنايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم	ولا الله يعطي للعصاة مناهم
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة	تتبع أقصى دائها فشفاهم
شفاهم من الداء العضال الذي بها	غلام إذا هز القنائة سقاها
سقاها فرواها بشر سجاله	دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رزء كتيبة	أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مصقولة فارسية	بأيدي رجال يجلبون صراها
فما ولد الأبقار والعون مثله	يبحرر ولا أرض يجف ثراها

- قال: فلما قالت هذا البيت
- قال الحجاج: قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد فقال:
- والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً، ثم التفت إليها فقال:
- حسبك.
- قالت: إني قد قلت أكثر من هذا.
- قال: حسبك، ثم قال:
- يا غلام اذهب إلى فلان فقل له: اقطع لسانها فذهب بها فقال له:
- يقول لك الأمير اقطع لسانها.
- قال: فأمر بإحضار الحجام فالتفتت إليه فقالت:
- ثكلتك أمك: أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة، فبعث إليه يستثبته فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانه وقال:
- ارددها، فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:
- حجاج أنت الذي ما فوجه أحد إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت وأنت للناس نور في الدجى يقد
- ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟
- قالوا: لا والله أيها الأمير، إنما لم نر قط أفصح لساناً ولا أحسن محاورة ولا أملك وجهاً ولا أرصن شعراً منها.
- فقال: هذه ليلي الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها فقال:
- أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة.
- قالت: نعم أيها الأمير هو الذي يقول:
- وهل ليلي تبكينني إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائح

كما لو أصاب الموت ليلى بكيثها
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا
- ثم قال: سلي يا ليلى تعطي.

- قالت: أعط مثلك أعطى فأحسن.

- قال: لك عشرون.

- قالت: زد فمثلك زاد فأجمل.

- قال: لك أربعون.

- قالت: زد فمثلك زاد فأكمل.

- قال: لك ثمانون.

- قالت: زد فمثلك زاد فتمم.

- قال: مئة واعلمي أنها غنم.

- قالت: معاذ الله أيها الأمير أنت أجود جوداً وأجوداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً.

- قال: فما هي ويحك يا ليلى؟

- قالت: مئة من الإبل برعاتها فأمر لها بها.

- ثم قال: ألك حاجة بعدها؟

- قالت: يدفع إلي النابغة الجعدي.

- قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائداً بعبد

الملك فأتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فأتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة بقومس ويقال بحلوان.

٨- مناظرة الإمام أبي عبيدة واصل بن عطاء

قصة المناظرة في كتاب الطبقات للدرجيني

وهذا نصها كما جاء في الطبقات: "وحكى بعض أصحابنا أن واصل بن عطاء المعتزلي صاحب عمرو بن عبيد كان يتمنى لقاء أبي عبيدة، ويقول: لو قطعته قطعت الإباضية، قال: فبينما هو في المسجد الحرام ومعه أصحابه، إذ أقبل أبو عبيدة ومعه أصحابه، فقيل لواصل: هذا أبو عبيدة في الطواف، قال: فقام إليه واصل فلقيه، وقال: أنت أبو عبيدة؟ قال: نعم، قال: أنت الذي بلغني أنك تقول: إن الله يعذب على القدر، فقال أبو عبيدة: ما هكذا قلت، لكن قلت: إن الله يعذب على المقدور، فقال أبو عبيدة: وأنت واصل بن عطاء؟ قال: نعم، قال: أنت الذي بلغني عنك أنك تقول: إن الله يُعصى بالاستكراه، قال: فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء.

ومضى أبو عبيدة، وأقبل أصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون: كنت تتمنى لقاء أبي عبيدة، فسألته فخرج وسألك فلم تجب؟! فقال واصل: ويحكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وأنا قائم، فلم أقعد ولم أبرح مكاني" ١.هـ (انظر: أبو العباس الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ٢/٢٤٦).

الباب الثاني عشر

الرسائل في العهد الأموي

الباب الثاني عشر

الفصل الأول

رؤيا في رسائل العصر الأموي

تعد الرسائل الخاصة والعامة وثائق على الماضي، تكشف عن طريقة تفكير الناس في العصر الذي كُتبت فيه، فقد كان الخلفاء يديرون دولهم من خلال قضايا كثيرة وأدوات مختلفة منها الرسائل.

وعاشت الدولة الأموية حالة من الاستقرار إلى حد ما شهد خلاله النثر الأدبي تنظيماً رائعاً، نشراً قطف فن الرسائل ثماره، فازدهرت الكتابة الترسلية بسبب ازدهار حركة الخط والكتابة بحيث غطت اهتمامات الحكام والرعية والكتاب.

وقد كان للخلفاء والولاة كتاب للرسائل يكتبون الرسائل ويردون على الرسائل القادمة إليهم.

وللترسل في العصر الأموي موضوعات متعددة في العهد، والحرب والدين والاقتصاد والمجتمع والموضوعات الشخصية الخاصة.

ففي السياسة كتب الخلفاء الرسائل إلى أولياء العهد، وأهل بيوتهم، وإلى الولاة والعمال، كالأمر بأخذ البيعة وتزويد العمال بالأوامر والتوجيهات السياسية واللوم والتوبيخ) وكتب الخلفاء إلى معارضيتهم في الحكم في (الاحتجاج والجدل وطلب البيعة، والترغيب والترهيب والأمان) وكتبوا إلى الرعية في (التهديد والوعيد وتبيين أسس السيرة في الرعية وطلب البيعة وبيان الوضع السياسي)، وكذلك كتب أولياء العهد والعمال والولاة إلى الخلفاء في (بيان الوضع السياسي، والتنظير السياسي، وتحديد أسس السيرة في الرعية والتهنئة والتعزية والاستئذان وطلب الرأي واللوم والخلع والتهديد).

وكتبت المعارضة إلى الخلفاء والولاة والعمال في الاحتجاج والطعن في بني أمية وبيان سوء سيرتهم في الرعية، والتفريع والتوبيخ والتهديد والوعيد، وطلب البيعة والطاعة والموادعة

والاعتذار عن المتابعة، وتكاتبت المعارضة فيما بينهم في تحليل نفسية الناس حول الصراع السياسي والدعوة إلى التأييد والموادعة والشكر والثناء، وكتبوا إلى الرعية في (الوفاء بالبيعة والدعوة إلى التأييد وإجابة الدعوة للإمامة) وكذلك كتبت الرعية إلى الخلفاء في (التهنئة والتعزية وطلب النجدة) وإلى المعارضة (بإعلان التأييد والمتابعة وطلب الإمامة).

وفي حالة الحرب كتب الخلفاء إلى أولياء العهد وإلى الولاة والعمال برسائل تزودهم بالأوامر والتوجيهات الحربية والتولية والعزل والتقريع والتوبيخ، وتسيير المدد وطلب المعلومات وكتبوا للرعية (بالثناء والطمأنينة والتبشير بالنصر والظفر) وكتب الولاة والعمال والقادة إلى الخلفاء (ببيان الوضع الحربي وطلب المدد والتنظير الحربي والتبشير بالنصر والظفر) وكتبوا للرعية (بالتذكير بالجهاد وطاعة ولي الأمر وإصدار الأوامر) وكتبت المعارضة للولاة والعمال بمعارضتهم وتحديدهم وإلى الرعية بالدعوة والخروج على الخليفة والتحريض على الجهاد).

وكتب الخلفاء في الإحسان والفضاظة وإلى أولياء العهد والرعية (ببيان وجوه الأحكام والزهد والوعظ والوصايا) إلى الرعية؛ وكتبت المعارضة إلى الرعية (بالوعظ والتذكير والخروج للجهاد ضد الخليفة) بينما كتبت الرعية إلى الخلفاء (بالوعظ والتذكير بالوصايا وبيان وجوه الأحكام) وكذلك كتب الخلفاء والولاة في الإدارة والاقتصاد والمجتمع، والحديث في ذلك ذو شجون كثيرة.

وأكثر ما كتبت الرسائل في الموضوعات الشخصية الخاصة (كالتهاني والتعازي، والوعظ والتذكير، واللوم والعتاب، والتقريع والتوبيخ، والاعتذار والاسترضاء، والشفاعة والاستعطاف، والشكر والثناء، والتشوق والاستزارة، والتودد والملاطفة، والشكوى والمطارحات، والتنبيه والتحذير، والمواساة، والإخبار عن الأحوال، وطلب الحاجات، والتهادي من خلال الإهداء والاستهداء، والألغاز، وبيان طبيعة الإخاء، ووصف المطر والأرض والمعارك والسلاح والصيد).

الباب الثاني عشر

الفصل الثاني

الرسائل الشخصية والخاصة

في العصر الأموي

احتلت الرسائل في العصر الأموي مكانة الصدارة، وأصبحت الفن الأهم في حياة الخلفاء والولاة والرعية، ولكنها في حياة الأشخاص والخاصة من الأدباء كانت بمكانة الروح من الجسد، وأصبح لها الأولوية في أشكال الخطاب الأدبي.

أولاً- فقد انتشرت الرسائل الشخصية:

في العصر الأموي بمختلف موضوعاتها التي ذكرت قبل ذلك، والتي تمثل مختلف فئات المجتمع (حكماً ورعية) وميزاتها أنها:

- ١- تتوجه من فرد إلى فرد.
- ٢- مضمونها قضايا شخصية خاصة.
- ٣- لا تتصل بموضوعات الرسائل الديوانية.
- ٤- تتناول موضوعاتها الصلات الاجتماعية والنفسية.
- ٥- أنها ذات طابع ودي أحياناً وطابع فظاظة أحياناً أخرى.

ثانياً- موضوعات الرسائل:

١- رسائل التهاني والتعازي: عندما تحصل نعم معينة أو مصائب معينة:

أ- ومن ذلك رسالة بعث فيها الضحاك بن قيس إلى يزيد بن معاوية تعزية بموت أبيه معاوية وتهنئة بتوليته الخلافة: ((الحمد لله الذي لبس رداء البقاء، وكتب على عباده الفناء فقال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦- ٢٧] أما بعد فهذا كتابي إلى أمير المؤمنين تهنئة وكتاب مصيبة، فأما التهنئة فالخلافة التي جاءت عفواً، وأما المصيبة فموت أمير المؤمنين معاوية فإننا لله وإننا إليه راجعون)).

ب- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الله بن عتبة يعزيه عن موت أبيه ويقول: ((إنا قوم من أهل الآخرة سكننا الدنيا، أموات أبناء أموات، فالعجب كل العجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت)).

٢- رسائل التوعظ والتذكير: بالحق والرجوع إليه ومخافة الله وتقواه من ذلك ما كتبه الحسن البصري إلى مكحول بن عبد الله أحد فقهاء الشام، وقد اتصل بالحسن خبر موته، ثم جاءه خبر ينفي ذلك عنه: ((أنا عنك ما راعنا، ثم أتى بعده ما أكذبه فلعمري لقد سررنا، وإن كان السرور بما سررنا به وشيك الانقطاع ذاهباً عما قليل إلى الخبر الأول، فهل أنت - عافاك الله ووقفنا وإياك لصالح الأعمال - إلا كرجل ذاق الموت وعاین ما بعده، وسأل الرجعة، فأجيب إليها، وأعطي ما سأل بعدما عين ما فاته فتأهب في نقل جهازه إلى دار قراره، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدّم أمامه، ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه)).

٣- رسائل اللوم والعتاب: فيما يقع بين الناس خلاف وخاصة الأعراف والأصدقاء من خلال مكاشفة تدعو إلى الإصلاح من ذلك ما كتبه يزيد بن عبد الملك إلى أخيه وولي عهده هشام بن عبد الملك: ((قد بلغني استثقالك حياتي، واستبطاؤك موتي، ولعمري إنك بعدي لو اهي الجناح، أجدم الكف)).

٤- رسائل التقرير رسالته: التي تقوم على ذكر المساوي والفحش بالكلام والسب والشتم من ذلك المكاتبه التي جرت بين سليمان بن عبد الملك وهو ولي للعهد والحجاج حين كتب سليمان للحجاج عدة كتب لم يجب عنها رسالة سليمان: ((لا تسكت عن قبيح، ولا ترعوي عن إساءة ولا ترجو الله وقاراً، حتى دعيت فاحشاً سباباً)).
رد الحجاج على رسالته: ((لعمري إنك لصبي حديث السن، تعذر بقله عقلك وحدائث سنك)).

٥- رسائل الشفاعة والاستعطاف: في طلب إطلاق سراح من سجن أو مرسل له قد حجزه الوالي أو غير ذلك، ومن هذه الرسائل رسالة عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك يتشفع بها لرجل يدعى كعب العسبي قد أذنب مع الوليد بن عبد الملك.

أ- رسالة عروة بن الزبير ((لو لم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب، واستشفع بي إليك، فوثقت له منك بعفوٍ لا يخالطه سخط، فحقق أمله فيّ، وصدق ثقتي فيك تجدد الشكر وافيةً بالنعمة)).

ب- رسالة الوليد بن عبد الملك بعد أن قبل الشفاعة: ((قد شكرت رغبته إليك، وعفوت عنه لمعولّه عليك وله عندي ما يجب، فلا تقطع كتبك عني في أمثاله وسائر أمورك)).

٦- رسائل الشكر والثناء: كرد فعل على كل نعمة يقدمها شخص لآخر أو يد بيضاء له عليه معروف له، من ذلك ما كتبه سالم مولى هشام إلى بعض إخوانه معبراً عن عميق شكره له: ((قد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إليّ منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك)).

٧- رسائل التودد والملاطفة: وذلك لتجيب المكتوب إليه بكتاب الرسالة لجعل المودة حاصلة في القلوب.

- ومن ذلك ما كتب به هشام بن عبد الملك إلى ابن عمر بن سعيد بشأن تعرّض خالد القسري له، إذ كتب إليه يقول: ((فكاتب أمير المؤمنين فيما لك مبتدئاً ومجيباً ومحادثاً وطالباً ما عسى أن يُنزل بك أهلك من أهل البيت أمير المؤمنين من حوائجهم التي تقعد بهم الحشمة عن تناولها من قبله، غير محتشم من أمير المؤمنين ولا مستوحش من تكرارها عليه مستمنحاً ومستمدداً وطالباً ومستزيراً تجد أمير المؤمنين إليك سريعاً بالبر لما يحاول من صلة قرابتهم وقضاء حقوقهم)).

٨- رسائل الشكوى والمطارحات: لما يحل بالإنسان من هموم ومشاكل وعوارض سيئة، ومن ذلك ما كتبه أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشكو إليه تطاول الحجاج عليه ويستنصره ويقول: ((إنّ الحجاج قال لي نكراً، وأسمعني هُجرأ، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذلني على يديه وأعدني عليه)).

٩- رسائل في التنبيه والتحذير: من غضب الخليفة أو غيره من الولاة، فقد غضب عبد الملك على موسى بن نصير وطلب من الحجاج أن يأخذ على يديه فعلم بذلك موسى بن أبان، فكتب من الشام إلى موسى يحذره: ((إنك معزول، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف، وقد أمر فيك بأغلظ الأمر فالنجاة النجاة، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكّم فيك)).

١٠- رسائل المواساة: فيما يشق على الإنسان من هموم أو أمراض أو غير ذلك، ومن هذا النوع من الرسائل ما كتبه الحجاج إلى عبد الملك حتى بنى كلاهما بايين من أبواب المسجد الأقصى فضربت صاعقة باب عبد الملك، فأحرقته ولم تصب بباب الحجاج أي أذى، فتطير عبد الملك ((ليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه، وما مثلي ومثله إلا كابني آدم إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر)) ملمحاً إلى قصة هابيل وقابيل.

١١- رسائل الإخبار عن الأحوال: كالتعبير عن البهجة والسرور أو الحزن والأسى، ومن ذلك ما كتبه عبد الحميد الكاتب إلى أحد إخوانه معبراً عن سروره بمولوده الأول: ((وأملت ببقائه بعد حياة ذكرى وحسن خلافتي في حرمتي وإشراكه إياي في دعائه شافعاً لي إلى ربه عند خلواته في صلواته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك بي وجددي وظهر به سروري)).

١٢- رسائل في طلب الحاجات: فقد طلب سليمان بن هشام إلى أبيه يقول: ((إن بغلتي قد عجزت عني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بداية لي فعل)).

١٣- رسائل التهادي: تعبيراً عن المودة والمحبة بين الأصدقاء والإخوان والأهل، فقد كتب الحجاج إلى عامل له بفارس يستهديه عسلاً: ((ابعث لي عسلاً من عسل خلار من النحل الأبقار من الدستعيثار الذي لم تمسه النار)).

١٤- رسائل الأثغاز: التي تدور موضوعاتها على التورية والتعمية والتعريض بالعرض، ومن ذلك ما كتبه عبد الملك إلى الحجاج حين دحر ابن الأشعث وهزمه: ((مالك عندي مثل إلا قدح ابن مقبل)) وهذا القدح قد فاز تسعين مرة لم يحب فيها واحدة.

١٥- رسائل في الوصف للطبيعة والحيوان: والرمح، والسلاح والصيد وكل ما تقع عليه عين الواصف كتب الحجاج إلى عبد الملك كتاباً يذكر فيه هيئة الأرض المتربة المغبرة المقشعرة، ومن ذلك رسالة المهلب إلى الحارث بن عبد الله المخزومي عامل ابن الزبير على البصرة يصف موقعة (سلى وسلبرى) مع الخوارج ((فاقتلنا ساعة رميماً بالنبل وطعننا بالرمح، ثم خلص الفريقان إلى السيوف، ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المؤمنين وضرب وجه الكافرين)).

الباب الثاني عشر

الفصل الثالث

الخصائص الفنية للرسائل

في العصر الأموي

اتبع الأمويون في كتابة رسائلهم منهجاً معتمداً في كتابة الرسائل على وجه العموم تمثل في ((البسمة، العنوان، التحية والسلام، التحييد، التخلّص، الختام، التذييل، الملاحق (نص بيعة أو شهادة أو شعر)).

فالرسالة تبدأ بالبسمة (بسم الله الرحمن الرحيم).

ثم العنوان (من فلان إلى فلان).

ثم التحية (السلام عليكم ورحمة الله).

ثم التحييد (الحمد لله رب العالمين).

ثم التخلص (الفصل) (أما بعد).

ثم الختام (آخر الرسالة).

الملاحق (بيت شعر، شهادة، بيعة).

((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين من فلان إلى فلان السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد: فيني أطلب كذا أو لا أرغب بكذا)).

وقد كانت الرسائل في هذا العصر قصيرة إلا أنها اعتمدت بعد في: (التطويل وتكرار التحييدات والتعمق بها بذكر صفات الله تعالى) وقد تميز أسلوب الرسائل في العصر الأموي بسماة عدة تمثلت في:

١ - السجع كقولهم: (من لم يؤمن بالله وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر)، (قد كفرت النعمة واستدعيت النعمة)، (إن الرفق رشد والخرق نكد)، (إن بايعت تشكر وإن

تأبّ تجبر)، (بلغني أنك توجهت إلى العراق وإني أعينك من الشقاق)، (لذتها نافذة ونعمتها بائدة)، (رزق عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة).

٢- الازدواج: وهو مجيء فاصلتي قرينتين نثريتين متواليين أو أكثر في الوزن الصرفي من غير اشتراط مجيء السجع مثل: (إنك دسست إلى الرجال كأنك تحبّ اللقاء)، (أنا أحب لك القول السديد والذكر الحجيل)، (إنكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبه، إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم بها حسنة)، (ويحكمون بعدله، ويوقدن بعدله)، (وخيل تدع الديار خراباً والسوار بياضاً)، (الدنيا أيقظت النائم ونهت الغافل).

٣- الطباق: لجلاء المعنى بإبراز ضده ومثاله: (أطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت)، (إن رسول الله ﷺ أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه وصغيره وكبيره)، (وتكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرافة والرحمة)، (إن رضيتم دفعه إليكم وإن كرهتم أدننكم بحرب)، (حَسُنَ عندك قبحه واحلولى مرّه)، (نقدم ويحجم، نحلّ ويرتحلون).

٤- الموازنة: وتعني الاتفاق التام بين قرينتين متوليتين أو أكثر (أظهرت حبرة وأضمرت عبرة)، (عاش حميداً ومات سعيداً)، (ولا تشكر في السراء ولا تصبر في الضراء).

٥- المقابلة: باستعمال كلمتين في قرينه بمعنى ما، ثم يأتي بقرينة تالية على استعمال كلمتين كل منهما طبعاً أو عكس ومثاله: (لو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب)، (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)، (قتل خيارها واستبقى شرارها)، (إن السنّة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت)، (سيان عنده منع حق إعطاء باطل).

٦- الترادف: وهو وقوع قرينتين كما المعنى وبسطه ومن أمثلته: (حسن عندك قبحه، واحلولى عندك مرّه)، (وأمر المؤمنين أحق من قال: عشرتي، وعفا عن ذنبي)، (وأن الليل والنهار سريعان في طي الأجل، ونقص العمر)، (لا تسلع المتكبرين على المستضعفين فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك)، (أبت القلوب لها إلا حباباً، وأبت النفوس لها إلا عشقاً).

٧- التشبيه: القائم على التصوير والتجسيد لإبراز المعنى في وضوح وقوة ليرسخ في الذهن، ومن ذلك ما قاله زياد معاوية: (وجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة) و(ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره) و(كالمحير بمهمة ضلّ بهن الدليل) و(تطلب ابن عقيل كطلب الخرزة) و(أنت لليتيم كالأب الرحيم وللضعيف كالأخ البرّ) و(لاق عصابة خلعتك من حبالها خلعتها نعالها) و(إن أهل العراق أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علّ، ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره) و(الإمام العادل كالراعي الشفيق على إبله) و(وكالأب الحاني على ولده) و(كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها) و(كالقلب بين الجوانح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده) و(الدنيا كالسم يأكله من لا يعرفه، وفيه حتفه) و(كالعروس المجلّوه فالعيون إليها ناظرة، والقلوب إليها واهة) و(كمثل الحية لين ملمسها تقتل بسمّها) و(إني وإياك كالزجاجة والحجر).

٨- التكرار: وهو إعادة لفظ بعينه أو مشتقاته أو جملة بحالها عدة مرات، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في سورة الرحمن والقمر، ومن أمثله في الرسائل (العجل، العجل)، (نحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق)، (يا غوثاه، يا غوثاه)، (النجاة، النجاة)، (الوحي، الوحي)، (الزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق).

٩- الكتابة: ظاهرة أسلوبية تقوم على بناء معنوي خفي يلمح من الجملة ولا يصرح به، وهو كتابة عن صفة أو موصوف أو نسبة ومثاله (وإلا اختطفتك بأضعف ريش)، (لو فعلت لقلبت لك ظهر المجن)، (وإلا أشرعت إليك صدر الرمح)، (تركت من حضر لا أهل ورد ولا صدر).

١٠- الاستعارة: وهي ظاهرة أسلوبية تصور بالكلام قضية من القضايا بالتحسين المعنى وتجسيده في صورة مادية محسوسة، ومن أمثله: قال عمر بن عبد العزيز: (إذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل ونقّ طرفها من الظلم)، (إني أيقظت رأبي وأنمت هواي)، (إن الله قد أطفأ النائرة).

١١- التمثيل: وهو أسلوب يدل على معنى غير مصرح به فهي مركبة والتشبيه بسيط، ومن أمثله كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد في طلب البيعة بعد ترده بها: (إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت)، و(إن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء) و(قوة طباع السوء كامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد).

١٢- صحة التقسيم: وذلك بتغطية جميع أقسام الموضوع أو الفكرة المطروحة مثال: في مال أهل حرب إنهم صاروا: (بين قتيل وأسير وطريد وشريد) و(نحن القوم على حاله، وهم يرقون منا حالات: إن طعموا حاربوا، وإن ملّوا وقفوا، وإن يئسوا انصرفوا وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ونتحرّز إذا وقفوا ونطلب إذا هربوا).

١٣- التناظر (المساواة): بحيث يتقابل بها عنصران يشترك كل منهما في حكم واحد في إحدى حالتي السلب أو الإيجاب، ومن أمثله: (ساعني والله ما ساءك) و(متى تكديني أكدك) و(له ماله وعليه ما عليهم).

١٤- الجناس: ظاهرة موسيقية إيقاعية ذات وظيفة على مثالها: (لا توافق وفقاً ولا ترافق رفقاً) و(من صائح بها وناصر وهاتف بها وناقص).

الباب الثاني عشر

الفصل الرابع

أسس أساليب الرسائل في العصر الأموي

أ- تقوم الأساليب للرسائل في العصر الأموي على:

الإيجاز والإطناب طولاً وقصراً في الرسائل.

الوضوح في المعاني ووضوح في معاني الكلمات.

العفوية والتروي من غير تكلف ولا تعمل ولا بحث مقصود.

الفصاحة في الكلمات والكلام.

التناسك وقوة التأليف.

التكثيف بحشد جملة من الظواهر الأسلوبية في قرينة واحدة أو قرينتين متواليتين كالجناس

والطباق معاً.

ضعف التصوير بسبب تراجع الملكات الفطرية وضعف السلائق خلال: انتشار اللحن

بين الناس.

ب- أما المعاني فقد كانت مستمدة من مصادرها الخارجية من خلال:

الاقْتِباس.

التضمين.

حل النصوص الأخرى.

التلميح لقصة معينة أو حادثة مشهورة فقد أخذ كتاب رسائلهم من القرآن الكريم

والحديث النبوي الشريف ومن حل نصوص الآخرين والتلميح إلى قصص أخرى، ومن

الأمثال والحكم المعروفة الرسائل، والأقوال المأثورة ومن أجزاء الرسائل، وكذلك السجع

مستمدة من مصادرها الذاتية من خلال (قوة النفس أو الشخصية وسعة الثقافة وغزارة

التجارب وكثرة الاطلاع).

الباب الثاني عشر

الفصل الخامس

المذاهب الفنية في رسائل

العصر الأموي

اعتمد كتاب الرسائل في العصر الأموي مذاهب ومدارس وتيارات عدة منها:

١- مذاهب السجع: فهو الحلية الأولى الفنية بحيث تحولت إلى مذهب فني شمل معظم رسائل العصر الأموي.

٢- مذهب الإرسال: والتلميح: إهمال السجع إهمالاً تاماً من الرسائل.

٣- مذهب الإشارة والتلميح: إلى بعض الشخصيات أو الأحداث أو الأشعار أو القصص أو الأخبار والأقوال المأثورة والوصايا من غير تصريح ملامساً حدود الإلغاز والغموض والإيجاز والتعمية.

٤- مذهب الإغراب والتعير حيث عزف فيه أصحاب الرسائل على وتر الألفاظ الغريبة والحوشية أو الوحشية من خلال تكلف التعبير عن المعاني القريبة بطرق متوعرة ومتلوية وبعيدة لإظهار القدرات اللغوية أحياناً.

٥- مذهب الرمز: والتعمق المعنوي من خلال معالجة المعاني بشيء غير قليل من التجريد والارتقاء إلى عالم معنوي خالص لا أثر فيه لتجسيد مادي.

٦- مذهب الرمز: من خلال استعمال إشارة أو لفظة أو صورة معينة للتعبير عن معنى معين أو حالة أو حدث ما بدلاً من التعبير المباشر.

الباب الثاني عشر

الفصل السادس

قضايا كتاب الرسائل في العصر الأموي

لم يكن من الميسور أن يكون أي واحد من الناس كاتباً للرسائل التي تتطلب مستوى مقبولاً من الفن وروعة الحسابة، ذلك أن المعاني والرد على الرسائل الأخرى خاصة مهمة صعبة؛ ومن هنا فإن كتاب الرسائل أصبحوا ذوي صناعة ومهنة خاصة بهم، وقد اشترط في كتاب الرسائل في العصر الأموي:

الثقافة التخصصية والعامة لكاتب الرسائل، وذلك بالتعمق بالمعارف والعلوم الإسلامية ومعارف وآداب اللغة العربية والمعارف التاريخية والمعارف الحسابة.

اختيار الكتاب وتحريرهم: من خلال مزايا خاصة تؤكد على الكفاءة وإتقان الخط من خلال ملازمة الدواوين والتدرب على أعمالها.

الصفات الأخلاقية والسلوكية كالفضل والأمانة والعقل والوداعة والكتان والإسلام والحلم والفهم والإقدام والإحجام والعفاف والإنصاف والوفاء والعطف والمواساة.

الباب الثاني عشر

الفصل السابع

الرسائل الأدبية في العصر الأموي

الرسالة الأدبية

١- مقدمة:

ظهرت الرسالة الأدبية في أواسط العصر الأموي، وتمثلت في رسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب (رسالته إلى الكتاب، رسالة في الصيد، رسالة في الإخاء، رسالة في الشطرنج، رسالته إلى ولي العهد) وفي رسائل ابن المقفع الأدبية والسياسية والأخلاقية، وقد جاءت هذه الرسائل لتعبر عن طاقات الأدباء الفكرية والعاطفية، فاحتلت مكانة بارزة في أدبنا، وذلك لقدرتها على استيعاب المعلومات الوافرة والموضوعات الجديدة ومنهجها يعتمد على (البسملة، التحميد، والصلاة على النبي، ثم ذكر الموضوع ضمن أسلوب مشرق تمتع حسن التقسيم والتفريع).

وظهر في العصر الأموي نوع جديد من الرسائل صبغ بالصبغة الأدبية وتسمى بها، وذلك بعد ميل كتاب الرسائل إلى تطويل الرسائل كي يساعد في استيعاب قدر واسع من المعلومات في موضوع من المواضيع، وأصبحت الرسالة الأدبية تتحدث عن موضوعات شتى كوصف الصيد والوصايا وأول من كتب رسائل في الوصف (أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الأصفر) وقد تناول الأدباء في هذه الرسائل موضوعات متعددة، وتتميز الرسائل الأدبية في العصر الأموي بشكلين:

١- شكل مستقل: تمثل شكل الرسالة الترسلية المعروفة من خلال: (البسملة، التحميد لله

تعالى، الصلاة على النبي ﷺ، الموضوع، سبب الوضع، الخاتمة، التذييل).

٢- وشكل مستقل: يراعي الخصائص الأساسية السابقة في الشكل المستقل مضيفاً لذلك

(الطول، العمق، التشعيب).

فجمعوا رسائل في اللغة والمذاهب والفرق والجدل والاحتجاج والتفسير بحيث أخذت طابعاً موسوعياً، فاستعمل الأدباء واللغويون والمؤرخون والنقاد والفهاء والبلاغيون الرسالة لتوصيل أفكارهم.

ب- رسالة عبد الحميد الكاتب للكاتب:

إليكم معشر الكاتب:

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووقفكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصر فهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم.

فجعلكم معشر الكاتب في أشرف جهات أهل الأدب والمروءة والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، ويعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون، وألستهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

أيها الكاتب: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجاماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف كتوماً للأسرار، وفيأ عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها والطوارق أماكنها، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعدّ لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته.

فتنافسوا يا معشر الكتاب صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها وسفساف الأمور ومحارها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربوؤا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وإن نبا الزمان برجل منكم، فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمداً فلا يعرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فيحملها هو من دونه، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء وهو لكم أفسد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء حقه، ويصدق ذلك فعله له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالتي الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة.

وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله أمر، فليرقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رقيقاً، وللمظلوم منصفاً فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكماً وللاشراف مكرماً وللنبيء موفراً وللبلاد عامراً، وللرعية متألماً، وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه واستقصاء

حقوقه دقيقاً وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلأته، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافق من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمه إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجمها إذا ركبها وإن كانت شوباً أتقأها من بين يديها وإن خاف منها شروداً توقأها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع هواها برفق في طريقها، فإن استمرت عطفها يسيراً فيساس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم.

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاول من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه، ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمه التي لا تفقه جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستئقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله، ولا تجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه، فإنكم مع ما فضلكم به الله من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحمل منكم أفعال التضييع والتبذير.

واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متآلف السرف وسوء عاقبة الترف فإنها يعقبان الفقر ويدلان الرقاب ويفضحان أهلها ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب، وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها واعلموا أن للتدابير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته، فليقصد الرجل في مجلسه قصد الكافي من منطقته، وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل من إكثاره.

وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضرب ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل: إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف، ولا يقل أحد منكم أنه أبصر بالأمور، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الأبواب من رمى بالعجب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأجمل في طريقته.

وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله عليه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره أو صاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته.

تولانا الله وإياكم معشر الكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الحميد الكاتب
المتوفى سنة ١٣٢ هـ

الباب الثاني عشر

الفصل الثامن

الموضوعات الشخصية الخاصة

لم تكن الرسائل الشخصية في العصر الأموي قليلة؛ لأن هذا العصر كان يعج بالحركة والاضطراب، فكانت مزدهرة فيه كل الازدهار ومنتشرة على نطاق واسع، وقد اهتم القدماء بهذه الرسائل وبينوا لنا أبرز موضوعاتها التي تدور حولها فذكر القلقشندي (م ٨٢١ هـ) منها على سبيل المثال: (التهاني والتعازي والتهادي والشفاعات والتشوق والاسترضاء والاعتذار والشكوى واستمache الحوائج والشكر والعتاب والذم والإخبار والمداعبات...) وهذه الموضوعات كما نرى موضوعات اجتماعية عاطفية تتصل بحياة الأفراد وعلاقاتهم الخاصة فيما بينهم، وكان من الطبيعي نفسياً أن تتسرب هذه الهموم الشخصية إلى كتب أهل العصر بها على نطاق واسع غير أن ما وصل إلينا من آثارها كان قليلاً جداً.

وقد وصلت الرسائل في هذا العصر إلى ستمئة لارتباطها بالشخصيات التاريخية البارزة أو بالأحداث المهمة أو بالأخبار الطريفة آنذاك، وهذه الرسائل الشخصية لا ترتبط بفئة معينة من فئات المجتمع حكماً أو رعية، وإنما تنتمي إلى أفراد من مختلف المستويات والمواقع الاجتماعية في ذلك العصر بدءاً من الخلفاء في القمة وانتهاء بأفراد الرعية العاديين في قاعدة ذلك المجتمع، وتتميز هذه الكتب بأنها:

- ١- موجهة من فرد إلى فرد آخر بعينه.
- ٢- يدور مضمونها حول قضايا شخصية خاصة قائمة بينها.
- ٣- لا تتصل بموضوعات الرسائل الديوانية العامة.
- ٤- تتناول موضوعات تم الصلات الاجتماعية والنفسية بين أبناء المجتمع الواحد سواء كانت هذه الموضوعات:

- أ- ذات طابع ودي بين الأصدقاء والأقارب والمعارف.
- ب- مشوبة بالخشونة وإغلاظ القول والفظاظة في الخطاب بين المتبوعين وأتباعهم أو بين الخصوم.
- هـ- موضوعات هذه الرسائل كثيرة متنوعة.

الباب الثاني عشر

الفصل التاسع

نماذج من الرسائل في هذا العصر

رسائل شخصية

أ- في التهاني والتعازي

لما كانت الحياة مليئة بالرغائب والنعم فقد كان تحصيل شيء منها يستدعي التهنة والغبطة، ويقابل ذلك ما فيها من المصائب والغير التي يستدعي حلولها في النفس أو المال أو البدن مواساتها في التعزية، ومما أثر من تهاني العصر الأموي وتعازيه البارزة في الكتب الشخصية ما كتب به الضحاك بن قيس إلى يزيد بن معاوية حين تولى الخلافة بعد موت أبيه إذ يقول:

(الحمد لله الذي لبس رداء البقاء وكتب على عباده الفناء، فقال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَبَيَّتَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦-٢٧] أما بعد فكتابي إلى أمير المؤمنين كتاب تهنة ومصيبة، فأما التهنة فالخلافة التي جاءت عفواً، وأما المصيبة فموت أمير المؤمنين معاوية فإننا لله وإنا إليه راجعون).

ونلاحظ أن الضحاك قد مهّد لتعزيتته في هذا الكتاب بالتسليم لقضية الفناء من خلال ما أمضى الله في كتابه العزيز من سنة على البشر أجمعين بلا استثناء إذ لا خلود لأحد سوى الله تعالى الذي لا يولد ولا يفنى، ثم قرن تعزيتته عن فجيعة الفقد بتهنة يزيد بتوليته بمنصب الخلافة بأيسر سبيل بوصفه ولي العهد المبايع له من قبل أغلبية المسلمين في حياة أبيه وذلك كله؛ لأن المقام كان يتطلب مثل هذه الازدواجية في الخطاب، ويعد الضحاك فيما يروى أول من عزى وهناً في مقام واحد، وسنرى قيمة هذا الكتاب المعنوية وأثره في الشعراء خاصة في باب لاحق بعون الله تعالى.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الله بن عتبة بعزبه عن أبيه ويقول: (إنا قوم من أهل الآخرة سكنا الدنيا أموات أبناء أموات فالعجب كل العجب لميت يكتب إلى ميت يعزبه

عن ميت) فقد حاول عمر أن يعزي الرجل بأن يذكره بمسلمة لا جدال فيها ليعلمه أن ما جرى قد تم وفق القاعدة الإلهية والسنة الطبيعية لكل مخلوق إذ كيف تبقى الفروع مهما امتد بها الزمان إذا ما اقتلعت الجذور والأصول، وإن كل ما له بداية لابد أن يكون له نهاية ينتهي إليها.

وكتب عمر أيضاً إلى ميمون بن مهران رداً على تعزيتة عن ابنه عبد الملك بن عمر فقال: كتبت إلي تعزيتي عن ابني عبد الملك وهو أمر لم أزل أنتظره، فلما وقع لم أنكره).

وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك عن امرأة من حظاياها اخترمتها يد المنون فشبهه هذه المرأة بالعارية المستردة التي منحها الله تعالى إياها ليتمتع بها إلى حين، ثم استردها منه، وعبر عما له عند الله تعالى من الأجر في الحالين حال شكره إذ منحها إياها وحال صبره على ذهابها إذ قبضها فقال: (إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مده إلى أجل مسمى، فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض إليه العاربة، ثم أعطر أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفس منها في المنقلب وأرجح في الميزان وأسنى في العوض، فالحمد لله رب العالمين وإنا لله وإنا إليه راجعون).

وكتب أيضاً عن مروان إلى هشام كتاباً في مولودين ولداه، فهلك أحدهما وبقي الآخر سائلاً إياه شكر الله على النعمة بمن أبقى والصبر على النكبة بمن هلك.

وكتب مروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد حين تولى الخلافة بعد موت عمه هشام بتهنتته في رسالة طويلة بمثل قوله: (بارك الله لأمر المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده بوراثته بلاده، فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته ووثائق عرى دينه) ولن يعزّه عن عمه لما كان بينهما من كراهية.

ب- في الوعظ والتذكير

١- كتب شريح بن الحارث قاضي الكوفة إلى صديق له خرج إلى النجف مع الناس هرباً من وباء وقع في الكوفة، فذكره بقدرة الله تعالى على عباده حين تحين آجالهم أينما كانوا، من غير أن ينفعهم بعدهم في مد الأجل أو قربهم في تعجيله، فقال في بعض كتابه: (إن المكان الذي خلفته لا يعجل لأحد حمامه، ولا يظلمه أيامه، وأنا وإياك لعل بساط واحد وإن النجف من ذي القدرة لقريب).

٢- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل يوصيه (بتقوى الله وبأن يقدم ما استطاع من ماله إلى دار قراره؛ لأن الموت وشيك وما بعده آت لا محالة بكر الليل والنهار وتعاقبها وفعل الليل والنهار أو الجديدين للناس أمر مسلم به لا ينكره أحد، ولذا فإن النتيجة المبنية عليه صحيحة مسلم بها أيضاً، ومادام الأمر كذلك فعلى المرء أن يتزود لآخرته بما قدره من الزاد، كما يتزود المسافر في الدنيا من مكان إلى مكان بما يعينه على طريقه وحله وترحاله في سفره وعلى رأس واد المسافر إلى الآخرة.

(تقوى الله) وما ينتج منها من عمل صالح يشمل تسخير الأموال وغير الأموال في كل عمل ينطوي تحت اسم الصلاة.

٣- وكتب عمر بن عبد العزيز أيضاً إلى رجل يذكره بحتمية الموت فيقول: (يا أخي إنك قد قطعت عظم السفر وبقي أقله وإياك أن تغرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له).

٤- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته بعظه ويذكره فيقول: (إنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كل فان وحبب إليك كل باق، والدنيا فانية بما فيها من متاع فلا مجال لودها والآخرة دار باقية خالدة فيها النفس تولع وتتمسك من حيث النتيجة).

٥- وكتب عمر بن عبد العزيز أيضاً إلى رجاء بن حيوة يقول مزهداً إياه في متاع الدنيا: (من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير).

٦- وكتب عمر بن عبد العزيز حين تولى الكتابة إلى ابنه عبد الملك وكان في المدينة بوصيه وبنصحه وبعظه، ومما قال في ذلك (إن استطعت أن تكثر من تحريك لسانك في ذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلاً فافعل فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره).

٧- كتب الحسن البصري إلى مكحول بن عبد الله (م ١١٨ هـ) وهو أحد الفقهاء الأئمة بالشام في ذلك العصر، وقد اتصل بالحسن خبر موته، ثم جاءه خبر ينفي ذلك عنه، إذ يقول: (أتانا عنك ما راعنا، ثم أتى بعد ذلك ما أكذبه فلعممر الله لقد سررنا وإن كان السرور بما

سررنا به وشيك الانقطاع ذاهباً عما قليل إلى الخبر الأول، فهل أنت عافاك الله ووفقنا وإياك إلى صالح العمل إلا كرجل ذاق الموت وعاین ما بعده وسأل الرجعة فأجيب إليها وأعطي ما سأل بعد ما عاین ما فاتة، فتأهب في نقل جهازه إلى دار قراره لا يرى أن له من ماله إلا ما قدم أمامه ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه.

ج- في اللوم والعتاب

١- كان معاوية يغري بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص فكان يولي أحدهما على المدينة ويعزل الآخر ويأمر الجديد بقبض أموال سلفه، فكان سعيد يمتنع حين يتولى عن قبض أموال مروان، فلما أتى مروان - حين تولى مرة - كتاب معاوية بقبض أموال سعيد وهمم بذلك، أطلع سعيد مروان على كتب معاوية إليه بقبض أموال مروان حين كان والياً، وذكر أنه امتنع عن قبضها للقرابة والحرمة فكف مروان عنه.

٢- وكتب سعيد إلى معاوية في ذلك يلومه ويعاتبه في مثل قوله: (العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا إنه يضغن بعضنا على بعض وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء، وتوارث الأولاد ذلك فوالله لو لم نكن بني أب واحد إلا لما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان علينا أن نرعى ذلك).

٣- وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص يلومه على كلام بلغه عنه فقال يصفه (أذ أوله بطر وآخره خور ومن أبطره الغنى أذله الفقر)

٤- وكتب عبد الملك إلى بعض ولده، وقد خالفه في أمر فقال: (إني أمرتك بأمر فأتيت غيره ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصيائها وخفت أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أمر بشيء أباه، وإذا نهى عن شيء أتاه فيحتال له فيما ينفعه بأن ينهى عنه وفيما يضره بأن يؤمر به، ويا سوءتي لمن هذه حاله).

٥- وكتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه وولي عهده هشام يقول: (قد بلغني استقلالك حياتي واستبطاؤك موتي ولعمري إنك بعدي لواهي الجناح أجدم الكف).

٦- وكتب هشام إلى خالد القسري عامله على العراق عدة كتب مطولة يلومه بها على إفراطه في الدالة عليه ويعاتبه على أقوال ندت عنه في مجالسه تطاول بها عليه، ويذكره بما أنعم

عليه به من ولاية وشهرة ومال وشرف، وقال في بعض هذه الكتب: (قد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب الصنيعة قبلك واستتمام معرفته عندك، وكان أمير المؤمنين أحق من استصالح ما فسد عليه منك).

٧- وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى بعض أصحابه يلومه ويعاتبه لاختلاف حاله اليوم عما كانت عليه حين عرفه، ويصف ما في نفسه من عواطف نحوه ترجح بين اليأس والرجاء ويظهر تردده في أمر اطراحه أو صلته، ويعد هذا الكتاب من أجمل الكتب في التعبير عن الشك والحيرة في حقيقة الصداقة والوداد بين صاحبين، ويعد اللوم والعتاب موضوعاً من الموضوعات الداخلة في صميم عواطف المحبة والمودة بين الناس، ولولا هذه المحبة وتلك المودة لم يكن هناك لوم ولم يكن هناك عتاب أصلاً، وهو أول درجة من درجات المكاشفة بين الأصحاب والأصدقاء والأهل، فإن لم يجد نفعاً في إصلاح الحال ورتق الفتق انتقل إلى مرحلة أقسى وأشدّ وقعاً هي التقرّيع والتوبيخ التي تنذر بالقطيعة والهجر.

د- في التقرّيع والتوبيخ

١- كتب معاوية إلى زياد بن أبيه عامله على البصرة يقرعه ويوبخه حين علم برده شفاعة الحسن عنده لرجل من شيعته الداخلين أصلاً في أمان الصلح بينه وبين الحسن، ومن ذلك قوله: (علمت أن لك رأيين أحدهما من أبي سفيان والآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحلّم وحزم، وأما الذي من سمية فما يكون من رأي مثلها من ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه وتعرض له بالفسق ولعمري لأنت أولى بالفسق من أبيه).

٢- وكتب الحجاج إلى خالد بن عتاب بن وقاء الرياحي عامله على الري يشتم أمه لأمر ما ويعيره بمقتل أبيه على يد الخوارج بخذلانه إياه وفراره عنه فقال: (أنت الذي هربت عن أبيك حتى قتل، فلم يسكت خالد عن هذه الإهانة، بل كتب إليه يشتم أمه ويعيره بفراره (يوم الحرّة) هو وأبوه على جمل، ثم يسأله ساخراً (أيكما كان أمام صاحبه)).

٣- وكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً شديداً للهجة لتعرضه لأنس بن مالك الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وخادمه بالمدينة عشر سنين ولتطاوله عليه بالكلام، وقد تفكر عبد الملك يوماً في أمره وأمر الحجاج الذي اقترف في العراق من الجرائم ما يغضب الله فرأى أنه

مسؤول عن تأميره وعمله أمام الله تعالى يوم الحساب، فكتب إلى الحجاج يعلمه أنه عجز عن التماس العذر له في سيرته بالناس في الدنيا، وأنه في الآخرة أعجز، ثم راح يكيّل له ولأبيه ولجده ولآله الشتائم مستعرضاً تاريخ علاقته به منذ أن كان فرداً من أفراد شرطة روح بن زنباع إلى أن بلغ به ما بلغ من ولايات، ولعل الشك غالب في النفس على مثل هذا النوع من الخطاب.

٤- وكتب سليمان بن عبد الملك وهو ولي للعهد إلى الحجاج عدة كتب لم ينظر فيها الحجاج، فغضب سليمان عليه وكتب إليه كتاباً مليئاً بالتقريع الشديد على شاكلة قوله: (لا تسكت عن قبيح ولا ترعوي عن إساءة ولا ترجو الله وقاراً حتى دعيت فاحشاً سباباً).

٥- إلا أن الحجاج لن يسكت عن هذا الكتاب فأجاب سليمان بالمثل على شاكلة قوله: (لعمري إنك لصبي حديث السن تعذر بقلة عقلك وحادثة سنك).

٦- وكتب هشام إلى خالد القسري كتباً يقرعه بها ويوبخه توبيخاً عظيماً على فلتات لسانه التي بلغته عنه، ومن ذلك قوله في بعضها: (يا ابن أم خالد قد بلغني أنك تقول: ما ولاية العراق بشرف لي كيف لا تكون إمرة العراق شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة).

٧- وكتب هشام إلى الوليد بن يزيد ولي عهده بعد قطعه ما كان يجري عليه وعلى أصحابه من بعده يتهمه وإياهم بالسفه المفضي بهم إلى التوبخ.

هـ- في الاعتذار والاسترضاء

١- وقع شيء بين الحسين بن علي وأخيه محمد بن الحنفية فافترقا مغاضبين، فلما وصل محمد إلى بيته كتب إلى الحسين يقول: (إن لك شرفاً لا أبلغه وفضلاً لا أدركه فإن أمي امرأة من بني حنيفة وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما وفينا بأملك، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك وسر إليّ لترضيني، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني فلبس الحسين وجاء إليه وترضاه.

٢- وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية معتذراً عما بلغه عنه من كلام أغضبه فقال: (غلو إنصافك يؤمن سطوة جورك ذكرت أي نطقت بما تكره وأنا مخدوع، وقد علمت أي ملت إلى محبتك، ولم أخدع ومثلك شكر مسعى معتذر وعفا ذلة معترف).

٣- وكتب الحجاج إلى عبد الملك يعتذر إليه ويترضاه بشأن تطاوله على أنس بن مالك حتى رضي عنه، ومما ساقه في هذا الموضوع قوله:

(أمير المؤمنين أصلحه الله في قرابته من محمد رسول الله ﷺ إمام الهدى وخاتم النبيين أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي، وأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عبادته، فرأي أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وإفراج كربتي فقد ملئت رعباً وفرقاً من سطوته وفجاءة نقمته، وأمير المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات وأعطى له الدرجات أحق من صفح وعفا) ثم يذكر له ترضيه أنس بن مالك حتى رضي عنه.

٤- وكتب بشر بن مروان إلى أخيه عبد العزيز يعتذر إليه من هفوة فقال: (لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ولم يكن لك في قبوله مني الفضل).

٥- وبلغ الوليد بن عبد الملك في مرض له ذم من أخيه وولي عهده سليمان وتمن لموته، فعتب عليه الوليد فكتب إليه سليمان يتبرأ مما نسب إليه ونقل عن لسانه فقال: (والله لئن كنت تمنيت ذلك تأمياً لما يخطر في النفس إني لأول لاحق به، وأول منعي إلى أهله فعلام أتمنى ما لا يلبث من تمناه إلا ريثما يحل السفر بمنزل، ثم يظعنون عنه، وقد بلغ أمير المؤمنين ما لم يظهر على لسانه).

٦- فرد عليه الوليد بكتاب جاء فيه قوله: (ما أحسن ما اعتذرت به وخذوت عليه وأنت الصادق في المقال الكامل في الفعال وما شيء أشبه بك من اعتذارك وما شيء أبعد منك من الذي قيل فيك).

٧- وكتب هشام إلى ابن عمرو بن سعيد بن العاص بالكوفة كتاب يترضاه فيه بعد أن أخبره أن خالداً القصري أخذ بمجلسه وأغلظ له في القول، ومما قاله هشام في وصف آل سعيد أنهم (صمت من غير إفحام، بل بأحلام تخف الجبال وزناً)، وقد حكمه في هذه الرسالة بأمر خالد: إن شاء أقره وإن شاء عزله أو ضربه عشرين سوطاً أو من عليه بها، ثم تقدم إليه أن يكتب بحوائجه وحوائج أهل بيته إليه دائماً.

٨- وكتب سالم بن عبد الله كاتب هشام يعتذر إلى بعض إخوانه قائلاً: (أمتعك الله وأمتع بك لولا أنه إذا ضاق علي المخرج لك وسعك عذري بسط لسان لأئمتي في تركك لأئمتي فيما خالف هواك).

و- في الشفاعة والاستعطاف

١- حين اعتدى زياد بن أبيه على رجل يدعى سعيد بن أبي سرح (مولى حبيب بن عبد شمس) من شيعة الحسن بالعراق بعد منحهم الأمان بموجب صلح معاوية والحسن سنة (٤١ هـ) بأن هدم داره وأخذ ماله وحبس أهله وعياله وطلبه كتب إليه الحسن يلومه على ما فعل ويشفع للرجل فيقول: "إن أذاك كتابي هذا فابني له داره واردد عليه عياله وماله وشفعني فيه فقد أجزته).

٢- غير أن زياداً أبى أن يشفع الحسن فيه وتناول عليه في القول، فبعث الحسن بكتاب زياد إلى معاوية فكتب معاوية إلى زياد يقرعه ويقول: (أما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك، فإذا ورد عليك كتابي فخلّ ما في يديك لسعيد بن أبي سرح وابني له داره واردد عليه ماله ولا تعرض له).

٣- وقد تدخل شخصية بارزة في المجتمع في الشفاعة لقريب أو نسيب كما فعل عبد الله بن عمر حين تدخل لدى يزيد بن معاوية لإطلاق سراح المختار بن أبي عبيدة الثقفي أخي زوجته صفية وكتب إليه يقول: (إن عبيدة الله بن زياد حبس المختار وهو صهره وأنا أحب أن يعافى ويصلح من حاله فإن رأيت - رحمنا الله وإياك - أن تكتب لابن زياد فتأمره بتخليته فعلت).

٤- فكتب يزيد إلى ابن زياد يأمره بتخليته سبيله، ثم إن عاملي ابن الزبير على الكوفة زجّ بالمختار نفسه في سجنها خشية من تحريكه فتنة فيها عليهما.

٥- فكتب المختار من سجنه إلى ابن عمر يستشفعه لدهيها ويقول: (إني حبست مظلوماً وظن بي الولاة ظنوناً كاذبة، فاكتب رحمك الله إلى هذين الوليين الصالحين كتاباً لطيفاً، ولعل الله تبارك وتعالى أن يخلصني من أيديهما بيمينك وبركتك).

٦- فكتب عبد الله بن عمر إليهما يقول: قد علمت ما الذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصهر والذي بيني وبينكما من الود، فأقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتما سبيله حين تنظران في كتابي هذا) فخليا سبيله.

٧- وأذنب رجل يدعى كعباً العسبي إلى الوليد بن عبد الملك ذنباً فوجد عليه فسأل كعب عروة بن الزبير أن يشفع له عنده، فكتب عروة إلى الوليد يقول: " لو لم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب واستشفع بي إليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط، فحقق أمله في صدق ثقتي فيك تجد الشكر وافيّاً بالنعمة)، فقبل الوليد هذه الشفاعة وأسأغه الشفاعة لم يجب أيضاً.

٨- وكتب إليه يقول: " قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندي ما يجب فلا تقطع كتبك عني في أمثاله، وفي سائر أمورك".

٩- ومن ذلك أن عبد الله بن الزبير كانت له أرض إلى جانب أرض كانت لمعاوية، فكتب إليه يشكر دخول عبيده أرضه أو مرورهم بها، فما كان من معاوية إلا أن كتب له تنازلاً عن الأرض والعبيد معاً، فأثر هذا الفيض في نفس ابن الزبير فكتب إلى معاوية يقول: (وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل).

١٠- وحين اعتذر سليمان إلى أخيه الوليد مما افتري على لسانه بحقه من لواذع القول وقطع الرحم، كتب الوليد إليه يمتدحه ويثني عليه بمثل قوله: (أنت الصادق في المقال الكامل في الفعال).

١١- وكتب سالم (مولى هشام) وكتبه إلى بعض إخوانه معبراً عن عميق شكره له فقال: قد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إليّ منك جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك، وجعل ما سلف إليّ منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك.

ز- في التشوق والاستزارة

١- كتب يزيد بن معاوية إلى محمد بن الحنفية وكان بالمدينة يثني عليه شمائله فيقول: إني ما أعرف اليوم في بني هاشم رجلاً وهو أرجح منك علماً وحلماً ولا أحضر منك فهماً وحكماً، ولا

أعد منك عن سفهه وذنس وطيش، ثم استزاره قائلاً: قد أحببت زيارتك والأخذ بالخط من رؤيتك، فإذا نظرت في كتابي هذا فأقبل إليّ آمناً مطمئناً.

٢- ولما تولى الوليد بن يزيد الخلافة كتب إليه مروان بن محمد مهنتاً ومعبراً عن شوقه لزيارته بمثل قوله: ولولا ما أحاول من سد الثغر الذي أنا به لخفت أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجل على غير أمره، وأقدم لمعاينة أمير المؤمنين، فإنها لا يعدلها عندي عادل نعمة وإن عظمت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يؤذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمور كرهت الكتاب بها فعل.

ح- في التودد والملاطفة

كان هذا الموضوع ما يجب المكتوب إليه بالكاتب؛ إذ يصفى ما بينهما من شوائب العلاقة ويجعل المودة حاصلة في قلوب المتكاتبين.

١- ومن ذلك ما كتب به الوليد بن عبد الملك إلى عروة بن الزبير من مواساة كتبه إليه في حاجاته.

٢- ومنه ما كتب به هشام بن عبد الملك إلى ابن عمرو بن سعيد بشأن تعرض خالد القصري له؛ إذ كتب إليه يقول: فكاتب أمير المؤمنين فيما بدا لك مبتدئاً ومجيباً ومحدثاً وطالباً ما عسى أن ينزل بك أهلك من أهل بيت أمير المؤمنين من حوائجهم التي تقعد بهم الحشمة عن تناولها من قبله من غير محتشم من أمير المؤمنين ولا مستوحش من تكرارها عليه مستمنحاً ومسترفداً وطالباً ومستزيراً تجد أمير المؤمنين إليك سريعاً بالبر لما يحاول من صلة قرابتهم وقضاء حقوقهم.

ط- في الشكوى والمطارحات

١- كتب عبد الملك إلى الحجاج مرة كتاباً يشكو فيه سوء سيرته في الرعية وكثرة المآخذ عليه، ويخبره عن عجزه عن الاعتذار من الله تعالى من كل ذلك وقصوره عن الاحتجاج له.

٢- وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم بيثه ما هو فيه من قلق من الكبر والموت فيقول: إني نظرت في سني، فأنا الآن قد بلغت خمسين سنة وأنت نحو مني في السن وإن امرأ قد سار نحو خمسين حجة إلى مورد لَقْمين أن يورده.

٣- وكتب قتيبة إلى الحجاج يشكو قلة ما يصيب من الطعام وقلة غشيانه النساء وحصره عن المنبر، فكتب إليه الحجاج يصف له أدوية لهذه الأدوية ويقول: استكثر من الألوان لتصيب من كل صفحة شيئاً، واستكثر من الطروقة تجد بذلك قوة على ما تريد، وأنزل الناس بمنزلة رجل واحد من أهل بيتك وخاصتك وارم ببصرك أمامك تبلغ حاجتك.

٤- وكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك يشكو إليه تطاول الحجاج عليه ويستنصره ويقول: إن الحجاج قال لي نكراً وأسمعني هجراً، ولم أكن لذلك أهلاً فخذ لي على يديه.

٥- وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بدنو أجله وبأنه على شفا الموت وبيته همومه فيقول: قد كنت أرعى غنمك أحوطها حياة الناصح الشفيق برعية مولاه فجاء الأسد فبطش الراعي ومزق الراعي كل ممزق، وأرجو أن يكون جبار أراد بعبد غفراناً لخطاياها وتكفيراً لما حمل من ذنوبه.

٦- وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب وهو منهزم مع مروان بن محمد إلى أهله يشكو إليهم تقلب الدنيا بأهلها، وما آل إليه من حال فيقول: وقد كانت أذاقتنا أفويق استحليناها، ثم جمحت نافرة ورمحتنا مولية، فملح عذمها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة والطير بارحة.

٧- وكتب عبد الله بن معاوية من السجن إلى أبي مسلم يشكو إليه ما هو فيه من بلاء السجن وثقل القيود والمعاناة فيقول: إن علينا من سمك الحديث ومن ثقله أذى شديداً مع معالجة الأغلال وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلاظة وتيسيرهم الفضاضة بعد الله نرفع كربة الشكوى ونشكو شدة البلوى، إن الناس من حوضك رواء، ونحن منه ظماء يمشون في الأبراد ونحن نحجر في الأقياد بعد الخير والسعي والخفض والدعة.

ي- في التنبيه والتحذير

١- وجد عبد الملك مرة على موسى بن نصير، وكان مع أخيه بشر في العراق فأمر الحجاج حين بعثه والياً على العراق بعد موت بشر بأن يؤخذ على يدي موسى فعلم بذلك خالد بن أبان، فكتب من الشام إلى موسى يقول: (إنك معزول، وقد وجّه إليك الحجاج بن يوسف، وقد أمر فيك بأغلظ الأمر فالنجاة النجاة والوحى الوحى؛ فإما أن تلحق بالفرس فتأمن؛ وإما

أن تلحق بعبد العزيز بن مروان مستجيراً به، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك).

٢- ولما عاتب الوليد أخاه سليمان على شيء بلغه عنه من القول كتب إليه سليمان منكرًا ذلك ومعتذراً ومخذراً إياه من سماع أقوال الوشاة وأهل النميمة فقال: (متى سمع أمير المؤمنين من أهل النميمة ومن لا روية له أسرع ذلك في فساد النيات والقطع بين ذوي الأرحام والقربات).

ك- في المواساة

١- كان عبد الملك قد ابتنى باباً من أبواب المسجد الأقصى بالقدس، وبنى الحجاج باباً آخر منها، فضربت صاعقة باب عبد الملك فأحرقته ولم يصب باب الحجاج أي أذى فتطير عبد الملك من ذلك وشقَّ عليه وبلغ الخبر الحجاج فكتب إليه يقول:

(ليهنَ أمير المؤمنين أن الله تقبل منه وما مثلي ومثله إلا كابني آدم إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) ملمحاً بذلك إلى قصة ابني آدم عليه السلام حينما قرب كل منهما قرباناً إلى الله تعالى فتقبل قربان هابيل فأحرقه علامة على ذلك، ولم يتقبل قربان قابيل فضل على حاله فواسى هذا الكتاب عبد الملك حين قرأه وارتاحت نفسه لذلك التخريج الجميل من الحجاج.

ل- في الأخبار عن الأحوال

١- حين أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل رسولاً إلى أهل الكوفة ليمهد له السبيل، كتب مسلم إليه من بعض الطريق بين المدينة والكوفة يخبره بحاله وما جرى له فقال: (إني أقبلت من المدينة معي دليلان لي فجازا عن الطريق وضلا، واشتد علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا، وذلك المكان يدعى المضيق من بطن الخبيط، وقد تطيرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه وبعثت غيري) ويلاحق بهذا الكتاب العامل النفسي الذي كان يثبط مسلماً عن المضي قدماً في مهمته بعدما تبين له من آيات الإخفاق والهلاك ما تبين، وكان لأساء الأماكن دوره في ترسيخ التشاؤم في نفسه عن طريق الإيحاء.

٢- وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن أول مولود ولد له إلى أحد إخوانه كتاباً يعبر فيه عن عظيم شكره وامتنانه لله تعالى على هذه النعمة، ويعبر عن عميق بهجته وسروره به، ويذكر ما يأمل منه بعد موته فيقول: (وأملت ببقائه بعد حياة ذكري وحسن خلافتي في حرمتي وإشراكه إياي في دعائه شافعاً لي إلى ربه عند خلواته في صلواته ووجهه وكل موطن من موطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك بي وجدي وظهر به سروري وتعطف عليه مني أنسة الولد وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي وأحاول مس جسده بيدي في الظلم وتارة أعانقه وأرشفه ليس يعدله عندي عظيماً الفوائد ولا منفسات الرغائب).

وليس هناك ما هو أروع تصويراً لعاطفة الأبوة ولا أبرع تعبيراً عنها من هذه القطعة الثرية الرفيعة التي لا يوازيها في روعتها غير بضع قصائد: منها مثلاً قصيدة حطان بن المعلى الضادية المكسورة في بنيانه وقصيدة أبي خالد القناني الخارجي الفائية المكسورة التي احتج فيها على لوم زعيم الخوارج قطري بن الفجاءة إياه على قعوده وقصيدة ابن الرومي الدالية المكسورة التي يرثي فيها ابنه محمداً.

م- في طلب الحاجات

١- ولما طلب عبد الله بن الزبير إلى معاوية أن يمنع عبيده من الدخول في أراضيه رد عليه معاوية بكتاب قال فيه: (ساءني والله ما ساءك والدنيا هينة عندي في جنب رضاك) وأعلمه بضم أرضه إلى أرضه وعبيده إلى عبيده هدية منه إليه.

٢- وكتب عقاب بن شبة إلى خالد القسري عامل العراق يوصيه ببعض أقاربه ليصله ويلبي له حاجته فمهد لغرضه هذا بمدح طويل بما له من مكانة عالية بين العرب، ويعد هذا الكتاب من الروائع في باب؛ إذ لم تزد كتب المترسلين في العصور العباسية التالية في موضوعه على أن قلده ودارت حوله في معانيها، وهو أشبه بقصيدة المدح التي تنتهي عادة بطلب الجائزة والتماس الصلة، ومما ورد فيه قوله: (إن الله انتجبك من جوهرة الكرم ومنبت الشرف وقسم لك خطراً شهرته العرب، وتحدث به الحاضرة والبادية فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرفون فضلك ويسره ما خار الله لك، وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما

يبقى لهم ذكره، ويحسم به نشره مثلك، وقد واجهت إليك (فلاناً وهو من دنية قرابتي وذوي الهيئة من أسرتي وعرف معروفك، وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إليّ، وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النشر جميلاً في الغب).

٣- وربما كتب بعضهم في طلب حاجة عادية في نفسه فقد كتب سليمان بن هشام لأبيه يقول: (إن بغلتي قد عجزت عني فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة لي فعل).

٤- فكتب إليه أبوه يقول: (قد فهمت كتابك، وما ذكرت من ضعف بغلتك، وما ذاك إلا لقلّة تعهّدك، فنفقدها، وأحسن القيام عليها، ويرى أمير المؤمنين في ذلك رأيه).

٥- وقد رفع عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى مروان بن محمد كتاباً لطيفاً في التماس صلة من المال فقال: (إن الله بنعمته عليّ لما رزقني المنزلة من أمير المؤمنين جعل معها شكرها مقروناً بها فهي تنمي بالزيادة والشكر مصاحب لها، فليست تدخلني وحشة من أنباء حاجتي، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادتي، ولكنني تكنفتني مؤن استنفضت ما في يدي، وكنت للخلف من الله منتظراً، فإني إنما أتقلب في نعمه وأتمرغ في فوائده وأعتصم بسالف معروفه عندي).

وهذا الكتاب من رفيع ما أثر في بابه، وقد لاحظنا فيه اقتران الشكر دائماً بذكر النعم لما يستفيده به من دوام هذه النعم.

٦- وكتب عبد الحميد أيضاً إلى بعض الرؤساء يوصيه بشخص قصده في حاجة له عنده، ويأمل في تحقيقها فقال: "حق موصل كتابي إليك كحقه علي إذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله". وتعد هذه الكتب نماذج عالية احتذاها فيما بعد كتاب الترسل في العصور العباسية التالية.

ن- في التهادي (أو الإهداء والاستهداء)

كان هذا الموضوع وسيلة من وسائل التعبير عن المودة والمحبة بين الأصدقاء والأهل ولذا فقد ظهر في بعض كتاباتهم، وقد يكون التهادي بين بعض الرؤساء والمرؤوسين كذلك، أما الهدية فقد تكون جارية حسناء أو عبداً أسوداً أو فرساً أو طعاماً كالدراقن أو الكمأة أو

العسل، وما أشبه ذلك أو قاربه مما يمكن أن يهدى أو يستهدى في ذلك العصر، وقد كان المهدي يكتب إلى المهدي إليه بصفة ما يهديه أو بأبرز مزاياه المحبوبة فيه على وجه الإجمال.

١- ومن ذلك أن عامل اليمن بعث إلى عبد الملك بجارية وكتب إليه يقول: "إني قد وجهت إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بهال عظيم ولم ير مثلها قط"، وإنما قوله: (ولم ير مثلها قط) إنما هو إشارة إلى تفرداها في المزايا عن سائر الجواري في نظر المهدي، وما يلتبس عند الجارية عادة إنما هو حسنها الظاهر وملاحظتها وحسن منطقتها، ولذا فإن الكاتب أو جز كل ذلك بتلك العبارة الموحية التي أبقت حسن الجارية غامضاً تتوق العين إلى رؤيته حياً مائلاً أمامها بعد أن مثل في الخيال على أحسن مثال، ولما كتب الحجاج إلى عامل له بفارس يستهديه عسلاً جعل لهذا العسل أحسن الصفات فقال: "ابعث إليّ بعسل من عسل خلار من النحل الأبقار من الدستعيثار الذي لم تمسه النار.

فقد جعل العسل أولاً من موضع اشتهر بكثرة العسل والنحل، واختاره ثانياً من عسل خير أنواع النحل في تلك البقاع، وجعله ثالثاً مما ضل على فطرته في خليته من غير أن يكون قد عومل بنار، ولا أن يغش بشيء قد يغير لونه أو طعمه، وهكذا يكون قد استقصى غاية المراد من أوصاف هذا العسل المرغوب فيه.

٢- ولما أهدى الحجاج عبد الملك فرساً أمر ابن القرية بأن يكتب عنه إليه كتاباً في صفته فصب ابن القرية هذا في كتاب موجز أشبه بالبرقية اليوم عصارة ما يمكن أن يطلب في الفرس الكريم الأصيل فقال: "بعثت بفرس حسن المنظر محمود المخبر جيد القد أسيل الخلد يسبق الطرف ويستغرق الطرف"، فهو على ذلك متعة للعين ومتعة لراكبه أن انطلق على سهوته فهو جامع بين جمال المظهر وروعته وبين السرعة والحيوية والنشاط، وربما صدمت الهدية من أهديت إليه وخيبت أمله، ولم تعجبه فكتب إلى مهديها أن كان من المرؤوسين يقرعه عليها ويوبخه توبيخاً ساخراً.

٣- ومن ذلك أن بعض العمال أهدى مروان بن محمد عبداً أسود، فأمر عبد الحميد بن يحيى كاتبه على الرسائل بدم المهدي، فكتب إليه يقول: "لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته".

ص- في الألفاظ

يقال: ألغز الكلام وألغز فيه إذا عمى مراده وأضمهره، ووَزَّى فيه وعرض ليخفى، والمراد بالألفاظ تلك الكتب التي يدور موضوعها على التورية والتعمية والتعريض بالغرض بعيداً عن المباشرة أو التصريح به اعتماداً في فهمه على ذكاء المتلقي وفطنته وسعة ثقافته وإطلاعه على الأمور، وقد كان هذا الموضوع معروفاً في الكتب الشخصية خلال العصر الأموي، وفي العصور العباسية التالية:

١- ومما أثر منه في العصر الأموي كتاب من عبد الملك إلى الحجاج بعثه رداً على كتاب من الحجاج يهول فيه أمر الخوارج الأزارقة مع قطري وجاء في كتاب عبد الملك قوله: "إني أحمد إليك السيف وأوصيك بما أوصى به البكري زيدا" ففهم الحجاج الشطر الأول وهو استعمال القوة في حسم أمر الأزارقة واستغلق عليه أمر وصية البكري وزيد، ولم يعرف خطبهما فأمر حاجبه بأن ينادي في الناس بمنح عشرة آلاف درهم جائزة لمن يعرفهما، ويعرف نص الوصية فقدم عليه رجل يعرف الخبر: فإذا البكري موسى بن جابر الحنفي وإذا هو يوصي ابن عم له يدعى زيدا في شعر له فيقول:

أقول لزيد لا تثرثر فإنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا فشب وقود الحرب بالخطب الجزل
فإن عضت الحرب الضروس بناهبا فعرضت نار الحرب مثلك أو مثلي
فقال الحجاج: "صدق أمير المؤمنين عرضة نار الحرب مثلي أو مثله وصدق البكري"، ثم قام فكتب إلى المهلب وهو على حرب الخوارج مع قطري فقال: "إن أمير المؤمنين أوصاني بما أوصى به البكري زيدا، وأنا أوصيك به وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه" ويبدو أن المهلب عرف وصية البكري زيدا من الرسول بالكتاب أو من غيره لشيوع أمره بعد ما كان من خبره، إلا أنه لم يكن يدري ما وصية الحارث لبنيه، فلما أوتي بها إذا فيها: "يا بني كونوا جميعاً ولا تكونوا شتى فتفرقوا ويزوا قبل أن تبزوا فموت في قوة وعز خير من حياة في ذل وعجز".

٢- وكتب عبد الملك إلى الحجاج حين دحر ابن الأشعث وهزمه وهو يقول: "مالك عندي مثل إلى قدح بن مقبل"، فلم يدر الحجاج ما أراد فكتب إلى صديقه قتيبة بن مسلم

بخراسان - وكان عالماً برواية الشعر والأخبار - يسأله قائلاً: "إن ابن مقبل من أهلك، وقد كتب إلي أمير المؤمنين بـ (كذا) فعرفني قدحه" فكتب إليه قتيبة يقول: "إن هذا القدح فاز تسعين مرة لم يجب فيها مرة واحدة حتى ضرب به المثل، فقال ابن مقبل ينعته:

خروج من الغمى إذا ضُكَّ ضُكَّةً بدا والعيون المستكفة تلمح
مفدى مؤدى باليدين منعم خليع قداح فائز متمنح
غدا وهو مجدول فراح كأنه من المس والتقليب بالكف أفتح
إذا امتحنته من معد قبيلة غدا ربُّه قبل المفيضين يقدح

٣- وكتب عبد الملك مرة إلى الحجاج يقول: "أنت عندي كسالم" فلم يدر من سالم هذا، ولم يعرف ما منزلته حتى سأل عنه فقيل له: إنه أراد قول الشاعر:

يدير ونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم
ويقال ذلك لمن كانت مكانته رفيعة عند قائله.

ع- في بيان طبيعة الإخاء

١- كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى بعض أصدقائه كتاباً طويلاً يتحدث له فيه طبيعة الإخاء وماهيته فبقول: "إنه ما دعا أسبابه صدق (التقوى) وبنيت دعائمه على أساس (البر) ثم انهد البناء حريز (تواصل) وشيده مستعذب (العشرة)" وهذه - كما يبدو لنا - الأركان الأربعة الأساسية التي يرتفع عليها بناء الإخاء أو الصداقة بين الناس، ثم يرى عبد الحميد أيضاً أن الصديق الصدوق هو من كان لصديقه في الشدائد والملامات "كهف لجأ وأحرز حصناً وأحصف جنة من غير أن يسأم من أعباء صديقه أو يمل منه؛ إذ يتوجب عليه في حوادث الزمان أن يقف معه ويسعفه ويواسيه بكل ما قدر عليه" غير منان بالنصرة ولا برم بالعتب، يرى تعبهُ غنماً ونصبه دعة وكلفه فائدة وعمله مقصراً، ويجب أن يكون الصديق لصديقه باختصار شديد "عدل الولد في بره والوالد في شفقتة والأخ في نصرته والجار في حفظه".

ثم يتساءل عبد الحميد عن ثلاثة أمور: عن مقدار تمسك المرء بمثل هذا الصديق الصدوق المخلص إن وجده، وعن شكه في مثل وجود هذا الصديق إن وجد أصلاً، وعن مقدار

الخسارة في فقدته بعد العثور عليه، ويقول: "فأين المعدل عن مثله؟ أو كيف الإصابة لمثله:؟ أو أنى عوضه من فقدته؟".

ونجد في هذه الرسالة جوامع لفضائل الإخاء والحدود التي يجب أن يفهمها الصديق في صداقته؛ إذ بغيرها تنتفي صفة الإخاء بين الصديقين، وهذه الرسالة قيمة تاريخية ثلاثية كما يبدو لنا:

- القيمة الأولى: تتمثل في اشتغالها على دستور نظري لصلة الإخاء أو الصداقة بين الناس العقلاء في المجتمع العربي الأصيل.

- القيمة الثانية: قيمة خلقية عملية تتجلى في كون عبد الحميد كان صادقاً في كل ما كتبه فيها حين كتبها، ومؤمناً به كل الإيمان؛ لأن ذلك تجسد عملياً في سلوكه الذي ترويه الأخبار القديمة على وجهين:

- الأول: موقفه من صديقه ابن المقفع حين دهمه الطلب وهو مختبئ عنده فادعى ابن المقفع لطالبه من جند العباسيين أنه هو عبد الحميد ليحافظ على حياة صديقه مضحياً بنفسه لأجله، ولكن عبد الحميد يكشف لهم عن الحقيقة حين طلب منهم أوصافه فأخذوه وقتلوه درءاً لإلحاق الأذى بصديقه من غير ذنب اقترفه.

- الثاني: رفضه لعرض مروان بن محمد وهما منهزمان بأن يظهر عبد الحميد الخيانة له أمام العباسيين ليرضوا عنه وينجو وينفع عياله وحرمه من بعده، وأثر أن يبقى إلى جانب خليفته مروان لينتصر معه إن انتصر ويموت معه إن مات، وبالفعل فقد قتلاً معاً في لقاء واحد مع جند العباسيين بقرية بوصير بمصر وهما ملاحقان سنة (١٣٢ هـ) فدل سلوكه العملي هذا على شدة وفائه وإخلاصه في إخائه للخليفة حتى اللحظة الأخيرة.

وهذه النهاية بهذه الرواية هي الأصح والأقوى من الرواية الأولى.

- القيمة الثالثة لهذه الرسالة: تراثية تتمثل في تأثيرها العميق في ميدان التأليف في هذا الموضوع عند من جاء بعده من كبار الكتاب والأدباء والمترسلين كابن المقفع في القرن الثاني للهجرة وأبي حيان التوحيدي في القرن الرابع للهجرة، ولا شك في أن هذه التأثيرات تعدت

النثر إلى الشعر أيضاً في هذا الموضوع عينه، فقد أطنب الشعراء في التغني بالإخاء بين الإخوان والصدقة بين الأصدقاء.

ف- في الوصف

يعد الوصف واحداً من الموضوعات المحببة في الكتب الشخصية، ويراد به هنا على وجه الخصوص وصف الطبيعة أو الماديات والمحسوسات فيها مما يقع تحت مرمى البصر، وتتأثر به سائر الحواس يدخل مع هذا الوصف في جملته الموضوعات الشخصية؛ لأن المرء حين يلجأ لوصف شيء من الأشياء أو منظر من المناظر، فإنه يصوره من خلال تذوقه الخاص له، ومن خلال رؤيته الخاصة في رسمه بالكلمات إن كان ناثراً أو شاعراً ويرسمه بالألوان إن كان مصوراً تشكيمياً أو يجسده تمثالاً أو قطعة موسيقية إلى غير ذلك من وسائل التصوير والتعبير.

فالمرء عندما يتأثر بموضوع الوصف وينفعل به فإنه يخلع عليه من خياله وذاته الشيء الكثير؛ إذ يلتقط الصورة من الزاوية المعبرة عن نفسيته، ويجسده لنا في كلمات تستثير فينا غالباً حين نسمعها أو نقرأها شعوراً غامراً يستعيد أمامنا تكوين أجزاء الصورة التي كان قد رآها الناثر والشاعر وانفعل بها، ونصبح كأننا نحن من يراها حقيقة، وفي هذه الاستعادة جوهر الوصف والتصوير الفني للأشياء بالكلمات، وربما اختلف وصف الشيء نفسه عند ناثرين مختلفين أو شاعرين مختلفين: فكثير من الشعراء وصف الذئب أو الفرس أو الناقة أو الأطلال أو الربيع، ولكن لكل واحد منهم ذئبه الخاص به وربيعه الخاص به، بل إن وصف الشيء نفسه قد يختلف عند الناثر نفسه أو الشاعر نفسه إن كان في حالتين نفسييتين مختلفتين.

وهذا يؤكد ارتباط الوصف كليته بالنفس والزمان والمكان والسن، وسوى ذلك من المؤثرات الأخرى المختلفة، ومن ذلك: وصف الفرس والمطر والمركة والسلاح والصيد، ومن هذا الوصف ما جاء موجزاً مركزاً، ومنه ما جاء مطولاً مسهباً على النحو التالي:

١- وصف المطر والأرض: كتب الحجاج إلى عبد الملك كتاباً رائعاً يذكر فيه هيئة الأرض المتربة المغبرة المشعرة التي ثارت فيها أعاصير الغبار لانحباس المطر عنها حتى يأس الفلاحون أو كادوا، وينتقل من ثم إلى وصف تحول الجو حين هبت رياح القبول والشمال فأثارت سحاباً متقطعاً رقيقاً، ولم يزل يتصل بعضه ببعض ويعلو بعضه بعضاً حتى أثقل بالماء الذي راح يسح سحاً، ثم لم يلبث الواابل أن انقطع وأخذت السماء تثلج وترمي بقطع بيض كالقطن المندوف

حتى غطى الثلج الأرض بملاءة بيضاء وسد الشعاب والسبل فارتوت الأرض العطشى وشرب الناس، ثم يحمد الحجاج الله تعالى على هذا الخير العميم والنعمى الطيبة.

وهو يظهر في هذا الكتاب التعارض بين الجفاف والخصب ويبين موقف الناس من كل منهما ولاسيما الفلاحون الذين يفلحون بالمطر ويمزنون لانحباسه؛ لأن في المطر عندهم وعند الناس أجمعين وكل ما على الأرض من حي وكل معاني الحياة، ولأن في الجفاف كل معاني الهلاك وانقطاع الحرث والنسل.

٢- وصف المعركة ورد مثل هذا الوصف على لسان المهلب في كتاب بعث به إلى الحارث بن عبد الله المخزومي عامل ابن الزبير على البصرة يصف فيه ما جرى بينه وبين الخوارج في وقعة (سلى وسلبرى) الحاسمة فيصور لنا الكر والفر الذي يقع بين الفريقين كما يصور شدة القتال، ثم يخلص إلى النتيجة.

ق- في المعايدة

١- كتب سعيد بن حميد المتوفى سنة (١٠٥ هـ) يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان:
أيها الشريف، عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر موصولة بفرائضها من الشكر لا ينقضي حق نعمة حتى يجدد لك أخرى، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده موفياً عما قبله.
(إني تصفحت أحوال الأتباع الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة والتمست التأسى بهم في الإهداء - وإن قصرت بي الحال عن الواجب - فوجدت أني بهم أهديت نفسي فهي ملك لك لا حظ فيها لغيرك، ورميت بطرفي إلى كرائم مالي فوجدتها منك، فإن كنت أهديت منها شيئاً فإني لمهد مالك إليك ونزعت إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة، فرأيت إن جعلتها هديتي أني لم أجدد لهذا اليوم الجديد براً ولطفاً ولم أميز منزلة من شكري بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك والإقرار بالتقصير عما يجب لك براً أتوسل به إليك وقلت في ذلك:

إن أهد مالا فهو واهبه وهو الحقيق عليه بالشكر
أو أهد شكري فهو مرتهن بجميل فعلك آخر الدهر
والشمس تستغني إذا طلعت أن تستضيء بسنة الفجر

ظ- في التائب:

١- كتب معاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه ويعاتبه:

أما بعد: فقد أدت السنة التصريح إلى إذن العناية بك، ما فجع الأمل فيك وباعد الرجاء منك، إذ ملأت العيون بهجة والقلوب هيبة وترامت إليك آمال الراغبين وهم المنافسين، فسخت بك فتیان قريش وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرة المهووعة، والكظ الجشء، اقتحمت البوائق وانقدت إلى المعابر، واعتضتها من سمو الفضل ورفيع القدر، فليتك - يزيد - إذا كنت لم تكن، سررت يافعاً ناشئاً وأثقلت كهلاً ضائعاً، فواحزناً عليك يزيد! ويا حر صدر المثكل بك، ما أشمت فتیان بني هاشم وأذل فتیان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب! فمن لصالح ما أفسدت ورتق ما فتقت؟ هيهات، خمشت الدربة وجه التصبر بك، وأبت الجناية إلا تحدرأ على الألسن، وحلاوة على المناطق ما أربح فائدة نالوها، وفرصة انتهزوها! انتبه يزيد للعة، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان مما حسن قبحه واحلولى عندك مره، مرٌّ شركك فيه السواد ونافسكه الأعبد، فأضعت به من قدرك وأمكنك به من نفسك - فمن لهذا كله؟.

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت، وأسير الحياة بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير، كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٢٩]، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً، اعلم يا يزيد أن أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة، وهي الجرحة العظمى، والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتهما، ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب، وإظهار العورة وإباحة السر، فلا تأمن نفسك على شرك ولا تعقد على فعلك فما خير لذة تعقب الندم، وتعفي الكرم؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة، فكن الحاكم على نفسك واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى، وليبلغ أمير المؤمنين ما يردُّ شاردأً من نومته، فقد أصبح نصب الاعتزال من كل مؤانس ودريةة الألسن الشامتة، وفقك الله فأحسن.

الباب الثالث عشر

الموعظة التقوية في العصر الأموي

أ- مقدمة:

لا يخفى على أحد من الناس أن الأمويين وإن فتحوا معظم بلاد الإسلام في فترة تاريخية وجيزة إلا أنهم حكموا الناس بالحديد والنار فتراجعت المواعظ خطوة إلى الوراء، وخاصة الوعظ الموجه للخلفاء والأمراء وبقي الوعظ السلوكي الفردي المتجه لسلوك الناس والوعظ الموجه للقضايا الاجتماعية البعيدة عن إطار سياسة الدولة الأموية، وانتشرت المواعظ في المساجد والمجالس، وكان على رأس الوعاظ في هذا العصر (الحسن البصري) الذي عمّت مواعظه مختلف مناحي الحياة، ومعظم ما تحدث فيه الوعاظ في هذا العصر انزياح الناس عن قواعد هذا الدين وانتشار بعض الموبقات وفساد الناس وظلمهم بعضهم لبعض، وانضوت الموعظة تحت عباءة الخطابة (خطيب الجمعة) حيث تحول الكثير من الخطب في الجمع إلى نوع من الوعظ.

ب- نماذج من الموعظة في العصر الأموي

١- موعظة رجل لهشام بن عبد الملك:

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك، فقال: ما رأيت كالיום يوماً، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم فيهن رجل عند هشام، دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك، قال: وما هن؟ قال:

١- لا تعد عدة ولا تثق من نفسك بإنجازها.

٢- ولا يغرنك المرتقى، وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً.

٣- واعلم أن للأعمال جزاء فأتق العواقب.

٤- وأن للأمور بغتات فكن على حذر.

قال عيسى بن دأب: فحدثت بهذا الحديث (المهدي) وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وقال: ويحك! أعد عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين أسغ لقمته، فقال: حديثك أعجب إليّ.

الباب الرابع عشر التوقيعات في العصر الأموي

أ- مقدمة:

شاعت التوقيعات في عهد عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، لشيوع الكتابة، وامتد هذا الشيوع بصورة أوسع في عصر بني أمية، أما في العصر العباسي ومع ازدهار الكتابة الفنية وتعدد أغراضها، وحلولها محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، فأصبح الكاتب البليغ مطلباً من مطالب الدولة تحرص عليه وتبحث عنه لتسند إليه عمل تحرير المكاتبات، وتحرير الرسائل في دواوينها التي تعددت نتيجة لاستبحارها واتساع نطاقها، وكثرة ما يُجيب من الخراج من الولايات الإسلامية الكثيرة المتباعدة، وأصبح لا يحظى بالوزارة إلا ذوو الأقلام السيالة من الكتاب والبلغاء المترسلين، وأسهمت التوقيعات الأدبية منذ أبكر عصورها في توجيه السياسة العام للدولة الإسلامية، في عصر صدر الإسلام، ودولة بني أمية، ودولة بني العباس، والدولة العربية بالأندلس، والمغرب العربي، وكان الخلفاء في أكثر الأحيان هم الذين يتولون توجيه ما يرد إليهم من رقع أو خطابات، والتوقيعات كانت في سياقها التاريخي محطة لتدريب الناشئة على فنون القول، واكتساب المهارات اللغوية والبلاغية.

ب- نماذج رائعة من التوقيعات الأدبية

١- كتب ربيعة بن عسل اليربوعي إلى معاوية يسأله ليعينه في بناء دارة بالبصرة، لكنه بالغ حيث أراد الحصول على اثني عشر ألف جذع نخلة لبني بها بيته، وقد كانت تسقف بجذوع النخل فوق الخليفة معاوية بهذا التوقيع المتضمن للاستفهام الاستنكاري «أدرك في البصرة أم البصرة في دارك؟».

٢- وكتب عبد الله بن عامر إلى معاوية بن أبي سفيان يسأله أن يقطعه مالا بالطائف فكتب إليه: عش رجباً تر عجباً.

٣- وروي أن يزيد كتَبَ إلى إسماعيل بن علي العمشي أن: اكتب لنا بمناقب علي ووجوه الطعن على عثمان رضي الله عنها فكتب العمشي: «لو أن علياً لقي الله جل وعز بحسنات أهل الدنيا لم يزد ذلك في حسناتك، ولو لقيه عثمان رضي الله عنه بسيئات أهل الأرض لم ينقص ذلك من سيئاتك».

٤- وكتب مسلم بن عقبة إلى يزيد بن معاوية يخبره بالذي صنعه ببعض الخارجين على الدولة الأموية، فوقع يزيد في أسفل كتابه ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٦].

٥- ووجد الحجاج على منبره مكتوباً: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [سورة الزمر: ٨].

٦- فكتب تحته: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٩].

٧- وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان أن يحمله على أخذ أموال السواد، فكتب عبد الملك على الرسالة: «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم حوماً يعقدوا بها شحوماً».

٨- وُرُفِعَ إلى الحجاج بن يوسف عن محبوبس ذكروا أنه تاب فوق: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [سورة التوبة: ٩١].

٩- وكتب قتيبة بن مسلم الباهلي إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يتهدده بالخلع، فوقع سليمان في كتابه:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع
وأعاده إليه.

١٠- فغضب قتيبة وأرسل إليه رسالة أخرى يتهدده بالخلع فوقع فيها سليمان ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص: ٨٣].

١١- ورفع متظلم شكواه إلى هشام بن عبد الملك فوقع فيها «أتاك الغوث إن صدقت وجاءك النكال إن كذبت».

١٢- وروي أن هشام بن عبد الملك كتب إلى ملك الروم: من هشام أمير المؤمنين إلى الملك الطاغية.

١٣- فكتب ملك الروم إليه: ما ظننت أن الملوك تسب وما الذي يؤمنك أن أجيبك: «من ملك الروم إلى الملك المذموم»،

١٤- كتب عامل عُمان إلى عمر بن عبد العزيز: «إِنَّا أَتَيْنَا بِسَاحِرَةٍ، فَأَلْقَيْنَاهَا فِي الْمَاءِ فَطَفَّتْ»، فوقع إليه عمر: «لسنا من الماء في شيء، إن قامت البينة، وإلا فخلّ عنها».

١٥- وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: «إن الناس قد أصابوا من الخير خيراً حتى كادوا يبطلون»، فوقع عمر: «إن الله تبارك وتعالى حيث أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، رضي من أهل الجنة أن قالوا: الحمد لله، فَمُرْ مَنْ قَبْلِكَ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ».

١٦- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري «أعني بأصحابك». فأجابه الحسن في رسالته: «من كان من أصحابي يريد الدنيا فلا حاجة لك فيه، ومن كان منهم يريد الآخرة فلا حاجة له قبلك، ولكن عليك بدوي الأحساب، فإنهم إن لم يتقوا استحيوا، وإن لم يستحيوا تكرموا».

١٧- كتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز، يخبره أنها احتاجت على حصن. فوقع عمر: «حصنها بالعدل والسلام».

١٨- ووقع عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة عندما كتب إليه يخبره أنه فعل في أمره كما فعل عمر بن الخطاب في حادثة مماثلة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾.

١٩- ووقع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد أخبر يزيد أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت».

الباب الخامس عشر الأجوبة في العهد الأموي

أ- مقدمة:

نوع أدبي ثري يقوم على البلاغة والحجة وقوة الجدل وحضور البديهة والفكر والذكاء والدهاء وسعة الحيلة والاطلاع، ويقوم على المحاوراة بين فرد وفرد أو جماعة وجماعة أخرى، حيث يحاول كل طرف استفزاز الآخر لنقد يحط من شأنه أو يضحك عليه الناس أو يفخر عليه بحق وغير الحق أو يدعي لنفسه ما ليس له من المزايا، وهذه الأجوبة مفحمة ومدهشة ومعجبة، وقد كثرت المحاورات في العصر الأموي نظراً للدور الذي لعبه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وفتح باب الاختيار في النقاش والحوار.

ب- نماذج من الأجوبة:

لما تكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه حين أخذ له البيعة سكت الأحنف بن قيس، فقال له معاوية: مالك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: (أخافك إن صدقت وأخاف الله إن كذبت).
كان للمغيرة بن شعبة والي الكوفة جدي يوضع على مائدته فحضره أعرابي فمد يده إلى الجدي وجعل يسرع فيه، فقال له المغيرة: إنك لتأكله بحدرد كأن أمه نطحتك فقال الأعرابي: إنك لمشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

الباب السادس عشر القصص والحكايات في العهد الأموي

أ- مقدمة:

شاع في هذا العصر المملوء بالحروب والمعارك والتوسع بسبب الفتوحات الكثير من القصص والحكايات المنقولة عن الواقع لتحقيق المتعة الفنية من خلال الاعتبار المؤثر في النفوس مع أخذ عين الاعتبار بأن بعضها مخلق ومبتدع من أجل السيطرة على خيال السامع والقارئ، واتخذ الكثير من وعاظ العصر الأموي القصة وسيلة مؤثرة لتحقيق أهدافهم من الوعظ، وكانت المساجد ميادينهم الرئيسية لمثل هذه القصص والمتصفح لحياة الشعوب الإسلامية في العهد الأموي يقرأ قصصاً كثيرة ومتنوعة من مثل:

قصص الجهاد والحروب والانتصارات.

قصص الوعظ والتي تقال على المنابر في المساجد من خلال الدروس.

قصص الخلفاء والولادة مع الرعية.

قصص الحب والغرام وهي كثيرة وبابها واسع ومتعدد.

قصص الحج والعمرة وما يحصل للمسافرين أثناء سفرهم إلى بيت الله الحرام لتأدية الفريضة.

القصص الديني (قصص التوراة والإنجيل والقرآن الكريم).

أخبار الملوك والأمم السابقة والمعاصرة.

أيام العرب.

الأساطير والخرافات.

قصص الحيوان.

حكايات الرحلات والمشاهدات.

الباب السابع عشر المحاورات في العهد الأموي

أ- مقدمة:

وهي نوع نثري قديم يدور بين فردين أو مجموعة أفراد وتدور المحاورات عادة بين المتحاورين أفراداً وجماعات هم موضوع على شكل سؤال يوجهه أحدهم ليجيب عنه الآخر أو جدلاً بين شخصين حول مبدأ أو فكرة أو مذهب أو عقيدة يحاول كل منهما أن يقنع بها الآخر، وقد يكون الحوار مفتوحاً بين الأشخاص في موضوعات شتى لإغنائها وشرحها، وقد يكون ثرثرة كلام وتتميز المحاورات.

١- بالقصر.

٢- والبلاغة.

الباب الثامن عشر النقد في العصر الأموي

أولاً- شذرات مهمة في النقد:

أ- توطئة:

استطاع القرآن الكريم أن يفتح أعين العرب على العلم والثقافة والمعرفة؛ فنشط الفكر والأدب وأصبح هم الناس التزي بالعلم؛ وعندما استقر العرب في المدن والأمصار وتأثروا بالحضارات الأجنبية مادياً وعقلياً، وازدهر الشعر تبعاً للتطور الطبيعي في المناطق المختلفة من أصقاع الدولة الإسلامية كالحجاز والشام والعراق، بدأ النقاد يوازنون بين الشعراء، تارة بين شعراء المذهب الواحد، وأخرى بين شعراء البيئة الواحدة، وظهرت كلمات نقدية جديدة ترجع كل شاعر إلى مذهبه، ومن عباراتهم التي تداولوها:

١- جرير أشعر عند العامة.

٢- والفرزدق أشعر عند الخاصة، وقد كان خلفاء بني أمية يعقدون المجالس الأدبية يتحدث فيها الحاضرون عن الشعر والشعراء، ويلقي المادحون قصائدهم فتنال الاستحسان أو الإعراض والانتقاد.

ب- فمعاوية بن أبي سفيان:

١- ألقى عن المادحين فضول الكلام.

٢- وأشعر أهل الإسلام كعب بن زهير، ومعز بن أوس.

ج- واشتهر الخليفة عبد الملك بن مروان؛ بأحكامه النقدية.

١- فيروى عنه أنه قال لمادحيه: «تشبهوني مرة بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، أما

قلتم كما قال كعب الأشقري:

ملوك ينزلون بكل ثغر	إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الأمور ترى عليهم	من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يهندي بهم إذا ما	أخو الظلماء في الغمرات جارا

٢- وقد مدحه الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات بقصيدة منها:

إن الأغر الذي أبوه أبو الـ معاصي عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب
فقال له: تمدحني لتاج كأي من العجم وتقول في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من اللـ ه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

٣- وفي هذه الأحكام نقد دقيق موجه يدل على ذوق عبد الملك العربي الخالص.

د- ومنها حكم الشعراء بعضهم على بعض

١- كحكم جرير على الأخطل بأنه يجيد مدح الملوك.

٢- و حكم الأخطل على جرير بأنه يغرف من بحر.

٣- وعلى الفرزدق بأنه ينحت من صخر.

هـ- وإذا أتينا إلى أواخر القرن الأول الهجري؛ نجد أن النقد قد بدأ ينمو أكثر نتيجة

لعدة عوامل منها:

١- المجالس الأدبية التي يعقدها الخلفاء.

٢- والاحتكاك بين الشعراء والتنافس الأدبي بينهم.

٣- والمنافسات القبلية، بحيث تريد كل قبيلة أن يكون أشعر الشعراء منها.

٤- تأثير الفوز بالأولية في الشعر بالبحث عن أشعر شاعر الشيء الذي يفسر تعدد

الأجوبة كلما طرح السؤال: من أشعر الشعراء؟

٥- تسارع سير النقد بخطوات سريعة نحو التطور الذي عرفته كل معالم الثقافة العربية

ابتداء من هذا العهد.

٦- ظهور نقاد اختصوا في النقد وجعلوه همهم بعد أن رأينا النقد في العصر الجاهلي

خطرات ذهن فطري متوقد يحكم على البيت أو البيتين، ويهمل تعليل الأحكام أو يورد بعض

التعليقات الجزئية، وسار في الاتجاه نفسه تقريباً في العصر الإسلامي مع بعض التطور الذي يتجلى في المفاضلة بين الشعراء، وفي غلبة طابع الاهتمام اللغوي عليه، والمعنوي أحياناً أخرى، وهذا قد أهله ليتقبل التطور الذي ينتظره.

٧- تكون نواة المذاهب والمدارس والتيارات النقدية حين بدأت حركة التدوين في مختلف ميادين الثقافة العربية على أوسع نطاق.

ثانياً- رؤيا النقد في الحجاز والعراق والشام؛

نما النقد الأدبي في العصر الأموي وازدهر في بيئات ثلاث هي: الحجاز، والعراق، والشام، وقد تلون في كل بيئة بلون الحياة والظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بكل بيئة؛ لأن الأدب انعكاس للواقع، وباختلاف ظروف كل بيئة اختلف الشعر، فأدى ذلك إلى اختلاف النقد بين هذه البيئات.

أ- النقد في الحجاز؛

١- النقد معطى أدبي؛

خلال الحكم الأموي ازدادت أهمية الحجاز ومكانتها، فقد أصبح خزانة للأموال التي جمعها الأمراء وقادة الجيوش الإسلامية من خلال الفتوحات، وقد لجأ إليه بسبب ما كان عليه من ثراء واستقرار العديد من أعيان العرب وأثريائهم من مختلف الجهات، وأصبح مركزاً دينياً يدرس فيه القرآن، ويشرح فيه الحديث من قبل أهل العلم بالدين والفقه، وصار العديد من الرجال المسلمين يقدون إليه من مختلف الأقطار الإسلامية، وتحول إلى بيئة للهو والترف في آنٍ واحد بسبب تدفق الأموال من جهة، وإقصاء السياسة عنه، وظهور الجوّاري غير العربيات اللاتي جئن من مختلف النواحي.

وقد ازداد بمرور السنين تدفق الأموال من الشام (مركز الخلافة) على أهل الحجاز؛ لجلب ولائهم وتأبيددهم، وإسكات المعارضين للخلافة، وصرف نظرهم عن المطالبة بالسلطة، نتيجة للخلاف الذي كان حول من هو أحق بالخلافة بين الأمويين وبين من شايعوا علياً رضي الله عنه.

وقد عكس هذا الجو وهذه الحياة الناعمة ذوقاً أدبياً جديداً أدى إلى بروز جيل جديد متفائل مرح عكسه الشعراء في شعرهم، حيث مالوا هم كذلك إلى شعر الغزل الذي رسموا

فيه صوراً عن واقع الحياة في بيئتهم، وامتد ذلك إلى (النقد) كذلك؛ حيث انكب النقاد حول هذا اللون من الشعر؛ يجللون، ويبحثون ما فيه من مظاهر الضعف، أو القوة والجمال.

٢- ومن أبرز الأسماء (الناقدة):

أ- السيدة سُكَيْنَةُ بنت الحسين بن أبي طالب حفيدة الرسول ﷺ.

ب- أبو عتيق الذي ينتمي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أ- النقد عند السيدة سُكَيْنَةُ بنت الحسين بن أبي طالب حفيدة الرسول ﷺ:

ترجمت أحكام السيدة سُكَيْنَةُ النقدية ذوق جيل ذلك العصر، وكان العديد من الشعراء يقدون إليها، ويلتقون بها في مجالسها تطالبهم بصور ومعان شعرية مغايرة لما كان عليه الحال في العصر الجاهلي، فقد راحت السيدة (سُكَيْنَةُ) تتأمل النصوص الشعرية، وتفحص الصورة التي رسمها الشاعر للمرأة، وتحاول أحياناً أن تجري عليها بعض التعديلات؛ حتى تتلاءم مع ذوق المرأة من خلال ما كانت تبديه من ملاحظات، وقد قال عنها صاحب (الأغاني) يصفها: "إنها كانت من أجمل نساء عصرها، وكانت برزة تجالس الأجلاء من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزاحة".

وكانت سكينه تحيي في ستارة يوم الجمعة فتقوم بإزاء ابن مطيرة، وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم إذا صعد المنبر، فإذا شتم علياً رضي الله عنه شتمته هي وجواربها، فكان يأمر الحرس فيضربون جواربها" الأغاني [١٦ / ١٥١].

وقد كان لنسبها الكريم أثره في أحكامها النقدية التي كانت مرجعيتها ذلك الاحترام والتقدير الذي يكنه الرسول ﷺ للمرأة، المستمد من روح القرآن.

- نماذج من النقد عند (سُكَيْنَةُ):

ومما ورد عنها من شواهد نقدية في هذا الموضوع:

أ- حكمها على بيت جرير: عن عوانة بن الحكم قال: جاء جرير إلى باب سكينه بنت الحسين عليه السلام يستأذن عليها، فلم تأذن له وخرجت إليه جارية لها، فقالت: تقول لك سيدتي: أنت القائل:

طَرَقْتِكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
قال: نعم، قالت: أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدנית مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها،
أنت عفيف وفيك ضعف فخذ هذين الألفي درهم فالحق بأهلك، الأغاني [٤٢ / ٨].

فقد فرقت الناقدة بين الكلام عن الأحاسيس العاطفية وبين الأخلاق.

ب- وقد روت عنها كتب الأدب نماذج كثيرة من نقدها الظريف، فقد سمعت (نُصِيْبًا)
يقول:

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ فَوَاحِزْنَا مَنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي
فعابت عليه صرف نظره إلى من يعيش مع (دَعْد) بعده ورأت الصواب أن يقول:

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ فَلَا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِيذِي خُلَّةٍ بَعْدِي
ج- تفضيلها جريراً على الفرزدق: عن الشعبي أن الفرزدق خرج حاجاً، فلما قضى حجه
عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينه بنت الحسين عليها السلام، فسلم فقالت له: يا فرزدق من
أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت أشعر منك الذي يقول:

بِنَفْسِي مَنْ تَجَبَّبَهُ عَزِيْزٌ عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٍ
وَمَنْ أَمْسِي وَأُصْبِحُ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَّعَ النَّيَامُ
فقال: والله لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه قالت: أقيموه فأخرج، ثم عاد إليها من الغد
فدخل عليها فقالت: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك جرير
أشعر منك حيث يقول:

لَوْلَا الْحِيَاءُ لِعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَيْبُ يُزَارُ
كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الضَّحِيحُ فِرَاشَهَا كُنْتِمُ الْحَدِيثُ وَعَقَّتِ الْأَسْرَارُ
لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُورُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ
فقال: والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه فأمرت به فأخرج، ثم عاد إليها في اليوم
الثالث وحوها مولدات لها كأهمن التماثيل، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها وبهت

ينظر إليها، فقالت له سكينه: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت! صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إِنَّ الْعَيُونََ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْتَنَّا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنِ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنْ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرَكْنَا
أَتَبَعْتُهُمْ مُقْلَةً إِنْسَانُهَا غَرِقٌ هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا

فقال: والله لئن تركتني لأسمعتك أحسن منه، فأمرت بإخراجه فالتفت إليها وقال: يا بنت رسول الله إن لي عليك حقاً عظيماً قالت: وما هو قال: ضربت إليك آباط الإبل من مكة المكرمة إرادة التسليم عليك، فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطردي وتفضيل جرير علي ومنعك إياي أن أشدك شيئاً من شعري وبي ما قد عيل منه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت، فإذا أنا مت فمري بي أن أدرج في كفني وأدفن في حر هذه، يعني الجارية التي أعجبته، فضحكت سكينه وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخذاً بربطها، وأمرت الجواري فدفعن في أقفيتهما ونادته: يا فرزدق احتفظ بها وأحسن صحبتها فإني آثرتك بها على نفسي". الأغانى [٤٤ / ٨].

وقد امتد هذا اللون من النقد في موضوع الغزل إلى نساء أخريات.

د- فقد عاتبت (عزّة) (كثيراً) في وصفه لها بالمظاهر الشكلية غير الطبيعية، وقالت له: لم لا تقول مثل ما قال امرؤ القيس في وصفه المرأة:

أَلَمْ تَرِنِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَتَّطِيبِ
ه- وقد استرقت "عزّة" قول "الأحوص" وفضلته على (كثير) في بعض معانيه في وصف المرأة مثل قوله:

وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنِ الْهَوَى إِذَا لَمْ يُرَزَّرْ لِأَبْدَدَ أَنْ سَيَزُورَ
ب- النقد عند عبد الله بن أبي عتيق

ملاً ابن أبي العتيق الحجاز نقداً ظريفاً لأكثر شعراء الغزل في عصره، وكان يعتمد في نقده على ذوق مرهف وحس مترف، وقريحة وقادة، وبصيرة نافذة في التمييز بين جيد الشعر

ورديته، صحيحه وزائفه، وإلى جانب ذلك كله كان محيطاً بثقافة عصره ومعارفه، وثيق الصلة بحياته الأدبية، علياً بتياراتها واتجاهاتها، أكثر من الاهتمام بعمر بن أبي ربيعة، فقد كان مصاحباً له داعماً لشعره حتى اتهمه نقاد عصره بالانحياز إليه، فمثل ظاهرة الناقد المتخصص، من أمثلة ذلك:

١ - أنه حضر ابن أبي عتيق عمر ابن أبي ربيعة وهو ينشد قوله:

وَمَنْ كَانَ مَحْزُونًا بِأَهْرَاقِ عَبْرَةٍ وَهَى غَرُبُهَا فَلَيَأْتِنَا نُبُكِهِ غَدَا
نُعْنُهُ عَلَى الْإِنْكَالِ إِنْ كَانَ ثَاكِلا وَإِنْ كَانَ مَحْرُوبًا وَإِنْ كَانَ مُقْصِدا
فعاب عليه الغلو والمبالغة وذلك منهي عنه في الشعر.

٢ - وأنشد عمر بن أبي ربيعة ابن أبي عتيق في أحد الأيام قائلاً:

بَيْنَمَا يَنْعَتِنِّي أَبْصَرَنِي دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الْأَغْرُ
قَالَتِ الْكُبْرَى: أَتَعْرِفَنَ الْفَتَى؟ قَالَتِ الْوُسْطَى: نَعَمْ هَذَا عَمْرُ
قَالَتِ الصَّغْرَى وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا: قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ؟
٣ - فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها، وإنما نسبت بنفسك! كان ينبغي أن تقول:
قلتُ لها فقالت لي، فوضعتُ خدي فوطئت عليه، فعاب عليه أنه كان يمدح نفسه أكثر من
المدوح.

٤ - ومن نماذج من نقده لعبد الله بن قيس الرقيات، نقد قوله:

تعدت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها
وقد أخذ عليه في هذه الأبيات الغموض فيها من حيث المعنى؛ إذ إنه في قوله:
سواء عليها ليلها ونهارها، جعلها كالعمياء وليس هذا المراد، بل إن المراد هو الكناية عن
شدة تعبها، وهذا المعنى ليس بظاهر في الأبيات، بل إنه ملبس كما ذكرت.

٣ - وقد برز إلى جانب هؤلاء النقاد نفر من (الشعراء) مارسوا النقد إلى جانب الشعر،
فقد سمع عمر بن أبي ربيعة (كثيراً) يقول:

أَلَا لَيْتَنَا يَا عَزَّ كُنَّا لِذِي غَنَى
 كِلَانَا بِهِ عَرٌّ فَمَنْ يَرِنَا يُقْلُ
 إِذَا مَا وَرَدْنَا مَنَهْلًا صَاحَ أَهْلُهُ
 نَكُونُ بَعِيرِي ذِي غَنَى فَيُضِيعُنَا
 يُطَرِّدُنَا الرُّعْيَانَ عَنْ كُلِّ تَلْعَةٍ
 وَدَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنَّكَ بِكَرَّةٍ
 بَعِيرِينَ نَرَعَى فِي الْخِلَاءِ وَنَعْرُزُبُ
 عَلَى حَسَنِهَا جَرِبَاءُ تُعَدِّي وَأَجْرُبُ
 عَلَيْنَا فَمَا نَنْفَكُ نُرْمَى وَنُضْرَبُ
 فَلَا هُوَ يَرِ عَانَا وَلَا نَحْنُ نُطَلَّبُ
 وَيَمْنَعُ مِنَّا أَنْ نُرَى فِيهِ نَشْرَبُ
 هَجَانُ وَأَنِّي مُصْعَبٌ ثَمَّ نَهْرُبُ

فقال عمر: تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطررد والمسوخ، فأبي مكروه لم تتمن لها ولنفسك، لقد أصابها منك قول القائل: " معادة عاقل خير من مودة أحمق " .

٤- وقد حدد النقاد الحجازيون مقياس الغلو والمبالغة في رسم العاطفة، ومن ثمة صار إذا ما عبر الشاعر عن عاطفته بغُلو أو بصورة خارجة عن المألوف كانت غريبة مضحكة تشبه النوادر.

٥- قال عمر بن أبي ربيعة شعراً فيه غلو:

وَمَنْ كَانَ مَحْزُونًا بِأَهْرَاقِ عَبْرَةٍ
 وَهِيَ غَرْبَهَا فليَأْتِنَا نَبْكِهِ غَدَاً
 وَإِنْ كَانَ مَحْزُونًا وَإِنْ كَانَ مَقْصِدَا
 نُعْنُهُ عَلَى الْإِنْكَالِ إِنْ كَانَ نَاكِلَا

فمضى ابن أبي عتيق إلى عمر وقال له: جئناك لموعدك، قال: وأي موعد بيننا، قال: قولك: " فليأتينا نَبْكِهِ غَدَاً "، وقد جئناك والله لا نبرح أو تبكي إن كنت صادقاً أو ننصرف على أنك غير صادق، ثم مضى وتركه.

٢- النقد في العراق:

- دوافع الشعر:

كان الشعر في العراق يشبه إلى حد كبير الشعر الجاهلي في مضمونه وأسلوبه، بسبب العصبية القبلية التي عادت إلى الظهور، وكانت أغلب موضوعات الشعر في العراق في:

أ- الافتخار.

ب- والاعتزاز.

ج- وهجاء الخصوم بالهجاء المر المقذع.

د- النقائض الشعرية التي حمل لواءها: الفرزدق وجريز والأخطل في سوق الشعر (سوق المربد)، يقد إليه الناس من كل جهة، ويجمع فيه الشعراء ينشدون الأشعار من مفاخرة بالأنساب وتعظيم بالكرم والشجاعة وإبراز ما لقوم كل شاعر من فضائل وأيام.

- وقائع النقائض:

لقد كان لكل شاعر حلقة ينشد فيها شعره ويحمس أنصاره في جو مملوء بالهزج والنقاش حتى قيل: إن والي البصرة ضج بما أحدثه هؤلاء الشعراء من صخب واضطراب في أوساط الناس فأمر بهدم منازلهم.

وقد احتفظ العديد من الكتب النقدية القديمة بصور ونماذج من هذه الحركة الشعرية والنقدية، وما كان يجري بين جريز والفرزدق والأخطل حيث يقوم الشاعر بنظم قصيدة في هجاء خصمه والافتخار بذاته ويقومه على وزن خاص وقافية خاصة، فيقوم الآخر بنقضها بنظم قصيدة ماثلة ويحوّلها إلى هجاء مضاد على نفس الوزن والقافية، وقد تشكلت في هذا الإطار ثلاثة معسكرات، كل واحد تعصب لشاعر وفضله على خصمه والتمس محاسن شعره فيشيعها، ويبحث عن معائب الآخر فيشهر بها.

وقيل: إن الأخطل تحالف مع الفرزدق ضد جريز لكن جريراً أفحهمها، وقيل: إن كذا وأربعين شاعراً تحالفوا ضده فأسكتهم لقدراته ومهارته في هذا الفن.

وقد كانت هذه الخصومات سبباً في غلبة هذا الاتجاه على الشعر والنقد في العراق حتى عدّ الشاعر غير السائر على طريقة هؤلاء في المدح والهجاء شاعراً متخلفاً ضعيفاً.

قال ذو الرمة مرة للفرزدق: ما لي لا ألحق بكم معشر الفحول؟ فقال له: لتجافيك في المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديار، أي أنه ما زال ينظم على منوال القدماء ولم يساير الظروف.

- نقد جديد (محكمة الشعر):

حين نفتش عن النقد في هذه البيئة نجد نقداً آخر يتلاءم مع طبيعتها وما كان فيها من شعر، حيث اتجه النقاد هناك إلى الموازنة بين الشعراء، وأي الثلاثة أشعر؟ وسموا هذا:

١- قضاء.

٢- وسموا الذي يحكم قاضياً.

٣- وسموا الحكم والحاكم أي الناقد " حكومة " .

وقال جرير في الأخطل لما فضل الفرزدق عليه:

فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بنى شيبان
غير أن هذا النوع من النقد لم يكن الوحيد في العراق؛ لأن هناك بعض الشعراء من قال
شعراً خارج شعر النقائض، ولذلك راح بعض النقاد يُعنى بمميزات شعر الشاعر، وما تفرد
به عن غيره، والبحث عن مواطن ضعفه وقوته وموازنه بغيره وإصدار الحكم عليه.

أ- نماذج نقدية في غير النقائض:

١- حكم الفرزدق على النابغة الجعديّ بأنه صاحب (خُلُقَان) والبيت يساوي عنده آلاف
الدراهم والبيت لا يساوي إلا درهماً.

٢- حكم الفرزدق على ذي الرمة بجودة شعره لولا وقوفه عند البكاء على الدّمن.

مرّ الفرزدق بذى الرمة، وهو ينشد شعره، فلما فرغ قال: كيف ترى شعري؟ قال: أنت
شاعر، قال: فلم فضّل عليّ غيري؟ قال: لأنك كثير البكاء على الدمن، وكثير الوصف لأبوال
الإبل وذكر الديار البلاقع، فإذا صرت إلى الهجاء والمدح أكديت.

٣- سُئل جرير عن ذي الرمة، فقال: بعر ظباء يفوح، ونقط عروس، أراد به بعير ظباء،
يعني أول ما تأخذ بعير الظباء تفوح منه رائحة المسك، ثم يرجع إلى حالته، يعني شعر ذي
الرمة أول ما يطرق السمع توجد له حلاوة، ثم لا.

كان أبو عمرو بن العلاء يقول: ختم الشعر بذى الرمة.

٤- كذا حكم جرير على الأخطل بأنه: " يجيد مدح الملوك، ويصيب صفة الخمر " .

٥- وموازنة الأخطل بين جرير والفرزدق بأن جريراً يغرف من بحر، والفرزدق ينحت
من صخر، اجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان، وكان بشر يغري بين
الشعراء فقال للأخطل: احكم بين الفرزدق وجرير فقال: اعفني أيها الأمير، قال: احكم بينهما

فاستعفاه بجهد فأبى إلا أن يقول فقال: هذا حكم مشؤوم، ثم قال: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر، فلم يرض بذلك جرير وكان سبب الهجاء بينهما. (الأغاني ٣٢٧/٨).

٦- وإلى جانب نقد الموازنة في شعر النقائض، وكذا النقد الذي يُعنى بإبراز ما تفرده به بعض الشعراء في شعرهم عن غيرهم، فهناك نقد يُعنى بالمعاني الجزئية في شعر الشاعر دون موازنته بغيره، فقد نقد الحجاج الفرزدق حين مدحه في قوله:

من يأمن الحجاج والطير تتقى عقوبته إلا ضعيف العزائم
فقال الحجاج: الطير تتقى كل شيء حتى الثوب والصبي. وفضل عليه قول جرير فيه نفس المعنى:

من يأمن الحجاج أماعقابه فمُرُّ وأماعهده فوثيق
يُسِرُّ لك الشحنة كل منافق كما كل ذي دين عليك شفيق
(الجلس الصالح والأنيس الناصح ١٥٣).

ب- السرقات الشعرية في هذا العصر:

وقد ظهر هذا الضرب من النقد الأدبي انطلاقاً من نظرة الإسلام لمفهوم السرقة حيث عدّها انحرافاً اجتماعياً، وقد حرم السرقة بجميع أشكالها.

وذهب بعض الشعراء ينسبون لقبائلهم شعر شعراء قبائل أخرى، وأحياناً ينسبون لأنفسهم البعض من جيد الشعر الجاهلي حتى يظهروا بمظهر الفحول فيعلو مقامهم ويذيع صيتهم.

وللفرزدق تمم عديدة، فقد كثرت مصادرتة لشعر غيره. كما تذكر بعض الروايات تمم الأصمعي له بأن تسعة أعشار شعره سرقة، قلت للأصمعي: كيف شعر الفرزدق؟ قال: تسعة أعشار شعره سرقة، قال: وأما جرير فله ثلاثون قصيدة ما علمته سرق شيئاً قط إلا نصف بيت، وكان كذلك يستعين بأشعار "تغلب" في خصومته مع الفرزدق، وتارة يستعين بشعرائها في نظم قصائده، واتهم "كثير عزة" بالسرقة من شعر "جميل بثينة"

حين يتغزّل بعزّة، وقد كان لأخبار سرقة الشعر صدى واسع في أوساط الشعراء ولدى العامة أيضاً.

ج- حركة الخوارج الشعرية:

وهي حركة أدبية ونقدية متأثرة بالإسلام وبتعاليمه، التي كان لها شعر قوى رائع ابتعدت فيه عن المدح والهجاء، بل كان شعراؤها يهدفون إلى:

١- إرضاء عواطفهم بالاستهانة بالموت في سبيل الله.

٢- والحث على الشجاعة.

٣- وإنكار شهوات النفس.

٤- وتسخيرها لإرضاء الله.

مستخلصين ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١١] ولهم في هذا شعر يفيض بقوة إيمانهم وشدة شجاعتهم، وقد امتدت نزعتهم هذه إلى نقدهم، حيث راحوا يهونون من شعر الشعراء الذين يتكسبون ويتمسحون بالأمرأ ليمدحوهم بما ليس فيهم حتى ينالوا المال والمكانة.

د- الشاعر الحق عند الخوارج:

١- من صدق في قوله.

٢- واتقى الله في شعره.

٣- وزن الشعر بميزان ديني أخلاقي.

أما غيرهم فيزنونه بميزان فني بحث، غير أن دور الخوارج في الحقل الأدبي ضعف بضعفهم سياسياً، ومن أشعار الخوارج:

- قول قطري بن الفجاءة:

أقول لها إذا جاشت حياء من الأبطال ويحك لن تُراعي
فإنك لو طلبت حياة يوم على الأجل الذي لك لن تُطاعي

فصبراً في مجال الموتِ صبراً فيما نيلُ الخلودِ بمُستطاعِ
وما ثوبُ الحياةِ بثوبِ عزِّ فيطوى عن أخي الخنعِ اليراعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيِّ وداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يُعْتَبَطُ يهْرَمُ ويسأمُ ويُفَضُّ به البقاءُ إلى انقطاعِ
- ومنه قول زيد بن جندب الخارجي لما وقع الخلف بين أصحابِ قَطْرِيَّ:

قل للمحلِّينَ قد قرَّتْ عيونكمُ بفرقةِ الحقِّ والبنغضاءِ والهَرَبِ
كنا أناساً على دينٍ ففرَّقنا قدعُ الكلامِ وخلطُ الجِدِّ باللَّعِبِ
إني لأهونكم في الأرضِ مُضطرباً مالي سوى فرسي والرَّمحِ من نَسَبِ

٣- النقد في الشام:

أ- سبب نشاط الشعر والنقد في الشام:

١- إن أكبر مظهر للأدب في الشام هو المديح.

٢- ولذلك اختلفت الحركة النقدية في الشام على ما كانت عليه في الحجاز والعراق.

٣- فقد عاشت الحركة النقدية هناك في بلاط الخلفاء الأمويين، وفي قصور وولاتهم في مختلف الأقاليم والأمصار.

٤- وسبب ذلك هو أن دمشق كانت عاصمة الخلافة الأموية يفد الشعراء إلى خلفائها من كل الجهات.

٥- وكان بنو أمية عرباً أقحاحاً فصحاء يتذوقون الشعر ويعجبون به ويطلبون لساعه ويكافئون الشعراء عليه.

٦- وكانت قصورهم شبه منتديات للشعر ومراكز للمناقشات "أي النقد" في مختلف القضايا الأدبية، كما كانت مركزاً للسلطة والسياسة أيضاً.

٧- وما يناسب القصور هو المديح لذلك لَوَّنَ الشعرُ هناك بهذا اللون، ولَوَّنَ النقدُ بلونه أيضاً، أي نقد شعر المديح.

٨- وقد شجع خلفاء بني أمية الشعراء على مدحهم والرد على خصومهم من شيعة وزبيرين ومنحهم مقابل ذلك جوائز مالية معتبرة.

٩- ومن أبرز هؤلاء الشعراء: كُثَيِّر عَزَّة، والأخطلُ بالخصوص الذي قضى حياته يمدحهم ويعلي من شأنهم ويهجو من ناوأهم.

١٠- وقد ارتبط النقد في الشام بطبيعة هذا الشعر، فقد تبع الإكثار من شعر المديح الإكثار من نقد المديح.

١١- وكان من أشهر نماذج نقد شعر المديح للخليفة عبد الملك بن مروان؛ لأنه كان يملك ذوقاً أدبياً رفيعاً مكنه من الفهم العميق لمحتوى الشعر وصياغته وتوجيه الشعراء وإرشادهم وتصحيح بعض أخطائهم وصورهم الشعرية.

١٢- وقد تميزت الحركة النقدية في بيئة الشام بميزتين، أي بنوعين من النقد؛ هما:

أ- النقد الرسمي.

ب- النقد الفني.

أما **النقد الرسمي**؛ فهو ذلك الذي يمثل وجه الخلاف في الرؤيا بين الشاعر وبين الخليفة الممدوح رجل السلطة في رسم (صورته الشخصية)؛ لأن رجل السلطة يرى نفسه شخصية متميزة غير عادية، ومن ثم كان على الشاعر أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار.

وأما **النقد الفني**؛ فيعنى بنقد (الصورة الشعرية) وهو مقياس نقدي قديم في النقد العربي.

١٣- وقد أولى النقاد النقد الفني اهتماماً بالغاً وفق خصوصية كل بيئة وطبيعة شعرها.

١٤- وكان لولاة آل مروان في الأمصار كذلك مستوى راق من الذوق الأدبي، وإحساس مرهف بالصورة الشعرية الجميلة، وما كان يجري في بلاطهم كذلك أشبه بما كان يجري في مديح في بلاط الخلفاء في دمشق عاصمة الخلافة، وكانت أحكامهم على مستوى جيد من الدقة في فهمهم للشعر وحكمهم عليه.

ب- شواهد نقدية تطبيقية من النقد الرسمي؛

١- مدح ابن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان بقصيدة جاء فيها:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو العاص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
فقال له الخليفة: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم!، ومدح "مُضْعَباً" كأنه
شهب من الله، وذكر الشاعر بما قال في مدح مصعب بن الزبير، ورأى ذلك أجمل مما قال فيه في
قوله:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
٢- وقال جرير في عبد الملك بن مروان:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقهم إليّ قطينا
فعلق عبد الملك على معنى البيت قائلاً: يقول لي ابن عمي، ثم يقول لو شئت ساقهم إليّ،
أما لو قال: لو شاء ساقهم لأصاب، فقد جعلني شرطياً له!

٣- وقال ذو الرمة يمدح الوالي بلالاً بن أبي بردة:

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيّدح انتجعني بلالا
فقال الوالي، وقد لاحظ خللاً في معنى البيت: "أعلفها قثاً ونوى"، موحياً إلى قلة فطنة
الشاعر وضعف خبرته بفن المديح.

٤- وكثيراً ما لفت عبد الملك بن مروان انتباه الشعراء إلى حسن رسم الصورة الشعرية بما
يناسب مقامه وإبراز الفضائل الخلقية والدينية التي تثير إعجاب الرعية، والدالة على التقوى
والعدل والفضيلة؛ ليكون أهلاً للخلافة عند رعيته. وكان تقدير عبد الملك بن مروان للمقام
وإحساسه بجودة المعنى وجمال الصورة دقيقاً ينم عن قوة وعمق تذوقه للشعر.

فقد أنشده راعي الإبل مرة:

أخليفة الرحمن إنما معشر حنفاء نسجد بكرةً وأصيلا

عرب نرى الله في أموالنا حَقَّ الزكاة منزلاً تنزيلاً فقال له: ليس هذا بشعر إنما هو شرح إسلام وقراءة آية، ويعنى بذلك أن مثل هذا الشعر قيم في مضمونه، لكنه جاف فقير من الناحية الفنية، وبالتالي ليس بالشعر الجيد الذي ينبغي أن يكون كذلك في المبنى والمعنى.

ثانياً- عوامل ازدهار النقد في العصر الأموي:

١- تشجيع الخلفاء والأمراء:

فتح الخلفاء والأمراء أبوابهم للشعراء، فوفدوا من كل فج، فاشتد تنافس الشعراء، وحرص كل منهم على أن يتخير معانيه وألفاظه، وذلك بسبب الجوائز التي كان يرصدها الأمراء، فإنه يمثل حركة أدبية نشطة شجع عليها خلفاء بني أمية، الذين كانوا من ذوى الحس اللغوي الصافي والذوق الأدبي والنقد، ولا ريب أن النقد قد دفع الشعراء إلى تصفية شعرهم مما يشوبه.

٢- الصراع السياسي:

وما خلفه من أحزاب: نشأ عن الصراع السياسي عدة أحزاب، الحزب الأموي الحاكم، والحزب الزبيرى المناهض للحكم الشيعة، ثم حزب الخوارج الثائر على دعوى الوراثة القرشية للخلافة، فإن هذه الأحزاب على اختلاف مذاهبها كانت باعثاً قوياً من بواعث الأدب وقوة الشعر، وقد سائر النقد هذه النهضة الأدبية، ولمع في سمائها، وأخذ ألواناً مختلف في اتجاهاتها مع اختلاف الحياة في أرجاء الدولة.

٣- مجالس النقد:

اهتم خلفاء بني أمية بالشعر والشعراء اهتماماً كبيراً، لاعتمادهم عليهم في الدعوى لهم، فكان للشعراء جانب مذكور في تلك المجالس، ينقدون شعرهم، وكان بين بعض الشعراء تود وتعاطف، فقد جمعتهم صلة الشعر، وألف بينهم ما كان فيهم من اختلاف المنزع والاتجاه، ولم تعصف بهم ريح التنافس، فإن هذه المجالس تناولت الأدب ونقده، مما يدل على شيوع الذوق الأدبي الرفيع، وعلى نضج العقل العربي واتساعه، وبصره بالقواعد والأصول التي يقوم عليها فن الأدب، فإن مجالس النقد كانت عاملاً قوياً من العوامل التي دفعت النقد إلى الأمام، وخلفت تراثاً نقدياً ضخماً.

٤- تعدد مراكز الشعر وأسواقه:

عمل على تجويد الشعراء، كما عمل على نمو روح النقد عندهم، حيث كان النقد والشعراء يوازنون بين غرض شعري وآخر في شيء من الفهم والعمق والوعي، فقد كانت تلك الأسواق بمثابة منتدياتهم الأدبية التي يعلنون فيها عن براعتهم ورقمي أدواقهم. ومن هذه المراكز سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة، فقد تحولوا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يغدو عليهما شعراء البلدين، ومن يفد عليهما من البادية لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعارهم.

٥- الجدل السياسي ممثلاً بالنقائض: فن جديد من الشعر، استلزمه الجدل السياسي والقبلي والاجتماعي والأدبي، ونبغ فيه كثير من الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل، وقد ظهر أثر النقائض في ازدهار الحركة النقدية واضحاً في أن كل شاعر منهم التف حول فريق من أنصاره المعجبين بشعره، يحاولون أن يظهروا للناس محاسنه وأسباب تفوقه.

٦- نشأة علوم العربية: وضعت في هذا العصر نواة علوم العربية، كعلمي اللغة والنحو، وقد هيأ الله لهذه اللغة العلماء المخلصين، الذين ضبطوا شاردها، ووضعوا لها الضوابط التي تضمن لها العصمة من الخطأ والضياع من أمثال يحيى بن يعمر، وعبد الله بن إسحاق الحضرمي، فقد أثر هذا النشاط العلمي في مجالي اللغة والنحو على الأدب والشعر والنقد، وكان هؤلاء العلماء ينظرون في أعمال الأدباء والشعراء، ويتعقبونهم، ويبرزون ما فيها من أسباب الحسن والجودة أو القبح والرداءة.

ثالثاً- المدارس النقدية في العصر الأموي واتجاهاتها:

تمهيد:

كان للنقد الأدبي دوره الرائد في النهضة الفكرية واللغوية والأدبية، وقد اتخذ أشكالاً تتواءم مع كل بيئة من بيئاته وطائفة من طوائفه، كما ظهرت المدارس الأدبية في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية وأطرافها.

١- المدرسة الحجازية:

وهي مدرسة الغزل، وكان النقد فيها مطبوعاً بطابع الذوق الفني والرقّة، والروح الإنسانية، وقد اشتهر نقد أصحاب هذه المدرسة بنقد الذواقين تارة وبنقد الشعراء تارة أخرى، ومن أشهر النقاد الذواقين في هذه المدرسة، ابن أبي عتيق، وسكينة بنت الحسين.

٢- المدرسة الشامية:

وهي مدرسة المدح، وحوله قامت حركة نقدية في قصور الخلفاء وأنديتهم، ويعتمد على الذوق الفطري المصقول بطول النظر في الشعر، واستيعابه نأذجه، وتمثل طرائق العرب في التعبير والتصوير.

فالنقد غالباً ما اتجه إلى تقييم الحركة الشعرية على ضوء اقترابها وابتعادها عن القيم الفنية الموروثة، وكان الخلفاء أنفسهم هم عمدة هذه المدرسة، وكان عبد الملك بن مروان على رأس خلفاء بني أمية في مجال النقد.

٣- المدرسة العراقية:

الشعر في هذه المدرسة يشابه الشعر الجاهلي في موضوعه وفحولته وأسلوبه، فالفخر بالأصول والعصبية والصراع بين الشعراء خلف لنا شعر النقائض.

إن بيئة العراق بيئة علمية ثقافية امتزجت فيها الأصول العربية والأصول الأجنبية، ولذلك تأثرت هذه المدرسة بالمنهج العلمي الذي اعتمد فيه نقادها غالباً على قواعد النحو وأصول اللغة، يقيسون الأدب بمقاييسه.

الباب التاسع عشر

الحكمة العربية والإسلامية

الباب التاسع عشر

الفصل الأول

((المعتزلة))

تمهيد:

اطلع العرب على حضارات غيرهم، ومنحهم ذلك أسلوباً عقلياً في الجدل والحوار في كثير من الأمور والمسائل الدينية، ونتيجة لهذه الأسباب والمؤثرات الداخلية والخارجية ظهرت في مسائل (علم الكلام) تيارات رئيسية أهمها:

المعتزلة.

الأشاعرة.

أولاً- نشأة المعتزلة:

ترجع نشأة المعتزلة إلى شخصية ((واصل البصري))، الذي كان تلميذاً ((للحسن البصري))، فقد كان الشيخ البصري يجلس في حلقة مع تلاميذه حين دخل عليهم رجل يسأله عن رأيه في الحكم على مرتكب الكبيرة، حيث قال عنه بعضهم: إنه كافر، وتساهل بعضهم الآخر فقال: إنه ما زال مؤمناً على الرغم من ارتكابه الكبيرة، وحين أجاب الشيخ (الحسن البصري) بأنه يؤيد من يقول بحكم الكافر على مرتكب الكبيرة، اعترض ((واصل بن عطاء)) قائلاً: إنَّ مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر، وإنما يكون في منزلة بين المنزلتين، وقد يُسمى فاسقاً أو مسلماً عاصياً، ثم غادر الحلقة فأشار الشيخ إليه قائلاً: ((لقد اعتزلنا واصل)).

وقد قام من أيّد (واصل) من الحاصرين وتبعه، وبقي من لم يؤيد هذا القول ومن هنا سُمِّي ((واصل)) ومؤيدوه جماعة المعتزلة.

ولبعض الباحثين رأي آخر وهو أن المعتزلة ليس مأخوذاً عن فكرة الانفصال عن مذهب أهل السنة والجماعة، وبالتالي لم يكن من وضع أهل السنة، بقصد الذم أو السخرية من المعتزلة

بوصفهم خارجين على مذهب الجماعة الإسلامية، ومنشقين عنها، وإنما اختار المعتزلة الأولون هذا الاسم من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [سورة الكهف: ١٦].

وهو قول أهل الكهف عن قومهم الكافرين، وقول المعتزلة عن باقي المسلمين الذين لم يأخذوا برأيهم.

ومهما يكن من نشأة المعتزلة: فقد كانت هذه بداية ظهور هذه الفرقة الكلامية الكبرى التي كان لها الأثر الفعال في التطور الفكري والعلمي اللاحق عند العرب والمسلمين.

ثانياً- مبادئ المعتزلة:

التوحيد: مبادئ عامة تتلخص فيما يلي:

١- التوحيد:

أجمع أهل المعتزلة على وحدانية الله تعالى طبقاً لما جاء به الشرع، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١] وغيرها كثير، إلا أنهم استخدموا التأويل العقلي في صفاته حيث رفضوا الجسمية، أي أن الله تعالى منزّه عن أن يكون جسماً مادياً متحدداً في مكان، وصفاته هي ذاته أي ليس هناك تعدد أو انفصال بين الذات والصفات، فهو يُمثل الخير المطلق والعلم المطلق، والقدرة المطلقة، وبالموازنة مع (أهل السنة والجماعة) يتفقون مع المعتزلة بالقول بوحداية الله تعالى، وبأنه واحد لا شريك له، إلا أنهم يختلفون معهم في صفات الله سبحانه وتعالى، فحيث أنهم يعتمدون على ظاهر ما ورد في القرآن الكريم من ذكر الصفات المجسمة - مثل اليد والعرش - فإنهم يقولون: إنه ما دام القرآن الكريم قد ذكر هذه الصفات فإنها حقيقية، إلا أنها تختلف عما نعرفه نحن البشر.

أما المعتزلة فإنهم يعتمدون على التأويل العقلي، ولذلك تراهم ينفون (التجسيم) أي أن يكون له سبحانه وتعالى يد وعين كما للبشر، هذا من جهة، كما ينفون أن يكون لصفاته تعالى استقلال عن ذاته من جهة أخرى، ولهم (المعتزلة) فيها تفسير خاص، ومدلول مختلف، فالله تعالى عالم بعلم هو (هو) وقادر بقدرة هي ((هو))، فالعلم ليس على هذا الأساس صفة لله، والقدرة نفي العجز عن ذات الله تعالى، والحياة نفي الموت عن ذات الله

تعالى، فلا شيء إذاً غير الذات، وإنما تختلف الصفات باختلاف إدراكاتنا نحن لمعاني ذاته المنزهة؛ لأن صفات الله تعالى - كما يقولون - إذا كانت قديمة، فقد شاركت (الذات) في القِدَم، فأصبحت آلهة أخرى.

٢- العدل:

توصل المعتزلة من خلال العقل إلى أن الله تعالى عادلٌ عدلاً مطلقاً، يتنفي عنه الظلم، وعدالة الله تعالى تظهر في عقاب الإنسان على الإساءة وإثابته على الإحسان، وحيث أن الله تعالى منح العبد العقل والحرية والإرادة، فعليه يكون جواز التكليف، وهذا ما نجده في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [سورة المدثر: ٣٨]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨].

٣- الوعد والوعيد:

امتد رأي المعتزلة من العدالة الإلهية إلى وعده ووعيده، وفسروه بأن الله تعالى يعدُّ بالثواب، ويتوعد بالعقاب، والله سبحانه وتعالى عادل وصادق في وعده ووعيده؛ لأنه ألزم نفسه به، وعلى هذا تكون قضية الوعد والوعيد نتيجة منطقية لرأي المعتزلة في العدل، أما باقي المسلمين فيعتقدون أن وعد الله تعالى يحققه كما وعد، أما وعيده فقد يتخلف؛ لأن الله لطيف بعباده فيعفو عنهم.

٤- المنزلة بين المنزلتين:

وهذا أصل من أصول المعتزلة كان السبب في انفصال ((واصل بن عطاء)) عن أستاذه ((الحسن البصري)) كما رأينا، وذلك أنه حكم على المسلم الذي يرتكب (الكبيرة) دون الشرك بأنه لا مؤمن ولا كافر، بل فاسق، وجعل الفسق منزلة مستقلة عن منزلتي الكفر والإيمان، تقع بينهما، فيكون الفاسق دون المؤمن وخير من الكافر.

وهكذا فالمعاصي في نظرهم نوعان: صغيرة وهي التي لم يأت الشرع فيها بالوعيد وكبيرة، وهي ما أتى بها الوعيد، والكبيرة نوعان:

أحدهما: يُجَلُّ بأصل من أصول الدين كالشرك واعتقاد وقوع الظلم من الله تعالى، ومرتكب هذا النوع كافر، والثاني: لا يُجَلُّ بأصل من أصول الدين، كقتل النفس التي حَرَّمَ الله تعالى قتلها إلا بالحق، والزنى، وشهادة الزور وغيرها، ومرتكب هذا النوع ليس بمؤمن لارتكابه ما ينهي عنه الدين، ولا بكافر؛ لأنه ينطق بالشهادة، بل هو بفاسق.

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ليس هذا الأصل من العقائد، بل هو تكليف، والبحث فيه من اختصاص الفقه، وقد ورد في القرآن الكريم آيات متعددة بهذا المعنى منها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]، ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [سورة لقمان: ١٧] فتناول المعتزلة هذه القضية وجعلوها واجبة على كل مؤمن، وبعضهم قال: إن الإمام هو المسؤول عن عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأي شكل يضمن معه الأمان والاستقرار للأمة، وجعلوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرائط يوجب بوجودها، ويسقط بزوالها، منها مثلاً أن يعلم من يقوم بذلك أن المأمور به معروف، وأن المنهي عنه منكر؛ لأنه لو لم يعلم ذلك لا يأمن أن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف وهو يعتقد غير ذلك، وغلبة الظن في هذا الموضوع لا تقوم مقام العلم، ومنها أن يعلم أن قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يؤدي إلى مضرة أعظم منه، فإنه لو علم، أو غلبَ في ظنه أن نهبه عن شرب الخمر يؤدي إلى قتل جماعة من المسلمين أو إحراق محله لم يجب، وبما أنه لا يجب فهو لا يحسن فعله... إلخ.

هذا ما يميز المعتزلة على وجه العموم، وإذا كانت مبادئهم المذكورة آنفاً مثار جدل، وسبب خلاف بينهم وبين غيرهم رافقه مبالغات فرضتها ظروف تاريخية، سياسية، واجتماعية واقتصادية.

وما يهمننا من قراءة تراث المعتزلة هو الإلحاح على ما خلفوه من أثر بعيد في الفكر العربي، وهو دفاعهم عن (دور العقل وحرية الإنسان)، لقد بلغ التحرر الفكري في أمور العقيدة مبلغاً عظيماً، أصبحنا اليوم نتمنى أن نقرب من بله أن نصل إليه.

ثالثاً: ((التأويل عند المعتزلة))

أ- الاتجاه العقلي في التأويل عند المعتزلة:

إن الاتجاه العقلي في التأويل عند المعتزلة قد مرَّ بمرحلتين كان لهما الأثر في تطوير التفكير الفلسفي في أمور الدين:

١- المرحلة الأولى:

وقد تأثر المعتزلة فيها بدراسات أسلافهم من المسلمين من أهل (العدل والتوحيد) الذين اشتهروا بالنظر العقلي لأموال الدين قبل أن يتأثروا بالفلسفات الأجنبية التي كانت لم تترجم بعد إلى العربية.

٢- المرحلة الثانية:

وجاءت بعد حركة الترجمة التي قام بها العرب لعلوم وفلسفات الحضارات الأخرى والتي اطلعوا عليها بعد الفتوحات العربية.

والحقيقة أن أهمية العقل لدى المعتزلة تظهر بوضوح في موقفهم في كثير من المسائل التي دار حولها جدل كثير، فحين يعرض المعتزلة للأدلة ومصادر التشريع وترتيبها يختلفون اختلافاً جذرياً عن غيرهم في تعداد تلك الأدلة وترتيبها، فبينما هي ثلاثة عند غيرهم مثلاً: (الأشاعرة): الكتاب والسنة والإجماع، نجد لها أربعة عند المعتزلة، فهم يضيفون العقل والتأويل العقلي إليها، وقد ترتب على هذا الإغلاء من شأن العقل أن تميز المعتزلة عن غيرهم في الموقف من العلاقة بين (العقل) و(النقل) فبينما يكون الشيء حسناً وقيحاً؛ لأن هناك نصاً يقول لنا:

إنه كذلك حسب قول السلف، نجد المعتزلة يعتمدون على العقل، ويثقون في حكمه بالتحسين والتقييح، فأحسن والقبح عندهم ذاتيان، لذا فهم يجعلون إدراكها وظيفية من وظائف العقل، فأوجبوا عرض النصوص على العقل، فهو الحكم الذي يميز صحيحها من منحولها (القبيح في العقل، هو القبيح في الشرع، والحسن في العقل هو الحسن في الشرع).

ومن الطبيعي أن تجعل المعتزلة العقل، هو قوام أمور الدنيا أيضاً، وإذا تعارض العقل مع الشرع، أول الشرع بما يتفق مع العقل، وأن يكون هو الأساس في كل ما يتعلق به الشرع والمسألة عندهم هي أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً.

وأَسُّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله (أي العقل) وجعل الدنيا مَدَبَّةً بأحكامه.

ب- موقف المعتزلة من الإسلام:

حين أعطت المعتزلة العقل هذه المكانة - لم يهملوا النقل والمأثورات - ولكنهم جعلوا العقل، وكذلك ما تُعَرِّض عليه تلك المأثورات كي يفصل في صحتها.

وقد أكدوا توازن موقفهم حين نهوا إلى أنَّ العقل حجة الله تعالى ودليله لدى الإنسان، وكذلك الكتاب، ومن المحال أن يتناقض دليان الخالق واحد؛ لأن الغاية منها معاً هداية الإنسان.

ومن هنا اعتبرت المعتزلة ممثلي الحرية والنزعة العقلية في الإسلام، بل غالى بعض الباحثين حتى اعتبرهم أحرار الفكر في الإسلام، وقد استطاعوا بمنطق العقل الذي اصطنعوه، وبالثقافة التي تهيأت لهم، وبالبيان الخلاب الذي دان لأقلامهم وألستهم أن يُبلوا في الدفاع عن الإسلام أحسن بلاء، فحاربوا أعداءه ممن كانوا مزودين بثقافات فلسفية لا يقوى على دحضها إلا من استطاع التصدي لمقاومتها بنفس سلاحها، وبهذا تهيأ لرجال الاعتزال أن يفلسفوا العقيدة، وأن يُسهبوا في الحديث عن الإنسان وإرادته الحرة وعقله، ونحو ذلك معتمدين في كل هذا على البرهان العقلي دون أن يغفلوا عن الاستشهاد بالدليل النقلي (القرآن والسنة).

وما يستطيع الباحث أن ينسى جهود (النظام) المتوفى سنة (٢٣١هـ) و(أبي الهذيل العلاف) المتوفى (٢٣٥هـ) و(الجاحظ) المتوفى (٢٥٥هـ) وغيرهم من أساطين الاعتزال، ممن دافعوا عن العقيدة، وأبلوا في دفع الشُّبه عنها أحسن بلاء.

ج- أهمية المعتزلة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي:

وعلى هذا النحو تظهر أهمية المعتزلة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، بوصفها فرقة (كلامية) كان لها دور فعّال لما أضفته على الحضارة العربية من الإبداع الفكري، والتأويل العقلي، والدفاع عن حرية الإنسان.

د- واصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة:

مقدمة:

يعتبر واصل بن عطاء الشخصية الأولى التي نسب إليها مذهب الاعتزال، يحيط بشخصيته قدر كبير من الغموض، ابتداء من هذا الولاء المنسوب لبني ضبة، أو لبني مخزوم، وانتهاء بالخلاف حول اعتزاله؛ والأهم من هذا ظروف النشأة، وتلقي العلم، والغموض في هذا الجانب يظهر من خلال صلواته الفكرية المتعددة أيضاً:

١- فهو مرة يظهر من متتاي مجلس الحسن البصري.

٢- ومرة يظهر في مجالس الثنوية والمجوس.

٣- ومرة يبدو مختلفاً إلى مجموعة من اليهود، الذين اندسوا بين المسلمين في البصرة.

أولاً - مولده وشخصيته: يجمع المؤرخون على أنه ولد في المدينة المنورة حرسها الله تعالى سنة (٨٠هـ)، وتوفي سنة (١٣١هـ)، وقد ذكر أن له جملة من التصانيف، ولم يصلنا شيء منها؛ مثل:

١- أصناف المرجئة.

٢- وكتاب التوبة.

٣- وكتاب المنزلة بين المنزلتين.

٤- وكتاب خطبته التي أخرج منها الرءاء.

٥- وكتاب خطب التوحيد والعدل.

وكنيته أبو حذيفة الغزال، مولى ابن مخزوم، وقيل: مولى ابن ضبة، وبالرغم من أنه كان مولى، فقد ولد حراً، مع أن المصادر ساكتة تماماً عن أبويه، فلا تذكر عنهما شيئاً، غير أننا نلاحظ أنه لم يذكر عنه أنه كان عبداً، بل إن المصادر تذكر أنه كان غزّالاً، أما لقبه الغزال، فيلاحظ أن المعتزلة ينتسبون إلى بعض الصناعات غالباً؛ كالغزّال، والعلاف، والنظام، والفوطي، والإسكافي، وقد حاول المبرد (ت ٢٨٥هـ) أن يأتي لهذا اللقب بالتحريج الآتي؛ فقال: " ولم

يكن غزالياً، ولكنه كان يلقب بذلك؛ لأنه كان يلزم الغزاليين، ليعرف المتعطفات من النساء، فيجعل صدقته هن".

ومعظم مفكري المعتزلة كانوا ذوي مهن؛ فلماذا تنفى مهنة الغزال عن واصل وحده، وهناك ستة عشر معتزلياً كانوا من أصحاب الحرف، أو من طبقة أصحاب الحرف، أو من طبقة التجار الصغار، كعمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ)، كان أبوه نساجاً، وواصل بن عطاء (ت ١٣١هـ)، ويلقب بالغزال، والعلاف أبو الهذيل (ت ٢٣٥هـ)، وكان يلقب بالعلاف؛ لأن داره بالبصرة كانت في العلافين، والنظام "مات في خلافة المعتصم"، كان ينظم الخرز في سوق البصرة؛ لأجل ذلك قيل له النظام، وبشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ)، كان نحاساً في سوق الرقيق، وهشام بن عمرو الفوطي، هذه النسبة إلى الفوطة، وهي نوع من الثياب، والجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، كان وراقاً، وأبو يعقوب يوسف الشحام، وهذه النسبة إلى بيع الشمع، وأبو عيسى الوراق، كان وراقاً، وجعفر بن مبشر القصببي (ت ٢٣٤هـ)، كان يبيع القصب، وأبو جعفر الإسكافي (ت ٢٤٠هـ)، كان خياطاً، وأبو الحسين الخياط، كان خياطاً، وأبو مسلم النقاش، كان نقاشاً.

فإذا كانت غالبية متكلمي المعتزلة يحترفون هذه المهن، فلماذا ينفي عن واصل أنه كان غزالياً؟ مع أن الذي يفهم من شعر بشار بن برد في واصل أنه كان غزالياً بالفعل؛ حيث يقول:

مالي منيت بغزال له عنق كتنقِ الصدو إن ولي وإن مثلاً
وقد هجاه الشاعر إسحاق بن سويد العدوي (ت ١٣١هـ)؛ فقال:

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
وقال معدان الشميطي يهجو الخوارج، والمعتزلة، وغيرهم:

لا حروراء لا النواصب تنجو لا ولا صحب واصل الغزالي
وكان مادحوه يذكرونه باسمه فقط، كأسباط بن واصل الشيباني؛ حيث قال:

وأشهد أن الله سماك واصلاً وأنتك محمود النقيبة والشميم
وكان بشار قد مدحه قبل أن يختلف معه، ولم يذكر لقب الغزالي؛ فقال:

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة في خطبة بدت من غير تقدير ومن هنا، فإن لقب الغزال قد يكون موافقاً لحرفته التي يعمل بها، ولا عيب في ذلك، ولكن الذي تعاب به المعتزلة - حقاً - أن هذه الظاهرة تبين عدم انتظام علماء المعتزلة في حلقات العلم، ولا يعدون من رواة الحديث، وعندما أطلقوا العنان لعقولهم؛ لتخوض في العقيدة كما تشاء، برزت الانحرافات العقدية، التي انشغل علماء الأمة بالردّ عليها، وتصحيحها، فلعل مثل هؤلاء الحرفيين كانوا يخوضون في مسائل الدين على هواهم، وهذا ما حدث - فعلاً - والله أعلم.

ثانياً- صفاته الإخلاقية:

١- فقد كان طويل العنق جداً؛ بحيث كان يعاب به، وقد عابه لطول عنقه صاحبه عمرو بن عبيد، وقال: "أنى هذا، وله عنق لا يأتي معها بخير".

٢- كان ألثغ في الرء، شديد اللثغة بها؛ حيث يقول المبرد: "وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب؛ وذلك أنه كان ألثغ، قبيح اللثغة في الرء، فكان يخلص كلامه من الرء"؛ ويقول الجاحظ عن هذه اللثغة: ولما علم واصل أنه ألثغ، فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل... رام أبو حذيفة إسقاط الرء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه".

٣- روي عنه جرأة على كتاب الله تعالى بسبب لثغته؛ حيث يذكر الإمام الذهبي: "أنه كان يمتحن بأشياء في الرء، ويتحيل لها حتى قيل له: اقرأ أول سورة براءة، فقال على البديهة: (عهد من الله ونبيه إلى الذين عاهدتهم من الفاسقين فسيحوا في البسيطة هلالين وهلالين)، وكان يجيز القراءة بالمعنى، وهذه جرأة على كتاب الله العزيز".

٤- وقال البغدادي: "وأما لثغه في الرء فمن مثالبه؛ لأنها تمنع من كونه مؤذناً، وإماماً للقارئ؛ لعجزه؛ لقوله: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن يقول: الله أكبر، وكان لا يصح منه قراءة آية فيها الرء.

٥- ذهب إلى البصرة ولازم مجالس الحسن البصري، فبدأ يطرح إشكالاته الفكرية.

ثالثاً- تلمذة واصل بن عطاء على الحسن البصري:

١- أما تلمذة واصل على الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى (ت ١١٠هـ)، فهي ثابتة بلا شك، ولا يعرف متى قدم واصل إلى البصرة، فإن أقام في المدينة إلى سنة (١٠٠هـ).

٢- جالس الحسن البصري مدة خمس سنوات، وقد بقي أربع سنوات منها صامتاً، لا يتكلم، فسألوا الحسن البصري عن ذلك، فقال: "إما أن يكون أجهل الناس، أو أعلم الناس"، "وكانوا يظنون به الخرس من طول صمته".

٣- فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ): "أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى (ت ١٦٨هـ)، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزدي، قال أبو أحمد جرير بن حازم (ت ١٧٠هـ): فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي، ويختصمون عنده، فأما عمرو، وواصل، فصارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم، وصالح، فصححا التوبة، وأما بشار، فبقي متحيراً مخطئاً، وأما الأزدي، فمال إلى قول السمنية؛ وهو مذهب من مذاهب الهند، وبقي ظاهره على ما كان عليه، قال: فكان عبد الكريم يفسد الأحداث، فقال له عمرو بن عبيد: قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده، فتدخله في دينك، فإن خرجت من مصرنا، وإلا قمت فيك مقاماً آتي فيه على نفسك، فلحق بالكوفة، فدل عليه محمد بن سليمان (ت ١٧٣هـ)، فقتله، وصلبه فيها".

٤- وإذا كان المصدر الذي ذكر ذلك غير ثقة، إلا أنه صدق بقوله عن واصل، وعمرو بن عبيد، وأما الشخصيات الباقية، هي شخصيات منحرفة أيضاً، فبشار بن برد الشاعر كان يميل إلى دين المجوس، ويفضل النار على التراب، ويصوب رأي إبليس في امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام، ورمي بالزندقة عند المهدي الخليفة العباسي؛ فأمر به، فضرب سبعين سوطاً، فمات من ذلك، وكان ذلك سنة (١٦٨هـ).

وأما صالح بن عبد القدوس، فهو شاعر زنديق، قتله المهدي على زندقته؛ حيث أبلغ عنه أنه عرض بأبيات لرسول الله ﷺ فقتله لأجل ذلك.

وأما عبد الكريم بن أبي العوجاء، فيقول عنه الإمام الذهبي: "خال معن بن زائدة (ت ١٥٢هـ)، الزنديق، قال ابن عدي: لما أخذ لتضرب عنقه، قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحلل الحرام، قتله محمد بن سليمان الأمير بالبصرة".

أما الرجل الأزدي، فلا يدري من هو؛ لعدم التصريح باسمه، وهذه الشخصيات التي كانت تجتمع مع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، لا بد أنها أثرت في فكره، ومعتقده، إضافة إلى جماعة من اليهود الذين أظهروا الإسلام اندسوا بين المسلمين بالبصرة، وقد تعرّف إليهم واصل بن عطاء، وجعل يتردد عليهم، ومن قولهم:

١- إن الخير من الله، والشر من أفعال البشر.

٢- وإن القرآن مخلوق محدث، ليس بقديم.

٣- وإن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة.

٤- وإن المؤمن إذا ارتكب الذنب، فشرب الخمر يكون في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمناً، ولا كافراً.

٥- وإن إعجاز القرآن في الصرف عنه، لا أنه معجز؛ أي أن الله لو لم يصرف العرب عن معارضة القرآن، لآتوا بها يعارضه.

٦- والحسن البصري رحمه الله تعالى لم يكن راضياً عن عمرو بن عبيد، قرين واصل؛ لمعتقده الضال في القدر، ولا يعلم حقيقة إذا كان مسمى الاعتزال قد ظهر في حياة الحسن البصري، بعد حادثة ترك الحلقة المشهورة، والمنسوبة لواصل تارة، ولعمرو بن عبيد تارة أخرى، ولم تكن حلقة الحسن البصري، ولا مجالس الثنوية، والمجوس، هي المصادر الفكرية الوحيدة لواصل بن عطاء.

٧- هناك من يرى أن هناك علاقة بين واصل، والجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ)، وهذا غير مستبعد؛ وذلك لأن الرجلين عاشا في عصر واحد، وكانت وفاتها متقاربة أيضاً؛ حيث يقول ابن المرتضى: "إن بعض السمنية قالوا لجهم بن صفوان: هل يخرج المعروف عن الشاعر الخمسة؟ قال: لا، قالوا: فحدثنا عن معبودك: هل عرفته بأيها؟ قال: لا، قالوا: فهو إذاً

مجهول، فسكت، وكتب إلى واصل، فأجاب، وقال: كان يشترط وجه سادس وهو الدليل، فنقول: لا يخرج عن المشاعر أو الدليل، فاسألهم: هل يفرقون بين الحي والميت، والعاقل والمجنون، فلا بد من نعم، وهذا عرف بالدليل، فلما أجابهم جهم بذلك، قالوا: ليس هذا من كلامك، فأخبرهم، فخرجوا إلى واصل، وكلموه، وأجابوه إلى الإسلام".

ولا ندري مدى صحة هذا الخبر، ولكن لعل ابن المرتضى يهدف إلى رفع قيمة واصل؛ إذ المشهور أن السمنية الذين تحيّر الجهم بسببهم، ولم يدر من يعبد لمدة أربعين يوماً، وقد حوا الفتنة في قلبه العليل، ثم ذهبوا، هذه الفتنة التي نالت الجهم في عقيدته، وكانت سبباً في انحرافه، يخشى أن تكون قد تمكنت أيضاً من قلب واصل بن عطاء، فهل كان للسمنية دور في انحراف معتقد واصل في الصفات، والذي تطور، فيما بعد، على يد المعتزلة عموماً، فهؤلاء السمنية، على هذا الاعتبار، نعتبرهم أحد المؤثرات التي أثرت في فكر واصل بن عطاء، كما أسهمت في انحراف الجهم، وحيрте.

الفهرس

١١	مقدمة المجلد الخامس
١٣	الباب الأول: الحياة العامة في العهد الأموي
١٥	الباب الأول: الفصل الأول: الحياة السياسية في العهد الأموي
٣٩	الباب الأول: الفصل الثاني: الحضارة العربية في العصر الأموي
٤١	الباب الأول: الفصل الثالث: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال السياسي
٤٤	الباب الأول: الفصل الرابع: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الإداري
	الباب الأول" الفصل الخامس: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال
٤٩	العسكري
٥٢	الباب الأول: الفصل السادس: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الفكري
٥٥	الباب الأول: الفصل السابع: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الفني
٥٨	الباب الأول: الفصل الثامن: الحضارة العربية في العصر الأموي في المجال الاقتصادي
٦١	الباب الثاني: العصبية القبلية في العصر الأموي
٦٣	الباب الثاني: الفصل الأول: عوامل عودة العصبية القبلية في العصر الأموي
٦٥	الباب الثاني: الفصل الثاني: مظاهر العصبية القبلية في العصر الأموي
٦٧	الباب الثاني: الفصل الثالث: أثر العصبية القبلية في الشعر الأموي
٦٩	الباب الثاني: الفصل الرابع: الرثاء القبلي في العصر الأموي
٧١	الباب الثاني: الفصل الخامس: الفخر القبلي في العصر الأموي
٧٥	الباب الثاني: الفصل السادس: الهجاء القبلي في العصر الأموي
٧٨	الباب الثاني: الفصل السابع: المناقشات القبلية في العصر الأموي
٨٠	الباب الثاني: الفصل الثامن: مواقف الشعراء من العصبية والأحزاب السياسية
٨٣	الباب الثاني: الفصل التاسع: رعاية الشاعر لمصالح القبيلة في العصر الأموي
٨٥	الباب الثاني: الفصل العاشر: المديح المتصل بالعصبية القبلية

الباب الثالث: الشعر في العصر الأموي	٨٧
الباب الثالث: الفصل الأول: حاضنة الشعر في العصر الأموي	٨٩
الباب الثالث: الفصل الثاني: سمات الشعر في العصر الأموي	١٠٠
الباب الثالث: الفصل الثالث: أغراض الشعر في العصر الأموي	١٠٢
الباب الثالث: الفصل الرابع: التحولات التي طرأت على الشعر في العصر الأموي	١٣٤
الباب الرابع: رموز الشعر في العصر الأموي	١٣٧
الباب الخامس: الرجز في العصر الأموي	٢٣٥
الباب السادس: رموز الشعراء الرجاز	٢٤١
الباب السابع: نصوص مختارة من الشعر في عصر بني أمية	٢٥٩
الباب الثامن: دراسات أدبية تطبيقية	٢٩٧
الباب الثامن: الفصل الأول: رؤية في نص الشاعر حق وواجب لابن محكان:	٢٩٩
الباب الثامن: الفصل الثاني: قراءة في نص ميسون بنت بحدل الحنين إلى البادية	٣٠٢
الباب التاسع: النثر في عصر بني أمية	٣٠٥
الباب التاسع: الفصل الأول: الكتابة والكتاب والأدب في العصر الأموي	٣٠٧
الباب التاسع: الفصل الثاني: تنوع الفنون الثرية	٣١٣
الباب العاشر: الخطابة في العصر الأموي	٣١٥
الباب العاشر: الفصل الأول: أنواع الخطابة وخصائصها في العصر الأموي	٣١٧
الباب العاشر: الفصل الثاني: نماذج من الخطابة الدينية في العصر الأموي	٣٢٢
الباب العاشر: الفصل الثالث: أبرز أعلام الخطابة في العصر والأموي	٣٢٩
الباب الحادي عشر: المناظرة في العصر الأموي	٣٣٧
الباب الحادي عشر: الفصل الأول: المناظرة عند الأمويين	٣٣٩
الباب الحادي عشر: الفصل الثاني: نماذج من مناظرات العصر الأموي	٣٤٠
الباب الثاني عشر: الرسائل في العهد الأموي	٣٥١
الباب الثاني عشر: الفصل الأول: رؤيا في رسائل العصر الأموي	٣٥٣

- الباب الثاني عشر: الفصل الثاني: الرسائل الشخصية والخاصة في العصر الأموي ٣٥٥
- الباب الثاني عشر: الفصل الثالث: الخصائص الفنية للرسائل في العصر الأموي ٣٥٩
- الباب الثاني عشر: الفصل الرابع: أسس أساليب الرسائل في العصر الأموي ٣٦٣
- الباب الثاني عشر: الفصل الخامس: المذاهب الفنية في رسائل العصر الأموي ٣٦٤
- الباب الثاني عشر: الفصل السادس: قضايا كتاب الرسائل في العصر الأموي ٣٦٥
- الباب الثاني عشر: الفصل السابع: الرسائل الأدبية في العصر الأموي ٣٦٦
- الباب الثاني عشر: الفصل الثامن: الموضوعات الشخصية الخاصة ٣٧١
- الباب الثاني عشر: الفصل التاسع: نماذج من الرسائل في هذا العصر ٣٧٣
- الباب الثالث عشر: الموعظة التقوية في العصر الأموي ٣٩٤
- الباب الرابع عشر: التوقعات في العصر الأموي ٣٩٥
- الباب الخامس عشر: الأجوبة في العهد الأموي ٣٩٨
- الباب السادس عشر: القصص والحكايات في العهد الأموي ٣٩٩
- الباب السابع عشر: المحاورات في العهد الأموي ٤٠٠
- الباب الثامن عشر: النقد في العصر الأموي ٤٠١
- الباب التاسع عشر: الحكمة العربية والإسلامية ٤٢١
- الباب التاسع عشر: الفصل الأول: ((المعتزلة)) ٤٢٣

